أحمد سعداوي

إنَّهُ يَحلمُ، أَو يلعَبُ، أَو يَموت



منشورات الجمل

رواية

أحمد سعداوي

إنَّهُ يَحلمُ، أَو يلعَبُ، أَو يَموت

رواية

منشورات الجمل

احمد سعداوي: إنَّهُ يَحلمُ، أَو يلعَبُ، أَو يَموت، رواية

أحمد سعداوي: روائي وشاعر عراقي. مواليد بغداد ١٩٧٣. صدر له: **عيد الأغنيات السيئة**، شعر، مدريد ٢٠٠١؛ **البلد الجميل**، رواية، بغداد ٢٠٠٤، حازت الجائزة الأولى للرواية العربية في دبي ٢٠٠٥؛ **إنه يحلم أو يلعب أو يموت**، رواية، دمشق ٢٠٠٨، حازت جائزة هاي فاستيفال ٢٠١٠، بيروت ٣٩. حازت روايته **فرانكشتاين في بغداد** جائزة البوكر للرواية العربية ٢٠١٤.

أحمد سعداوي: **إنَّهُ يَحلمُ، أَو يلعَبُ، أَو يَموت**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأول

كتاب الأقنعة

[ولكنّي أنَا، القِنَاعُ الوفيُّ، الرَّابِضُ تَحْتَ يَدِ حَمِيْد دائماً، والّذِي أنْتَمِي للـ(هُنَانك) أَعْرِفُ هَذِهِ الـ(هُنَانك) جَيِّدَاً.]

عبّود

تخيَّلت مراراً كلَّ التفاصيل. أزْرَار القميص للمضيِّفة التي تُقدِّم ليَّ الشاي أو المشروب الغازيّ داخل الطائرة. تخيَّلت حتى ملمس السُلَّم الحديديّ تحت حذائي الرياضي وأنا أهبط منه مع مسافرين من شتى الأجناس هناك في شمال أميركا، لأجد وجوهاً عديدة تُحَدِّقُ بي، أو أتوهَّمُ أنَّها تُحَدِّقُ بي، وليس بمسافرين آخرين، وأفشل مراراً في تخمين وجه حميد، الذي سيكون أقل سُمْرَةً بالتأكيد وأكثر سُمْنَةً من وجه العراقيّ الذي غادر به بغداد قبل عشر سنوات تقريباً. هناك وأنا تائه بين الوجوه تقبض يد سمينة كتفي وتسحبني برفق إليها. إنَّها يد حميد.

لكنَّ الأمر جرى بطريقة لم أتخيَّلُها أبداً. فبدل أنْ يُرْسِلَ لي حميد من مدينته المجهولة التي يُقيم فيها، تَذْكَرَةَ طائرة. جاء هؤلاء الجنود وملؤوا شوارعنا بعجلاتهم المدرَّعة، مفجِّرين أكثر الاستجابات فنطازية، حتى أنَّ جاسم أبو المصاييد حمل ذات ظهيرة جهاز تسجيل كبيراً وصندوق بيرة وتجرأ بصخبه المعتاد ليتقدَّم باتّجاه الدوريّة الرابضة عند رأس الشارع. وهناك شغَّل جهاز التسجيل على أغْنيَّات راب ووزع، بكَرَمِ السُّكارى، البيرةَ على الجنود ذوي السُحْنَات الشُّقْرِ. حدث ذلك قبل أنْ يسيطر المتشدِّدون على الشارع بعدها بعدَّة أشهر.

إنَّه شيء يُقارب الخيال. ولم أكن أتوقع أنْ أرى هؤلاء الشباب حليْقِي الوجوه ها هنا أبداً. كنت أحلُم كلَّ مساء، وبشكل لا إرادي، أنَّ حميد سيرسل بطلبي، وأنني سأشاهد هؤلاء الأغراب هناك، في مدنهم هم، وليس في مدينتي أنا.

ما الذي أفعله الآن، لقد تخطَّت الأحداث حدود توقُّعي، مضت العشر سنوات حقَّاً، ولم تمت بنِّيَّة، كما توقَّع حميد، ولم يُرسل لي حميد ذاته شيئاً، لا رسالة ولا نقوداً ولا ما يؤكد أنَّه باقٍ على وعده لي. وبقيت، مع ذلك، مصرَّاً بشكل طفوليٍّ أحمق، أنَّ كلَّ شيء سيمضي كما خُطِطَ له. فهذا الريس لن يسقطَ أبداً، وعليه ألَّا يسقط لكي تمضي خُطَّتي بشكل جيد. ستموت بنّيّة، وأبقى وحدي، وعندها سيُهاتفني حميد ليُخبرني أنَّ تذكرتي مع مبلغ مالي تنتظرني في أحد مكاتب السفريّات في حافظ القاضي. حينها ستكتمل حكايتي، بعد أنْ قطعت كلَّ شيء ورائي. بعد أنْ أنْهَيت بشكل حاسم كلَّ تفاصيل الحكاية، وقفلتُها بسفرة بريَّة طويلة نحو عَمَّان، ثمَّ بإقلاعةٍ على المدرج من مطار المَلِكَة عليا نحو فضاء أوروبيّ أو متوسطيّ.

كنت وأنا أعمل في قَلَمِ السَّرِيَّة على الآلة الكاتبة، في خدمة الاحتياط العسكري الثانية، أطبع في أوقات الظهيرة، حيث ينام الجنود كلُّهم، وأفْشَلُ في الاسترخاء، رسائل متخيَّلة من حميد، وأتوقَّع أنَّه سيُرسلها في يوم ما، لكي يطمئن على صحَّة بنِّيَّة، ولكي يعرف أخباري. أكتب الرسائل التي لم تصلني منه يوماً. وأقول مع نفسي، رغم كلِّ شيء، أنَّ الخُطَّة لا تسير حسب التفاصيل المتوقَّعة، ولكنَّها سائرةٌ بقوَّة نحو النتيجة المرجوَّة. فبنِّيَّة مصابة بداء السكري، وتعاني من أمراض صغيرة شتى، وقد جرى الأمرُ

بطريقة مشابهة مع يارالله أثناء الثمانينيّات. كان ينتظر أنْ تنتهي الحرب، ولا أعرف ما الذي يُخطط له مع نهاية الحرب، ولماذا بالتحديد يرغب بنهاية الحرب، هل من أجل الآخرين، أم من أجل حميد، الذي كان يَخْدِم في وحدة عسكريّة مقاتلة. لأنّي لم ألمس أيَّ حرص لديه على روح ابنه الكبير، وفي اليوم الذي أعْلَنَ فيه المذيع العراقي في التلفزيون الحكومي عن نهاية الحرب، كان يارلله قد دخل قبلها بيومين في غيبوبة دائمة. مات يارالله بعدها باسبوع ولم يُخبرنا بتصوِّره عن العالم بعد نهاية الحرب.

الأمر سيحدث مع بُنَّيَّة بالطريقة نفسها بالتأكيد، هكذا كنت أقول مع نفسي، ومضت التسعينيّات ولم تمت بنيَّة. كنت أخاف أنْ تموت في البداية، لأنَّ هناك من يحدِّثُني بأنَّ لِيَ يداً في أيِّ موت سيأتي الى بنِّيَّة، ما دمت أتمنَّى ذلك. ولكنِّي تجاهلت هذه النداءات الداخليّة بعد مدَّة، مع وطأة التسعينيّات القاسية، وعذابي المتصل بالتنقل بين عمل وآخر، أعمل على الآلة الكاتبة في مكاتب قرب المحاكم ودوائر التجنيد، أو في مطابع شارع الرشيد، أو في المكاتب الأهلية. وأقاوم بشدَّة تلك الأمنيات السوداء بأنْ تنتهي حياتي فجأةً أو تنتهي حياة بنَّيَّة، أو يحدث شيءٌ خارقٌ للعادة يحرِّك المياه الساكنة لعراق التسعينيّات بعاصفة هوجاء.

كنت أستعيد كمن يحرِّك شريطاً سينمائياً متآكلاً، التفاصيل نفسها، والكلام نفسه، ذلك الذي دار بيني وحميد. أستعيد حكاياته، وأقلِّب مرَّة بعد مرَّة كلَّ شيء في هذا الوعاء الكبير الذي أسمِّيه حياتي، لأنِّي كنت أُمَرِنُ نفسي، كما كنت أفترض، على القطع النهائي مع هذه الحياة. قضيت التسعينيّات كلَّها وأنا أُمرنُ نفسي على الهجْرَة المؤبَّدة. اختزلت حياتي ببضع محطَّات وكبستها

مع بعضها، ووضعتها في حقيبة، خططت أنْ أتركها في بيتنا المتهالِك لتأكلها الجرذان والأرضة بعد رحيلي.

لكنَّ حميد لم يتصل، ولم تمت بنِّيَّة، والريس غادر كرسيه أخيراً، وجاء هؤلاء الأغراب بمدرعاتهم وأسلحتهم، وتغيَّر كلّ شيء مئة وثمانين درجة. وها هي الأشهر تمضي لأكتشف أنَّني دخلت من جديد في الدوَّامة نفسها، أسئلة شخصيّة لا إجابة عنها، ومفردات في خُطَّة قديمة، لم تعد تملك القيمة نفسها.

هل مات حميد؟ إنَّه جندي قديم، والجندي يلاحقه موت خاص أينما حَلَّ، سيموت كما الجنود ولكنْ في مكان آخر. وما الذي سأفعله الآن بحياة بنِّيَّة أو موتها، ما الذي أفعله بحياتي الآن، وأنا أرى التسعينيَّات تستمرُّ بخرابها ولكنْ بإيقاع جديد؟

أنام وأحلُم بأنَّ الموت الجديد سيحصد روحي بصورة لا مثيل لسخفها وعبثها. ويتداعى في رأسي كلُّ الموت الذي اختزنته ذاكرتي. ثمَّ ينبثق حميد بقوَّة داخل أحلامي، وأرى الدماء تتدفَّق في اتفاقنا السابق. فما عليَّ سوى الاستمرار في الانتظار. أنْ تموت بنِّيَّة مثلاً، أو أنْ يظهر حميد بملابسه الأوروبية أمام الباب فجأةً، في إجازة استثنائيّة من الحياة، حاملاً نبأ التغيير الذي تأخَّر طويلاً. ذلك الذي لم ينتظره أحدٌ سواي.

أحلم، ثمَّ أغرق في هذياناتي، وأنا أقف في مفترق طرق جديد، تتساوى الخيارات عنده بصورة يصعب احتمالها.

* * *

كنت قد خرجت مع جاسم أبو المصاييد الى راغبة خاتون. شاهدته في باب المعظم بعد انتهاء عملي في مكتب الاستنساخ

والقرطاسيّة. كان يضحك في وجهي من بعيد، حتى قبل أنْ يصل إليَّ، وأخبرني بسرعة بالمهمَّة التي يريد القيام بها اليوم. لقد اختفت صناديق الفلين المثلَّجة، تلك التي انتشرت بعد أشهر من سقوط النظام في الكراجات والأسواق، والتي كان يبيع فيها الشباب بشكلٍ علنيٍّ غير مسبوق أنواع المشروبات الكحوليَّة. اختفت بعد انتشار المتشدِّدين في الشوارع، وقيامهم بقتل بعض الباعة العَلَنِيين. اختفت أيضاً الأقراص الصُّلْبَة لأفلام البورنو التي كانت تباع بشكلٍ علنيٍّ أيضاً، حتى أنَّ بعض المقاهي في شارع السعدون كانت تعرضها للزبائن أثناء النهار، من دون خشية من أحد مقابل ثمن مضاعَف للشاي الذي يشربونه داخل المقهى.

كان جاسم مُدْمِنَاً على شرب الكحول، لذا لم يكن يفهم كيف يمضي اليوم من دون ضمانات مؤكدة لمشروب بجواره. ولم يكن يتوقَّع أبداً أنَّ الخَيارات المتاحة لديه ستغدو أصعب بكثير مع تتابع الأيام. جذبني من يدي وكأنَّه يخشى فِرَاري، وقادني الى جسر المُشَاة في الباب المعظم، عبرنا من تحته، في الوقت الذي كان فيه السابلة يغذُّون السير نحو الكراج، فلا أحد يضمن طبيعة المفاجآت التي يحملها الليل، مع غياب الثِّقَة بين الناس أنفسهم.

كنت في موقع أفضل من جاسم أبو المصاييد، كنت أستطيع مراقبة ما يجري حولي، لكنَّ جاسم بدا غائباً، ومشغول الذهن بالاحتمالات السَّيِّئَة أنْ يكون محل المشروبات الكحوليّة الذي يقصده مُغْلَقَاً أو مُفَجَّراً.

لم أعرف أين يقع هذا المحل بالضبط، لكنَّ جاسم توقَّف فجأةً، وانحرف بي وهو يثرثر نحو محل تغطَّت واجهته الزجاجيّة بصناديق المشروبات الغازيّة، كنوع من التمويه لهوية المحل

الأصليَّة. العديد من هذه المحال داخل بغداد فُجِّرَتْ بقنابل يدوية خلال الأشهر الماضية، الأمر الذي دفع بالآخرين الى إغلاق محالهم، والهرب من العاصمة، أو العمل بطريقة سريّة ومعقَّدة.

أخذ جاسم مشروبه ودعاني بمرح لشراء شيء على حسابه، فتذكَّرت حميد، والليالي التي كان يدخل فيها الى البيت مُتَعْتَعاً بِسُكْرٍ ثقيل، قبل أنْ يَلْتَحِقَ صباحاً بوحدته العسكريّة البعيدة. كان شخصٌ ما في داخلي يؤكد لي أنَّني أستطيع الاقتراب من حميد لو فعلت ما كان يفعله. أخذت زجاجة مُفَلْطَحَة لمشروب غامض عديم اللون، ودسستُها بسرعة في جيب سترتي الداخلي. ثمَّ خرجنا أنا وجاسم الى الهواء البارد لبدايات الليل.

* * *

شربت، من دون علم بنُيَّة طبعاً، وداهمني ثقل شديد في الرأس. أزلت بكارة المحظور، بعد أنْ غدا محظوراً الآن. وقلت إنَّ لكلٍّ شيء معنى. لن يزيد هذا المشروب في هذياناتي الليليّة أو ينقص. كنت كعضوٍ في طائفة سريَّة، استدعي ذلك المجهول الذي يحرِّك الأشياء بجبروت لا رادَّ له. أستدعي حميد لأفهم منه معنى غيابه الداكن، هذا الذي لم تخترقه أيَّة ومضات لتفسير أو جواب مَهْمَا كان صغيراً. شربت، وسكرت، ونمت، كمن ينزلق بين حدود هذه المفردات الثلاث من دون إرادة واعية. نمت وحلمت هذه الليلة بحميد مرَّة أخرى، ولكن بوضوح أشدّ.

كان حميد أمام قناني البيرة الثمان، وكنت مثل صديق قديم، أتَّكِئُ على حافة الطاولة الدائريّة المغطَّاة بقماشة حمراء مربّعَة، تجثُمُ في وسطها منفضة خزفيّة كبيرة احتشدت في قعرها أعقاب

سجائر مختلفة. كنت أنظر اليه وأستطيع سماع صوته بوضوح، رغم صخب هذه الحانة. لم أعرف بالضبط هل كان ينظر الى وجهي أثناء كلامه المتثاقِل أم الى المطرب المصري الذي يغنِّي أغانيَ شعبيَّة شائعة على المنصَّة خلفي، على مبْعَدَة عشر طاولات تقريباً.

كان يخاطبني بـ(عبود). ولم أعترض على ذلك، لأنَّ للسكران حقَّاً في حالة مماثلة، بانْ ينادي الآخرين بما يشاء.

أعرف أنَّ الكثير من الاعتقالات كانت تجري في الثمانينيّات بعد سُكْرٍ ثقيل كهذا، حيث يخرج الجنود المجازون بكامل أناقتهم من بارات شارع السعدون وشارع أبي نواس، ويبدؤون من دون مقدِّمات بشتم الريس ومجموعة غامضة من الأسماء، تعود لضباط قُسَاة، هناك، في الوحدات العسكريّة البعيدة.

لكنِّي أعرف بأنَّ هذا الأمر لن يحدث مع حميد الآن، لأنِّي سأستيقظ على أيَّة حال، فيفلت أخي الكبير من أيَّة مفاجآت غير متوقَّعة.

كان يمضغ حَبَّات الفستق بهدوء، ويقول لي رافعاً كأسه: عبود.. مو هيج.. مزَّة.. إكل مزَّة.

منتقداً على ما يبدو محاولتي الخرقاء لاكتشاف المشروب الغامض. يسكب لي في كأس طويل. يسكب بهدوء، ثمَّ يرفع القنينة ما أنْ تبدأ الرغوة البيضاء بالتصاعد الى حافَّة الكأس. فأعجب لانتباهه. أرتشف وأفقد الصّلة مع ثرثرة حميد بسبب تصاعد حُمَّى المطرب مع فرقته.

كان المشروب لذيذاً وطيباً مثل ماء اللبلبي. ولم أخبر حميد بهذا التشبيه الذي قفز الى ذهني، لأنَّه سيسْخَر منِّي بالطبع. وبدأت

آكل من المزَّة المنوَّعة أمامي، مثلما طلب منِّي، ثمَّ ارْتَشِفُ من الكأس الطويل، ولكنَّ رشفاتي لا تبدو شيئاً أمام الكميَّات التي شربها حميد. ورغم انخفاض جفنيه ولمعان شفتيه باللعاب، ظلَّ منتبهاً لوجودي. مَدَّ يده لي بعُلْبَة الفستق وقال: إكل عبود. . هذا فستق إيراني، دير بالك تآكل لبلبي ويه المشروب. . أنعل أبو اللبلبي.

ثم بدأ يضحك من دون صوت وهو يغمض عينيه، وضرب بكفِّه على المنضدة قائلاً، كأنَّه فوجئ بكلامه: فستق إيراني!

حين خرجنا من الحانة، كنت أحاول بلا وعي منِّي دفع حميد للسير أسرع، لكنَّه تضايق من ذلك ثمَّ توقف قائلاً بجفاف: إلى أين؟

وقبل أنْ أتكلَّم بشيء أشار بيده بطريقة مسرحيّة الى جهتين ثمَّ شرح: أنا سأذهب الى هناك ـ وأشار الى ملهى الزيزفون ـ وأنت الى هناك ـ مشيراً الى الأضواء المتلامعة لشارع السعدون.

كنت أعرف بأنَّني أحلُم، لذا لم أحاول منعه، وهو يبتعد باتّجاه الواجهة المضاءة بالألوان المتحرِّكة للملهى. ولم يبخل عليَّ بالتفاتة أخيرة قائلاً بصوت متماوج: أنا سأبقى هنا عبود. . سأبقى الى الأبد، وأنت. . إذهب واصْحُ لتذهب الى عملك السخيف.

* * *

صحوت. كانت الشوارع موحِشَة، وكأنَّ الجميع قد اتَّفق على تخفيف حركة السابلة هذا اليوم، فَغَطَّ ثلاثة أرباع المدينة في نوم عميق. أخذت لفَّة طويلة من أسفل الخط السريع. مررت بالمكتبة المركزيّة التي بدت أبوابها مخلَّعة، وركام من الأحجار والنفايات

تغطي مداخلها. ثمَّ انحرفت باتّجاه جامعة بغداد. هناك، مرَّ رتل من العجلات الأميركيّة المصفَّحة، وبدأت الأرض ترتجُّ باهتزازات مخدِّرة. حاولت الاستمرار بإيقاع سيري، كنوع من التجاهُل، فهي سيارات غريبة ليس إلّا، لكنِّي وجدت خطواتي تتباطأ ثمَّ تسمَّرت بوقفة جليديّة مع اقتراب هذه العجلات الكبيرة. ولم يكن بيني وبينها، على الضفَّة الثانية من الشارع، سوى رجل عجوز، لم يبدُ أنَّ صوتها المحتدِم قد أيقظه في وقت مناسب. رفع رأسه فجأةً، فشاهد هذه العجلات الصفراء الترابيّة تكاد تمرُّ بجواره. أنا أفهم الخاطر الذي هجم على رأسه في تلك اللحظة. لم يكن مستعداً لردَّة فعل أخرى. رفع يديه الى الأعلى بشكل مستقيم يوحي بحيويّة زائفة، وظلَّت عصاه، التي كان يتوكأُ عليها قبل بُرْهَة، معلَّقة في الهواء. ولم يبدُ أنَّ الجندي الزنجي الذي يتربَّع على الكتلة الحديديّة المرتجَّة للعربة قد فهم حالة العجوز، فرفع يده بتحيةٍ آليَّة، وكأنَّه مرَّ من أمام ضابط كبير يكرهه. ظلَّ العجوز يلوِّحُ بيديه بطريقة خرقاء، رغم ابتعاد الرتل المرْعِد. لم تكن تلويحته ذات معنى واضح. ولكنِّي فهمت أنَّه في أعماقه التي لا يفهمها كَمَنَتْ حاجة قويّة جسَّدتها التلويحة لمسح هذا المشهد المفاجئ من الشارع، ومن ذاكرته أيضاً.

* * *

قال لي صاحب مكتب الطباعة والاستنساخ الذي أعمل فيه، وهو يرمي بين يدي كتاباً مسْتَنْسَخاً ومُخَلَّعَاً أنَّ لديَّ عملاً لهذا اليوم، وربَّما للأيام والأسابيع المقبلة.

كان نسخة باهتة وغير نظيفة من كتاب يتحدَّث عن جرائم

النظام الديكتاتوري البائد. وعملي ببساطة هو إعادة تنضيده وترتيبه على شكل كتاب، ثمَّ سحبه، لتبدأ مهمَّة صاحب المكتب بنسخه لعشرات المرَّات، وتقطيعه وكبسه وتغليفه بغلاف ملوَّن، فمثل هذه الكتب تلقى رواجاً ساحقاً هذه الأيام، ومن الغباء انتظار رسالة ماجستير أو دكتوراه قد تأتي ولا تأتي.

لم أتساءل كثيراً حول قانونيّة عملنا هذا، فأنا أعرف أنَّنا نعيش زمن الاعتداء على الخوف. وحين شرعت بالتنضيد أحسست بأنِّي أدخل في خوفٍ جديد. كانت الحوادث المرويّة تضع قفلاً كبيراً في باب الرجعة، وهذا ما يُشعرني بالضيق. رغم ذلك لم يتشتّت انتباهي، وبقيت أرصف الكلمات على الشاشة بثبات، استمرَّ ذلك طوال النهار حتى نبَّهني صاحب المكتب أنَّ موعد المغادرة قد أزِفَ.

طويت الكتاب المخلَّع بيدي، وأخذت سترتي من ظهر الكرسي، وأقفلنا المحل سويَّةً. كانت آثار الشمس قد اختفت من أعلى البنايات، وبدأ شحوب المساء يقترب، ووجدت نفسي أرافق صاحب المكتب الى مدخل شارع الكفاح بخطوات متمهِّلة، ومن دون اكتراث واضح لأحاديثه المعْتَادة. وقفنا أسفل عمارة ذات واجهة قذرة، ودعاني صاحب المكتب للصعود الى شُقَّته الصغيرة، لكنِّي اعتذرت، وعدت أدراجي، أحصي محال الموسيقى الشعبيّة على جانبي الشارع الضيق، بدت شبه مهجورة، والأبواق النحاسيّة المتخسِّفة والطبول البيضاء المعلَّقة على واجهاتها هامدةً ومغدوراً بها. في سوق الخضار العشوائي قرب گراج الباب المعظَّم كانت الأزبال في كلِّ مكان، وعليك أنْ تدوس عليها أحياناً، إنْ أردت أخذ طرق مختصرة باتّجاه الگراج. تصاعدت إطلاقات رصاص من

عمق الگراج فجأةً، ثمَّ ظهرت سيارتان للشرطة، وقفتا عند مدخل الگراج. الأمر يتعلَّق ثانيةً ببعض اللصوص الذين يسلِبُون الركاب وأصحاب السيارات في هذا الوقت.

توقفت. ثمَّ التفتُّ الى المدخل البعيد لشارع الكفاح الذي تركته خلفي. كان المكان موحشاً، إلَّا من بعض السابلة المتفرِّقين، الذين يمرقون بسير مسْرِعٍ من هنا أو هناك. طويت الكتاب المخلَّع في يدي وعيناي تراقبان الحركة المتوترة في مدخل الگراج. أشخاص يركضون ثمَّ ضُرِبَتْ باتّجاههم صَلْيَة حادَّة من بندقية مجهولة. استدرت وغذذت من خطواتي فوق أوراق خسٍّ ذابلة وأكداس من علب الببسي وأغلفة الحلويات. لم أفكِّر باللحظة المقبلة، كنت أسير فقط داخل لحظتي هذه التي تتسع مع كلِّ خطوة.

* * *

لم أنتبه لأصابعي، وهي تغير في بعض التواريخ، أو تحذف بعض الأسماء في الكتاب الذي أنضِّده. كنت أراقبها، هذه الأصابع، وكأنِّي أرى القوَّة تتراقص أمامي. الخوف يَتَهَدَّمُ. لم يكن صاحب المكتب معنيَّاً كثيراً بالتدقيق في النسخة التي أخرجتها له. وظلَّت غصَّة غريبة تتحرَّك في بلعومي صعوداً وهبوطاً، وأنا أرى كيف سيعمد صاحب المكتب نهار الغد الى نسخ هذا الكتاب المزيف لمرَّات عديدة.

من المؤكد أن مَلَلِيَ الشديد سيتسبَّب في طردي، وسيلاحظ صاحب المكتب الجريمة التي ارتكبتها بحق التاريخ، فيصاب بالدوار حينها، ويطالبني بهدوء أنْ أعوضه عن الخسائر التي

تكبدها، ثمَّ يطلب منِّي أنْ أخرج من الباب بهدوء أيضاً. هذه شجاعة نصف المخْمُور إذن.

* * *

أنا عبود أبو الخصاوي السود، كما رغب حميد بمناداتي تلك الليلة داخل حلم نديم. أنا القناع الرابض تحت يده، والذي يغلِّف به وجوه من ينادمونه، وبالذات بعد الزجاجة الثامنة من (فريدة) أو (شهرزاد). وبسبب ذلك أنا وحدي من يؤرشف سهراته السباعيّة، خارج مدار بسطاله النائم في البيت. أنا الشاهد على ثرثراته الطويلة، وليس أيّاً من رفقاء جلساته الذين يشطبهم فجأةً حين يضع على وجوههم قناع عبود. وأنا في النهاية لست واحداً منهم، هؤلاء الرفاق والندماء، لأنَّهم سرعان ما يتلاشون، وتنطفئ جذوتهم، أو يموتون ببساطة، هناك، أو هنا.

لكنَّ القناع لا يموت. ربَّما يتكلَّم أحياناً، مثلما أفعل الآن، على لسان نديم، الذي لن يكون أفضل من غيره في كلِّ الأحوال، فيحترق ويهوي أمام خلود القناع وبقائه.

أنا أعرف مثلاً، أفضل من أولئك الذين غطَّيت وجوههم تباعاً ولمرَّات لا تحصى، لماذا يلحُّ حميد على التقسيمات الثلاثيّة. الأمر لا يتعلَّق بي وبه وبالمطربة اليونانية على المنصَّة المضاءة في صدر الملهى. ولا بالبيرة والمزَّة والسيجارة. إنَّه شيء أكثر غموضاً، لم تتلقَّفوه أيها الندماء المتابعون حول هذه المائدة.

ورغم أنَّ ثلاثة أشياء كبيرة قد حدثت في هذا الشهر من العام ١٩٨٢، إلَّا أنَّ حميد تجاهلها. الريس زار مدينتنا وأسماها باسمه، وغزت إسرائيل جنوب لبنان في عملية (السلام من أجل

الجليل)، ثمَّ أقدمت إيران على أوسع عملية عسكريّة لها تحت اسم (بيت المقدس) استعادت بموجبها الشوش وديزفول وخرمشهر، وشارفت على انتزاع خوزستان كلِّها من أيدينا.

في الحقيقة كلُّ هذه الحوادث تتعلَّق بالـ(هناك) بالنسبة لحميد، وجلستنا الداخلة في عود أبديٍّ لا ينتهي تتعلَّق بالـ(هنا)، لكنَّه يريد بشكل غامض أنْ يكون في الـ(هنانك)!

أنتم لم تفهموا بالطبع مقصده، رغم إدمانكم الجلوس معه على مائدة واحدة خلال سهراته السباعية، ولكنِّي أنا، القناع الوفيُّ، الرابض تحت يده دائماً، والذي انتمي للـ(هنانك) أعرف هذه الـ(هنانك) جيداً.

كنت واحداً من الـ٦٠ ألف قتيل الذين سقطوا في المعارك الضارية التي انتهت بخروجنا من المُحَمَّرَة. أنا واحد من هؤلاء النَّكِرات الـ٦٠ ألفاً الذين دخلوا التاريخ ذائبين في رقم موحَّد. إنَّهم الـ٦٠ ألف قتيل الذين خسرهم الجيش العراقي للاحتفاظ اليائس بالمحمَّرَة.. لا أكثر.

أنا، معهم، مثل أيِّ ٦٠ ألف قتيل سقطوا في أماكن وأزمان أخرى على خريطة بلادنا التي تشبه قفازاً صوفياً مقلوباً. قفاز يتضرج بالدماء الصيفيّة والشتويّة دائماً، ولا يعرف أحد اليد التي فيه.

أنا مجرد شخص من أهالي المعقل بالبصرة. ربَّما كنت أقيم في قلعة صالح، أو في المحموديّة. بالإمكان افتراض أنِّي رجل من بعقوبة، من أطرافها، من المقداديّة أو دلِّي عباس، أنا مواطن شروگي من مدينة الثورة ببغداد، أو أنا عامل ينقل الفوسفات في صحراء عكاشات. لا أحد يملك الآن أيَّة وثيقة عن هويتي، لأنِّي

من أولئك الـ٦٠ ألفاً الذين دخلوا التاريخ بهذه الصّفة.

ولكنّي أخذت، وبالمصادفة، مساراً جديداً مع حميد. تعفّنت جثّتي وانتفخت وأكلتها أسماك هور الحويزة، أو دفنتها الجرافات العسكريّة الايرانية في الاراضي الجرداء أمام مدينة گيلان غرب، استعداداً لشوط آخر من المعارك.

سيغدو مصيراً فُكَاهياً أنْ تأكلني أسماك الحويزة، التي تأكلها، في ما بعد، القذائف والهاونات بأصواتها الحادَّة، التي تفجّر أكياسها الهوائية، فتطفو، هذه الأسماك، مُرْتَجَّةً ومُتَمَايِلَةً بصمت ما بين حركة الطرَّادات العسكرية الهوجاء على مياه الهور. وكأنّي قتلت مرَّتين، مع موت الأسماك التي حوَّلت بحكمتها عبثية موتي الى شيء مفيد للطبيعة.

في الحقيقة، كنت أعمل في شارع أبي نؤاس قبل أنْ تُستدْعى مواليدي للخدمة العسكرية. كنت وحدي ـ هكذا فكرت ـ من يعرف عدد الراقصات في ملاهي وكازينوهات هذا الشارع. أعرف أسماءهن وأصولهن القومية، رغم أنّي لا أدمن الدخول الى هذه الأماكن، فعملي لا يتيح لي هذه الحرية المُتْرَفَة. كنت أقف على شوَّايات السمك المسقُوف في مطعم (البلاد) المطلّ على نهر دجلة. أتخيَّر الأسماك اللابطة في حوض السيراميك حسب رغبة الزبون، وأعالج السمكة المختارة بحرفية عالية، بالأحرى بمتعة عالية. أشقُّ بطنها بسكِّيني المعقوفة، أنظفها، وأطّبر رأسها بفأسي الصغيرة، فتنفتح على مصراعيها مثل دفتر سريٍّ. أنشره، هذا الدفتر السمكي على الشوَّاية، المفتوحة هي الأخرى مثل دفتر، ثمَّ أغلق دفَّتي الشوَّاية على السمكة المصلوبة، وأحشرها أمام الجمر المتراقص.

هذه إذنْ حكايتي الفُكاهية، قبل أن يغزوَ المصريون أماكن عملنا. فلأقُلْ أنَّهم ملؤوا الفراغ الذي تركناه. فهم أيضاً يملكون حكايتهم، وما وقوف فتحي المصري على شوَّايتي الخاصة أثناء الحرب إلَّا فقرة في حكايته وحكاية (المصريين)، هذا الاسم الذي يشبه بدلالته الغامضة دلالة الـ٦٠ ألف قتيل.

﴿من الأسماك والى الأسماك نعود﴾ هكذا يقول الكتاب المقدَّس لطائفتي، طائفة الـ٦٠ ألفاً، الذين امتزج عدمهم وغيابهم غير المقدور عليه بدوافع التاريخ القوية والفطرية للتغييب.

ولكنِّي أخذت، وبالمصادفة، مساراً جديداً مع حميد. لقد غدوت فجأةً، وفي لحظات انحلالي وتحوّلي الى مادة أولية للطبيعة، كتلة مضيئة، قنبرة تنوير صغيرة انفلقت في السماء المعتمة لحميد.

بإمكاني أنْ أنسى قليلاً حكاية الأسماك، لأنِّي غير قادر على رواية حكايتين بلسان واحد. وتبقى عيني، رغم ذلك، على أبواب الملاهي المجلَّلة بالنشرات الضوئية الملوَّنة حتى انبلاج الفجر، هناك على الجانب الآخر من الشارع، بعد أنْ ينام، حتى السمك في حوضي الخزفي، ويستلقي بثقلٍ وعتهٍ، حتى النهر، على الضفَّة الرخوة، المليئة بالاعشاب الداكنة، والتي ترتجف كلَّ حين من ثرثرة مفاجئة لنائم امام النهر.

لقد امتلكت حياة أخرى، أنستني سجن الـ٦٠ ألفاً، ومعتقداتهم الخاطئة بشأن الموت والحياة. عدت بمصادفة فكاهية الى شارع أبي نؤاس ثانيةً، وأنا مجرد صورة مؤسية ذات حوافٍ حادَّة في ذهن جندي مُجَاز، يرغب بدفن الأيام السبعة لإجازته تحت سطح الخمرة.

أقفز، مثل مُجازٍ أيضاً، من رأس حميد، بعد بضعة كؤوس حادَّةٍ وعاريةٍ من دون مزَّة أو ندماء، وأقضي الليل كلَّه منصتاً لاعترافاته. آخذ الشكل الكامل للانصات، واغدو السوليفان، الذي ليس غيره، الملائم للفِّ هذه الاعترافات وتغليفها، قبل رميها الى النهر مثل نفاية مع اقتراب الفجر والعودة للبيت.

هناك ٦٠ ألف حكاية إلّا حكاية، تملك قيمة حكايتي نفسها، ومن الغباء أنْ يصدق أحد ما أنَّني أروي حكاية بعينها حين أروي، فأنا لسان هذه الحكايات جميعاً، وهذا وضع مؤلم للسانٍ غير قادر على رواية حكايتين بوقت واحد.

حميد نفسه غير قادر على تذكُّر حكايتي، فالحكايات تُنسي بعضها بعضاً، ولست في النهاية سوى كتلة ضوء انفلقت، وظلَّت عالقة بتوهج أبدي، يغطيها النهار ويكسف بريقها، ويرفع الليل بعتمته الغطاء عنها، بعد بضعة كؤوس حادَّة وعارية من دون مزة أو ندماء، على مائدة حميد.

لقد رحلت عن هذه الحياة بعد أن تلوَّثت يداي بدماء الايرانيين. كنت أعطي تربيعات الأهداف لبطرية المدفعية، وكانت تلكُ أثناء الليل كلَّ شيء يتواجد على مساحة قوس يقدر بثلاثة كيلومترات. آلاف القذائف المدفعية رحلت الى الـ(هناك) بتوجيه منِّي، ورغم أنِّي لا أعرف بدقَّة مصير هذه القذائف لكنِّي أعرف العمل الذي تصنعه، بالاستناد الى الصورة المرآوية لهذه المعارك. فما نفعله (هنا) يفعله الايرانيون (هناك)، وكأنَّنا نتصارع، من دون أنْ ندري، مع صورتنا المعْكُوسة في مرآة الرعب والسخرية.

لقد امتلكنا تباعاً، وعلى مدى عامين وخمسة أشهر، هذه

الربايا والوهاد والمساحات الجرداء التي لم نترك العشب المجاني ينمو فيها براحة. استولينا عليها بالتعاقب، نحن والايرانيون، وعيوننا جميعاً، نحن الفرسان الداخلون في المرآة، ترنو الى المخرج السماوي لهذه الدراما، علَّه يفكِّر بوضع نهاية مناسبة.

ومثلما صنعت قذائفي المرسلة برتابة من (هنا) تصنع القذائف المرسلة من (هناك)، تماماً مثل لعبة باسكتبول جنونية. تعود القذيفة التي أرسلها في أول الليل من المرآة فجأةً، فتقتل ستة جنود في قلم الإعاشة، تقتل «السيّد» بقرآنه وسبحته وبياض وجهه الشاب، حين يتّجه، وقت راحته، الى مرحاضنا المصنوع من الجينكو وأكياس الرمل. تقتل عبد الملك الذي ينوي الزواج من ابنة خاله التي تدرس في جامعة الموصل، كما أخبرني قبل ليلتين. تقتل كلاباً سائبة لا يعرف أحد متى تظهر ومتى تختفي في هذه البرية الجرداء.

آه.. إنَّها تقتلني أيضاً، تضرب العمق البعيد للسماء الإسفنجية وتعود بارتداد نابض إليَّ، أنا الذي منحتها رومانسية الانفلات الحرّ من كدس القذائف الرتيب والبارد في صناديق المشاجب، تسقط على مبعدة ومن دون توقُّع مناسب، وقبل أنْ أفكِّر بوضوح في معنى الشظية التي تقتل من فورها. سقط رأسي المذبوح جيداً في حضن حميد، فنسيَ الى الأبد سيجارة الروثمن التي كانت بين أصابعه.

سيغدو هذا الرأس واحداً من رؤوس الحكايات الشعبية، التي تفضح أسماء قاتليها، أو واحداً من الرؤوس المعلَّقة على رماح السبي الأمويّ الى الشام، حين تلهج، في الأوقات المناسبة، بالكلام السماوي الذي ينذر بسوء العاقبة. ولكنْ أيَّ شيء من هذا

لم يحصل. من يكترث، وهو يقبض على ذاته الكارهة للموت، للرؤوس المتدحرجة على طريق فرّاره المرتبك.

أنا الوحيد الذي كنت أفكّر في تلك اللحظة بأنَّ النهاية قد حلَّت ولا شيء يؤجلها. كنت أفكّر، أو كنت مُفكراً من خلاله بالنهاية الحاسمة، لأنّي كنت في النهاية وكانتني. وكم يبدو ذلك خانقاً وخالياً من الشعرية.

لهذا السبب أنتم تعرفون الآن لماذا أفضل الموت السمكي، إنْ لم يكن من الموت بدٌّ، على أيِّ موت أجرد أغبر عارٍ يحتفل به الذباب والدود والتراب ورماد المعارك. أفضل ذلك السقوط بالرصاص المفاجئ المنبثق من غابات القصب باتّجاهنا، ونحن نغذو بطرّادتنا الهادرة بين الطرق الهورية ومتاهاتها القصبية، مطمئنين لدليلٍ عارفٍ بهذه الدروب. زَخَّةُ رصاص في ليلة سوداء تمزق أوراق البردي ولا تصيبنا، فتمنحنا تحفّزاً مبكراً للمواجهة. اطفأنا محرّك الطرَّادة ودخلنا في انصاتٍ وجلٍ لأيّة نأمة، ولم نعرف أنَّ جداراً من القصب اللين، لا غير، كان يفصلنا عن طرَّادة مشابهة بجنود مشابهين، متحفّزين وجلين، ينصتون بعمقٍ لنا، لصورتهم المعكوسة في مرآة الرعب.

لا أحد يعرف بدقّة عدد الذين قتلوا في تلك الليلة الصيفية الفاترة، وهل سقط الجندي مع صورته المعكوسة في المرآة مثلاً بتناظرٍ سحريٍّ عجيب، أم أنَّ الأمر جرى باعتباطية معهودة؟ ولكنْ ماهو مهم بالنسبة لي أنّني لم أذهب بالطرَّادة العسكرية أبعد من ذلك، وحميد يعرف هذه الحقيقة، لم أتقدم أو أرجع، لم أكن معهم، هؤلاء الذين كتب لهم أنْ ينجوا في تلك الليلة. تعلّقت يدي بذاكرة حميد، كنوعٍ من طلب النجدة، خدشت بأظافري

القذرة المليئة بالطين والأملاح جدار ذاكرته الطري، ونجحت بترك نُدْبَة غائرة تصعب معالجتها، ثمَّ غطست في الماء الفاتر غطستي الأخيرة.

سيصيح باعة السمك منتشين جذلين في أسواق البصرة والناصرية وبغداد (سمك بلحم ايراني يا ولد)، وهم يعرفون متواطئين، أنَّ اللحوم تتشابه في بطون هذه الأسماك ما بين ايراني وعراقي وهندي وباكستاني، حين تجلب من أهوار الموت الى موائد البيوت.

أنا الآن لست ذلك الذي غطس في ليل الهور المأساويّ، أنا شخص أو شيء جديد، حافظت على بقائي من خلال الذاكرة الليليَّة لموائد حميد السباعية في أبي نؤاس وشارع السعدون، ثمَّ تقدَّمت خطوة أكبر، بتحوّل جديد، مثل بيدقٍ شطرنجيّ، الى رأس نديم، لذا أملك الآن حق السخرية من مصيري، بعد انفصالي عن جدِّيته البالغة، هذه الجدِّية الكامنة في انعدام الخيارات أمام خيارٍ وحيد، يأخذ الدلالة الشائعة والسوقية لمعنى النهاية.

أنا أتفهم تماماً تلك القضمة الصباحية من كفِّي اليمنى الطرية جداً بسبب الماء. كانت الأسماك تمرُّ من جواري بهدوء. ولا أعرف هل هي الأسماك نفسها تعاود الدوران حولي، أم أنَّه سيل متتابع من اسماك تتّجه الى مكان مجهول. لم اشعر بوخزة ما عند تلك القضمة الافتتاحية من يدي اليمنى التي انجزتها سمكة (بَزّ) كبيرة. لقد عرفت القضمة ولم اشعر بها، بتلك الطريقة غير الحسيَّة التي يعرفها الموتى فقط. دارت بهيكلها الانزلاقي اللدن حول جثَّتي الطافية، وعاودت قضم يدي اليمنى. يمكنني القول إنَّها عرت هذه اليد خلال ساعات الصباح الأولى من اللحم تماماً.

من المؤكد أنَّ هذه (البزيّة) السمينة والطويلة أفلتت من طبرات يدي اليمنى المدربة والماهرة على حافة حوضي السيراميكي الأبيض في مطعم (البلاد). ربَّما كانت في تلك الفترة مجرد (گطان) صغير في مياه دجلة، نجح في الفرار من شباك صيادي الكاظمية والاعظمية والشواكة، واستمرَّ في رحلته الصوفية وحيداً حتى وصل الى أهوار قتالنا العبثي، وهناك استطاع التحوّل بهدوء الى بزيّة كبيرة، مُضْمِراً في عقله الهيولاني الصغير ثأر السمك الكثير، ذلك المار من تحت يدي مشطور الرأس ومنظفاً ومسقوفاً أمام اللهب المتراقص، فداءً للأفواه الجائعة للجنود المجازين وعوائلهم في ليل أبي نؤاس.

ها هو، هذا البَزّي الصامت، ينجز ثأره، ويترك يدي الآثمة مجرد سلاميات عارية تتماوج على سطح الهور.

* * *

انسحبت غمامة عبود من رأسي وانتهى عملي لذلك اليوم. أقفلنا المحل، وبقيت واقفاً حتى ينهي صاحب المكتب حساباته مع نفسه، ويفكِّر بإعطائي أسبوعيتي الضئيلة. لم يكن مرتاحاً. أنا واثق أنَّ لديه مشاكل عائلية، مع زوجته ربَّما، وما شرود ذهنه المتواصل إلَّا انعكاس لذلك. وربَّما زاد منه تلك القنبلة الصغيرة التي قذفتها عليه صباح أمس. كانت استجابته مرتبكة، حين أخبرته بنيتي ترك العمل مع نهاية الأسبوع، تلجلج برجاء حارٍ أنْ أغيِّرَ من عزمي، وكأنِّي شريك له أعلنت فجأةً فضَّ شراكتنا. هناك عاطلون كثيرون يا صديقي، نصفهم يفضل العمل في هذا المكان الى الأبد، لذا لن أستطيع التعاطف مع حرصك على بقائي.

كنَّا قد انتهينا من حكاية الكتب المستنسخة بعد غزو دور النشر الإيرانيّة لمكتبات بغداد بنسخ فاخرة الطباعة ورخيصة من الكتب الناريّة التي تشغل القُرَّاء هذه الأيّام. وبقيت أتكْتِك على الحاسوب رسالة ماجستير عسيرة، بهوامش احتلت أكثر من مساحة المتن، بسعيٍ من كاتبها لتأكيد ما هو مؤكد من أشياء تافهة، لن أصدق أنَّها تثير اهتمام أحد.

تركت نفسي تنقادُ مع خطوات صاحب المكتب، أجبرني على شرب كأسٍ من عصير البطيخ عند مدخل السوق العشوائي في الباب المعظَّم، ثمَّ سحبني بثرثرته عن وضع البلد والعالم والمشاكل التي لا حصر لها والتي أقسم الربُّ شخصيَّاً أنَّ حلَّها أمرٌ ميؤوسٌ منه. عبر بثرثرته الى شارع الكفاح، فوجدتني مشدوداً بخيط ثرثرته المملَّة، وأعبر معه الشارع المزدحم بالسيارات الخائفة والعائدة قبل مغيب الشمس.

كان يسأل ثمَّ يجيب عن أسئلته، تاركاً لي مهمَّة الإنصات الحيادي لما يقول، من دون أنْ تتكشف غيوم وجهه ويصفو الكَدَر في ملامحه الذي ابتدأ به مع صباح هذا اليوم.

وصلنا الى العمارة ذات الواجهة القذرة، وقبل أنْ أفكِّر بشيء وجدته يسحبني الى مدخل العمارة، برجاء أخويٍّ أنْ أصعد معه ليضيّفني في شقَّته البسيطة، ولو لمرَّة واحدة.

ـ على الأقل.. حتى تتذكَّرني.

قال ذلك مبتسماً وهو يتقدَّمني الى السلم المعتم. وتزاحمت عندي جملة من المشاعر المتضاربة وأنا أطالع شقَّة هذا الرجل. الوصف المختزل لها أنَّها كابيّة، وتفوح منها رائحة انعدام الشهْوَة

بالحياة. وقبل أنْ أسأله عن أفراد عائلته، أو حتى قبل أنْ أفكِّر بذلك، وجدته يوضح لي أنَّ زوجته وأطفاله سافروا الى أخوالهم في كركوك يوم أمس.

بدا أثاث هذه الشقة الصغيرة، فضلاً عن الصور المعلَّقة وقطع الزينة القليلة كأنَّها مجلوبة من النفايات، أو ـ في الأقل ـ وضعت ها هنا قبل قرن من الزمان. لم أفكِّر بشيءٍ محددٍ. كانت بقايا النهار تحتضر هناك خلف البنايات العالية، ورغبتي باختبار الحدود بالتسكُّع من دون هدف على حافة التهديد الجسدي الجادّ تتراجع الآن، ويحلُّ محلها الجبن الاجتماعي المعهود، لذلك كنت أفكِّر على مدار هذه الضيافة الميتة بقطعها في لحظة مناسبة، لضمان العودة الأمينة للبيت.

جلست على أريكة ذات حشْوَة مقعَّرة، لا تريح الجالس عليها. وتركني صاحب المكتب ليختفي في المطبخ ثمَّ يعود بعد لحظات. أعترف بأنَّه فاجأني. وضع قنينة جِنٍّ مملوءة للنصف مع كأسين على الطاولة الخشبيّة الواطئة، ثمَّ غاب ثانيةً وعاد بثلاث علب من بيرة هانيغين. وضع كلَّ هذه الأشياء صامتاً، من دون أنْ يستشيرني، وشعرت أنَّ حماسة نادرة قد دبَّت فيه. جلس ضاحكاً، وجسَّ نبضي بكلمات قليلة، فهم منها أنِّي لا أمانع بنوع ضيافته، غير أنِّي لم أتقرَّب من تلك الزجاجة الطويلة ذات المشروب عديم اللون والرائحة.

كنت وسيطاً لإقامة هذه الحفلة لا أكثر، هذا ما بدا لي، لم يكنْ مهتمَّاً كثيراً لما أفكِّر فيه، كان يتكفل وَحْدَه بمنح معنى ما لهذه الجلسة غير المميَّزة، ثمَّ يفرضه عليَّ بديكتاتوريّة بريئة.

أنهيت عُلْبَة البيرة الأولى، ثمَّ مدَّدت يدي لأسطوَ من دون

تحرَّج على العلبة الثانية. كان طعمها مثل ماء اللبلبي [أين سمعت هذا الوصف؟!]. وقبضت على نفسي في موقف غريب، فقد كنت مصرًّاً من دون إرادة واعية على إغلاق أذنيَّ من الداخل أمام الثرثرة اللجوجة والمتواصلة لصاحب المكتب، الذي كان يَكْرَع الكأس التي يعدُّها كاملةً، ويخلق في ذهني صورة لتناقض فاضح، ما بين يده المرتفعة بالمشروب الى فمه، وشكل وجهه ذي المسحة الإسلامويّة.

غزا رأسي ثقلٌ تدريجيٌّ، وانتبهت لثقل آخر طفيف غزا لسان صاحبي، فأصبحت كلماته لَزِجَة بعض الشيء، وشخصيّة، أدخلته في درب الاعتراف، الذي ينفتح دائماً مثل باب وحيد أمام سكّير غير ماهر.

ولكنْ، لماذا لا أقول إنَّ سلبيتي تلاشت من دون أنْ أدرك ذلك. لقد نسيت أشياءً كثيرة دخلت بها الى هذه الشقَّة، وبدأت أنصت، حدث ذلك حين قذف صاحب المكتب بواحد من اعترافاته، فكشف لي بأنَّه يسكن وَحْدَه في هذا المكان البائس، وأنَّه لا توجد زوجة ولا هم يحزنون، لا يوجد سوى هذا المكان، وهذه الأغراض التي جمعها بنفسه من سوق مريدي ومن البالات، على مدى السنوات الخمس الماضية.

قال ذلك وهو يحني رأسه الى الأسفل أكثر فأكثر وكأنَّه يُحَدِّث شخصاً في قعر بئر، شخصاً آخر، غيري، انْبَثَقَ في لحظة غير معلومة أمامه.

نسيت الوقت، وتخفف إحساسي بغرابة المكان الذي أجلس فيه، انتقلت بإرادتي الى ما يسمِّيه بول هافرتاز ستايتا (ميتافيزيقا الإرهاق والملل)، حيث لا سلطة هناك، في ذلك الموضع، لشيء

جوهري وأساسي يسند الحياة المألوفة. ولكنْ، من هو هذا البول هافرتاز ستايتا يا ترى؟!

سمعت صاحب المكتب، داخل ضباب علبة الهانيغين الثالثة، يقول إنَّه عاد الى البلاد قبل خمس سنوات، ومازال يجهل من وقتها أشياءً كثيرة، ربَّما لأنَّه لم يكن متحمِّسَاً لمعرفة أيِّ شيء. كانت نقطة المغادرة لديه العام ١٩٨٠، هناك في الحِجَابات الأماميَّة عند قصر شيرين. ولكنَّه عاد من نقطة حدود المنذريّة بعد رحيله بعشرين عاماً، فوجد أنَّ أخته الوحيدة باعت البيت الكبير الذي ورثه معها من والده، واقتسمت ثمنه مع زوجته الوحيدة!، التي ملكت هذا الحقّ بسبب حضانتها لولدها ذي الأب المفقود. وأنَّ ابنه الوحيد مات فجأةً قبل أنَّ يبلغ سنَّ المدرسة، وجد أيضاً أنَّ هذه الزوجة قد حصلت على الطلاق في المحكمة وتزوَّجت ثانيةً وأنجبت أولاداً كثيرين، و. . .

* * *

أنا «صاحب المكتب». هكذا. لقد تمَّ سلب اسمي هنا، وهو آخر شيء تبقَّى لديَّ كما ترون، ولكنِّي بعد كلِّ هذه الخسارات لا أبدو مكترثاً لأيِّ خسارة جديدة. حتى هذا المكتب، الذي استطعت شراءه بمصالحة بيني وأختي التي أكلت بيتي، إنَّه أيضاً تعويض مضمَّخ بروح الخسارة.

الدولة نفسها لم تكن تنتظر عودتي، فالراتب التقاعدي الذي خصصته لي لم يمكِّنِّي في يوم ما من شراء دجاجة. (اللاأحد) فقط كان ينتظرني، أو أنا، الذي انشطرت الى نصفين، ينتظر أحدهما الآخر على مدى عشرين عاماً.

أنا أعرف أنَّ نديم يسمِّيني في سره «صاحب المكتب»، ربَّما لأنِّي فقدت الاهتمام باسمي أيضاً. ألَّا ترون هذه الشقَّة، إنَّ ايجارها لا يساوي شيئاً، لأنَّه ما من محترم يقبل السكن فيها، لقد كانت تنتظرني ربَّما.

ولكنِّي تجاوزت صدمتي. كلُّ شيء يتغيَّر، والمرآة التي نظرت اليها في مطعم حقير عند مدخل الشارع، قالت أيضاً إنَّني تغيَّرت.

بقيت لليالٍ طويلة اعيش أجواء معسكرات الأسر. كنت افتقد في هذه الأوقات رفاقي الذين عشت معهم عشرين سنةً كاملةً. كنت افتقدهم، لأنِّي لم استطع العثور على حياة تُنسيني أجواء الأسر. بقيَ هذا الأمر مستمراً حتى ظهور (سائق الحافلة). هل أعرف اسمه؟ لا تتصوَّرون أنَّني أنكر ذلك عن عمد، إنَّه ببساطة سائق الحافلة، لأنَّه كان ذائباً في هذه التسْمِية ولا يحتاج الى أيِّ صفات أو اسماء أخرى. كنت أركب من گراج باب المعظَّم ذاهباً الى ساحة السعدون في حافلة الـ (TATA)، للعمل في مكتب للخدمات الطباعيَّة هناك، وفي كثير من الأحيان أصادف هذا السائق. كانت الأجواء مستحيلة، ليس في التسعينيات ما يدعو للبهجة. لكنَّ هذه التاتا كانت نظيفة ولامعة بطلائها الأحمر الفاقع. وثمَّة دبٌّ من الفرو الأبيض يربض دائماً على الزجاجة الأمامية أمام مقود السائق البشوش. كان نظيفاً، هذا السائق، بربطة عنق زرقاء، وقميص مكوي ولحية حليقة. ومذياعٍ يعمل، إنَّه يعمل حقَّاً. ويبث موسيقى خفيضة. الزجاجة الأمامية نظيفة وخالية من الحوقلات والبسملات والمعوذات ولصقات الحسد الملوَّنة. كان صورة ضديَّة - لقد انتبهت لذلك بالتدريج - لكلِّ سائقي النقل العام وسياراتهم. ويبدو بصيغةٍ ما، صورة مرحلة، بخطأ قدري، من السبعينيات.

يمكنك أن تفهم ما سأقوله لك يا صديقي. أنا واثق من ذلك. انت بالذات ستفهم، ولهذا سأكشف لك سرّاً، إنَّ خراب حياتي الثقيل، والذي لا ينفع معه شيءٌ، تحوَّل في أعماقي الى قطعة مغناطيس كبيرة، تجذب تباعاً وبقوَّة كلَّ الخرابات والانهيارات الممكنة والمحتملة، حتى احلامي وتخيُّلاتي لا تستدعي سوى الصور الكابيَّة والمدمَّرة. لذا كان عليَّ، وعلى خلاف المنطق الصلب الذي كان يقود حياتي، أنْ أتخيَّل وبإصرار صورة أخرى، واكتشفت ذات صباح هذه الصورة الأخرى أمامي. إنَّها صورة (سائق الحافلة).

كان عليَّ أنْ أرتدي شخصاً آخر، تملك هيأته قوَّة الحقيقة، وليس لها علاقة برأسي الخرب، وهذا ما اندفعت نحوه حينها، لقد تلبستني صورة سائق الحافلة تماماً.

بدأت أؤرشف كلَّ النُكات المهذَّبة التي يطلقها هذا الشاب الأربعينيُّ، للعجائز السريانيَّات والآشوريَّات المنتظرات قرب كنيسة البتاويين، ولحديثه بلهجة الواجهة الغربية مع الرجال ذوي الكوفيَّات البيض الذين يصعدون بفضاضة وكأنَّهم داخلون الى مضيف فيسلمون، بحذرٍ، على رُكاب الحافلة بأيدٍ مرفوعة في الهواء، قبل أن يجلسوا. رصدت كلَّ سكناته وحركاته. مسحه لرقبته بمنديل أبيض، وليس بـ(خاولي) كما يفعل زملاؤه في العادة. إشاراته الفكاهية للركاب الذين يبدؤون في التدخين والذين يلمحهم بمرآته الواسعة فوق رأسه، بضرورة ترك السيجارة داخل الحافلة. ما الذي اقوله لك. لقد جرَّدت هذا الرجل تماماً، من رأسه حتى قدميه، أحصيت مكوّناته وصنَّفتها، من كرسيٌّ بجوار الباب والذي يتغيَّر يميناً أو شمالاً، كرسيين أو ثلاثة الى الوراء،

حسب وضع الركاب في الحافلة قبل صعودي. واقنعت نفسي بعد حين بأنّي استوليت على روح هذا الرجل. حدث ذلك حين بدأت بتقمُّص صورة سائق الحافلة. لبسته، ليس مثل رداء، وإنَّما مثل روح جديدة. لم يكن يعلم بالطبع بمخطَّطي، وستغدو كارثةً لو علم مثلاً أنَّ أسيراً سابقاً يفعل ذلك، فالصورة الشائعة، كما تعلم، أنَّ أمثالي يعانون من خروقات نفسيَّة وعقليَّة بسبب ما عانوه على أيدي الايرانيين.

لقد مرَّ على ذلك الآن ثلاث سنوات تقريباً. لا أريد أنْ أخيفك، ولكنْ صدِّقني أنَّ الليلة تصادف الذكرى الثالثة لولادتي كسائق حافلة. ألَّا تستحق هذه المناسبة احتفالاً بسيطاً كهذا؟

أنا أعرف أنَّك الآن تعيد تقطيع وتنظيم وصياغة كلامي في رأسك، أنت وإذ تسمع تتفاعل، بالضبط كما يقول هيغل.

هل دخل هيغل بسببي أم بسبب تفاعلك؟ هذه قضيَّة أخرى. ولكنِّي سأقول لك شيئاً، إنَّ روح سائق الحافلة تغادرني الآن، وهذا ما يحزنني، فلولا ذلك ما تحدَّثت لك عنها، إنَّها في الخارج، هذه الروح، لذا ارصدها واتحدَّث عنها، حديثي يخبرني بأنَّها تغادرني. في الأوقات التي كنت أتغيَّب فيها عن المكتب، كنت في الحقيقة أدور في بحث يائس عن سائق الحافلة، الذي اختفى مع اختفاء الحافلات من شوارع بغداد، وقت سقوط النظام. اختفت العديد من الخطوط التي تعمل في شوارع بغداد، واصبح موقف سيارات النقل العام مهجوراً، بعد احتراق العديد من هذه الحافلات، وباع بعض السائقين حافلاتهم الحكومية لمهرِّبين مجهولين.

كان شخصٌ ما في داخلي يُخبرني بعدم امكانية السباحة في

النهر مرَّتين، وأنِّني حتى لو التقيت وجهاً لوجه مع سائق الحافلة، فلن استطيع، مهما حاولت، انتزاع شيء جديد منه.

ها انذا أؤبِّن تلك الروح التي انقذتني، وخلَّصتني من مغناطيس الخراب. لست سكراناً، أنا استمرُّ في الشرب حتى ساعات الفجر الأولى، وبعدها أقوم وبكلِّ ثبات بإعداد الطعام لنفسي. اقوم بإعداد تلك الوجبة الغريبة التي لا تملك اسماً محدَّداً، ولهذا احبها، فهي ليست عشاءً، وليست فطوراً أيضاً، غير أنَّ هذا لن يمنع حنيني الذي يتنامى الآن لأقفاص الأسر الايرانية ورفقة زملائي هناك. لن يمنع مغناطيس الخراب من العودة الى أعماقي ثانيةً.

* * *

إنَّه شخصٌ آخرُ يبحث عن (الهنانك) صاحب المكْتَب هذا. لكنَّه أخطأ بالتوجُّه إليَّ، إنَّ أمره معي يشبه ما تقوله (بنيَّة): مجَدِّي يجدِّي من مجدِّي، عفواً: شحاذٌ يشحذُ من شحاذٍ. من المؤكد أنِّني سكرت، سكرت أخيراً.

أنا الآن رجلٌ نصف مخمور، أكثر أو أقل بقليل. نزلت على السُّلَّم المعتم بصعوبة، وخشيت وأنا أخرج من مدخل العمارة أنْ أجد نفسي في عالمِ آخرَ. كان الشارع غريباً، بسبب سكري، والظلام المرقَّط بالمصابيح القليلة التي تعاني من الوحدة.

أين سائق الأجرة الآن، ذلك الوديع واللطيف والخفيف مثل نسمة فاترة على جسد يشويه الصيف. أين سائق الأجرة، ذلك الذي يشبه خادماً هنديَّاً نظيفاً يعمل في فنادق الدرجة الأولى. أين هذا المجنون الذي يقبل بتوصيلي الى قطاع ٣٨ في هذه الساعة.

فكَّرت بذلك وأنا أغذُ من خطواتي في هذه الوحشة الهائلة لشارع ميت تماماً بعد غروب الشمس بساعة، ولكنْ من دون خوف، فأنا أسير الآن، بسبب علب الهانيغن، في شارع برزخي يتسكَّع فيه نصف المخمورين فحسب.

مددت يدي برتابة للسيارات الشحيحة التي تمسح الاسفلت بأضوائها بين حين وآخر، وخمَّنت كلَّ الأشكال المقترحة للسائقين في هذا الوقت. لكنَّ من وقف أمامي في النهاية لم يكنْ بينهم أبداً. وكأنَّه قادم من أحلامي الشخصيّة. ساوَمَني بتهذيب على الأجرة. لم يستغرق الأمر ثواني معدودة، حتى كنت معه ننهب بالسيارة الطريق شبه الخالي باتّجاه مدينتي، التي اكشفت أنَّها مدينتنا أنا وهو. وظلَّ يقلِّب أثناء قيادته هاتفاً محمولاً، ثمَّ يضغط على مشغل النغمات، فيصدح شيء لم أستطع تمييزه. كنت أحتاج في تلك اللحظات للثرثرة مع هذا السائق أو أيِّ سائق، كي اضبط معه إيقاعي الاجتماعي، كي أزيلَ من مظهري، على الأقل، آثار الخَمْرَة التي شربتها، حتى تمضي الليلة بسلام مع شباب مدينتي، ومع بنيَّتي.

لكن هذا السائق لم يكنْ مؤهلاً لتقديم هذه الخدمة، كان يتكلَّم بسذاجة عالية، عفواً: بطيبة عالية، كان منتشياً بصغائر الأشياء، ويبدو في قمَّة حبوره، وكأنَّ ركوبي معه قد زاد من سعادته مجهولة المصدر. لم أكنْ بحاجة لذلك طبعاً، ولكنِّي استسلمت أخيراً لهذا السائق السكْرَان بحياته، ولبست بسببه قناعاً ـ يبعث في نفسه الاطمئنان ـ تَصَلَّبَ تدريجياً على وجهي، ولم أرغب بتمزيق هذا القناع وإزعاجه. إنَّه طريق فحسب. بعدها لن يراني أو أراه، الى الأبد ربَّما.

تركت هذا السائق عند الرصيف المقابل لزقاقنا بدوار مضاعَف، لقد وصلت ببساط سحريٍّ خفيف، استجاب لتصفيقة يدي الآمرة، لم أستطع نزع هذه الصورة من رأسي المتمايل، فازداد تمايلي. وحين فتحت بنِّيَّة الباب عرفت أنَّها عرفت. لم تتكلَّم معي بشيء وفسحت لي للمرور.

كانت عيناها تبرُقَان حين جاءت الى غرفتي، عفواً: غرفة حميد، وشاهدتني ممدَّداً بملابسي الداخليّة على السرير.

ـ تريد عشه حميد، لو متعشي مثل كل مرّة؟

رمت كلماتها غير المفهومة، مركِّزة على مفردة (حميد) واختفت من فرجة الباب.

* * *

أنا سائق التكسي. طبعاً يمكن الافتراض أنَّني صباغ الأحذيَّة في الباب الشرقي، أو عامل الكُبَّة في المعامل الخلفية لعلوة جميلة. أنا ضابط متقاعد بعد أن تحلل الجيش كيمياوياً وعاد الى عناصره الأولية: رجال، وأرض، وأسلحة تلاشت أو تحوَّلت الى خردة غير مفيدة. ولكنِّي لم اختر ذلك. لا أعرف من الذي قال: (المهنة تختار صاحبها)، لذا انا سائق التكسي التي اختارتني، أليس كذلك؟!

ولكنْ، لماذا أغامر. أنا لا أفهم هذه الكلمات، إنَّها تُضبِّب الرؤية أمامي، مثل مطر شديد على الزجاجة الأماميَّة، في وقت لا تعمل الماسحات فيه.

أنا أعرف فقط العاهرات الفمويَّة في زيونة وشارع السعدون، وهذا طبعاً ليس ذنبي، فأنا غير قادر على فضح اسمي أو منح اية

معلومات لا يريدها اللسان الذي اتحدَّث به الآن، والذي غدا لساني من دون إرادة منِّي.

أنا اعرف فقط أنَّ السابلة يختفون دائماً، وبحركة متسارعة، الى الوراء. العالم كلُّه يرجع الى الوراء على نوافذ الأبواب في سيارتي، وانا اتقدَّم. اطارات هانكوك الجديدة في سيارتي لا تعرف الاستدارة، حين تستدير، ولا تعرف شيئاً،إنَّها تتقدَّم فحسب. تدور حول نفسها ابداً،

حتى عندما تتآكل ويتمُّ التخلص منها، تبقى استدارتها المهملة اشارة للتقدُّم الممكن الذي مازال ينبض فيها.

هل يفكِّر سائق له علاقة بالعاهرات الفمويَّة بهذه الطريقة؟ لا أعرف. لأنَّ حديثي يجري على لسانٍ غَدَا من دون تدخُّل منِّي لساني الآن.

ورغم أنِّي قد لا افهم الكثير مما سأقول، ولكنْ هذا لا يهمُّ، لأنَّ عليَّ التقدُّم فحسب، فسيارة الكرونا موديل ٨٢ هي التي اختارتني، وانا اتقدَّم معها، رغم ان التقدُّم غدا عسيراً، ولا يبدو الامر مفهوماً، فالكلُّ يتحدَّث منذ هروب الريس عن التقدُّم، ولكنِّي لا أرى ذلك. كسْ أخت الريس طبعاً، هذا أولاً، ولكنْ ثانياً، أنا أرى السابلة يتقدَّمون، وسيارتي تنحشر دائماً في زحام طويل ومخيف. السابلة يتقدَّمون، الجنس البشري يتقدَّم للأمام من دون معونة الآلة. آه.. رومانسية روسو. آخ.. أنا السائق المحبُّ للعاهرات الفمويَّة أتحدَّث عن روسو الآن!

لا أدري كيف تذكَّرت الواجبات الليليَّة المغموسة ببرد سيبيريا، هناك، في عراء الحدود مع إيران، حين اضطررت للمبيت

ببطانية وبرّاد شاي خلف مئة وثلاث وستين سيارة، كانت مصفوفة أمام سيارتي عند محطة وقود (ابو قلام) في الكرادة.

الغريب أنَّني استفدت كثيراً من قاموس خدمتي العسكريَّة في هذه الأيام التعْبَانة. لقد قال لي ذلك الشاب الذي ركب معي في تلك الليلة من مدخل شارع الكفاح اننا نسير في حقل ألغام، وأعجبني ذلك، رغم أنّي نذرت أن اذبح خروفاً أمام ضريح العباس لو سلَّمني الله من حكاية حقول الالغام إبان الثمانينيات.

إنَّني اتقدَّم الآن، وبطريقة مقلقة، داخل حقل ألغام حقيقي، أو أمرَّ في كثير من الأحيان بجوار سيارة نسفتها هذه الألغام الغامضة، وحوَّلتها الى ما يشبه صفيحة مجَعلِكَة ومحروقة.

لم أفكِّر أنَّني في يوم ما، ونتيجة إصراري على التقدُّم، سأتحوَّل الى عصفٍ مأكول. ولكنّي في ثمانينيات العبث البعثي كنت أرى بوضوح، فليس عليَّ [شوف الفايخ] إن اردت النجاة من الألغام، سوى مغادرة هذه الحدود الجرداء والعودة الى المدن، مدينتي، أو أيَّة مدينة تختارها «القيادة الحكيمة!».

ولكنْ، سأغادر ماذا، للنجاة من هذه الألغام هنا؟! آه.. خَرَبْ عرضك روسو، علينا التقدُّم للأمام ومغادرة المدن إذن!

* * *

أنهت بنِّيَّة سيجارتها ثمَّ قذفتها بإصبعيها مثل مدخِّن محترف باتّجاه باب غرفة الاستقبال، فظلَّت أشباح الدخان تتماوج من العقب المنتهي. كان منظرها وهي تمسح بيدها على فمها ثمَّ تنظر الى الضوء القادم من باب الغرفة، لا يُحيل الى شيء جديد، إنَّها الصورة النمطيّة لبنِّيَّة داخل هذه الحكاية، ولكنَّها كانت تفكِّر بشيءٍ

ما، بيأسها من أولادها، أو بحياتها التي ذهبت هباءً، رغم أنِّي لا أعرف كيف يمكن ألَّا تكون حياة امرأة مثلها هباءً، هل كانت تحلُم أنْ تكون راقصة باليه مثلاً، أم كانت تفكِّر بالزواج من رجلٍ غنيٍّ، وتنجب أولاداً وبناتاً أكثر مما صار لديها.

ها أنذا اسبغ بثرثرتي عمقاً لا يتوفَّر في صورة بنِّيَّة، الصورة التي أكرهها لحيادها البارد والقاتل، وعدم اكتراثها لشيء، وهو أسلوبها المعتاد في إعلان احتجاجها واعتراضها، هذا ما فعلته مع يارالله، وحميد، وهي تكرِّر الأمر معي. ما الذي تفكِّر فيه هذه العجوز يا ترى؟

هل تصارع مع نفسها رغبة البوح بسرِّها العظيم؟ ندمها على تربية ولدٍ نَغَلٍ مثلي، وذهاب ولدها الآخر الذي من بطنها الى غير رجعة؟ أم أنَّ الأمر معكوس؟

لم تخبرني أيٌّ من الأصوات التي هجمت على رأسي في تلك اللحظة، بشيء مفيد، حتى أنِّي تخيَّلت نبرة صوتها داخل رأسي، فلم أجد شيئاً. كانت تمثالاً لحياة تعاني من العسر منذ سنوات طويلة. إنَّها لهذا السبب ربَّما ميتة منذ ذلك الوقت من دون أنْ أنْتَبِهَ.

* * *

لم تكنْ تعرف بعد أنَّني تركت العمل في مكتب الاستنساخ، لكنَّ يومي الأول في العودة الى العطَّالة لم يمرّ بسلام. استيقظت على أصوات قذائف وإطلاق رصاص متلاحق. لكنِّي لم اكترث كثيراً، لأنَّ هذه الأصوات غدت مألوفةً في مدينتنا، وأصبح العديد من الشباب يملك الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وهناك أسواق

علنية للمتاجرة بالسلاح والعتاد، وأكثر من سبب لإطلاق الرصاص في أيِّ وقت.

لكنَّ الرصاص استمرَّ بالتلاحق، ثمَّ سمعت صوت مروحيّة على ارتفاع واطئ تخطف مسرعةً فوق البيت، كان صوتها حادّاً ومفزعاً مما جعلني أنهض جالساً في فراشي. وارتجت الجدران لصوت قذيفة أو صاروخ أطلقته إحدى الطائرات وسقط قريباً منَّا.

في ذلك الوقت كانت بنِّيَّة تغسل الأواني قرب حنفيّة الحوش. أنظر الى الحائط المواجه لي وأتوقع أنْ تهتزَّ الصور التي عليه وتسقط في أيَّة لحظة. من المؤكد أنَّ المواجهات بين الاميركان وشباب مدينتي وصلت الى ذروتها. وهذا مبرِّر إضافي لعدم الخروج من البيت لهذا اليوم.

انسدحت عائداً الى النوم، أو أنَّني دخلت في ذلك من دون تخطيط، حين إرتجَّ البيت بشدَّة مرَّة أخرى إثْرَ انفجار أكثر حدَّةً. سقطت صورة حميد ذات الإطار الخشبيّ السميك من الحائط فوق رأسي تماماً مع كامل المكتبة العالية، فلم أعِ أيَّ شيءٍ بعدها.

كانت أشياء أخرى قد سقطت، ملابس وأواني معدنيّة، سقطت الوسائد والأفرشة من على خزانة بنِّيَّة وهوت في وسط غرفتها. وسقط جزءٌ من الجدار المائل للجيران على بنِّيَّة وهي تستعد للنهوض من حنفيّة الحوش، فاندثرت تماماً تحت التراب وكسر الطابوق، وسجادة حمراء مبلَّلة كانت نساء الجيران قد نشرتها على هذا الحائط المتهالك كي تنشف.

لقد تخيَّلت كلَّ شيء في طريقي الى المستشفى عصر ذلك اليوم. رأيت القنوات الفضائيّة كلَّها بعدساتها وأضويتها الكاشفة تحدِّق بجسدي العاري، ورأسي الملفوف. ورأيت أشياء أخرى،

أو تخيَّلتها. فالأمر سيان عندي الآن. هل لهذه الحادثة علاقة بوضعيّة نصف المخمور يا ترى؟

شاهدت حميد مع صديقه الزنجي عبود وهم يركضون في ساحة عَرَصَات والبخار يتصاعد من أجسادهم العارية، ولكن الصورة بدت هزلية ومكرَّرة. شاهدت عبد الرضا جارنا يتمايل مثل سكران قادماً بجثَّته الضخمة من رأس الشارع، ببدلة ملوَّثة بالملح والتراب اللذين تراكما عليه ابتداءً من حفر الباطن في أعقاب انتهاء العمليات العسكريَّة في عاصفة الصحراء. طرق عبد الرضا بابَنا، بدل الباب المجاور لبيته، وحالما فتحت له، هوى عليَّ بجثَّته الهائلة، وكأنَّه كان ينتظر فتحة الباب هذه منذُ زمن بعيد، لكي ينهار أخيراً.

ومثل جندي أنهكه النعاس أثناء حفلة موت فجائيَّة انبثقت في الحِجَابات الأمامية، تقلَّبت أمام الكاميرات، وغطيت رأسي بالوسادة، ولم تأتِ بنيَّة، ولم يخترق عزلة النعاس والصداع شيءٌ غير هذه الأصوات المألوفة، والمألوفة جدّاً.

شاهدت دبابة جاثمة بهيكلها الضخم عند مدخل الزقاق القريب، وعند الطرف الآخر خطف شباب مدينتي بملابسهم السود، حاملين القاذفات والـ(RBK) وكلَّ شيء، فعاجلتهم البندقية السوداء من على دبابة أميركية بإطلاقات مزَّقت الهواء بوحشيّة، الأمر الذي دفع بنيَّة لسحبي، وإغلاق الباب بإحكام. قالت لي بأنِّي لن أخرج ثانيةً، وأنَّ عليَّ ترك ذلك العمل السخيف قليل الأجر. لم أكن بحاجة لأخبارها بأنِّي تركت هذا العمل حقّاً.

تواصلت الإطلاقات، ممزوجةً بصرخات ولغط غير مفهوم. كان كلُّ شيءٍ يختلط ببعضه هناك، ما وراء الباب. وأنا الآن مُغْمَى عليه، مثلما أردت بالضبط. لقد خرجت كلُّ كوابيسي من رأسي

دفعة واحدة، وبدأت تتجوَّل بين الأزقة والشوارع في مدينتي، سأرى نفسي إذنْ، بخوذتي ترابيَّة اللون، وزمزميتي. ستمتلئ الأزقة بالمياه القذرة، فأرى للمرَّة الأولى، تلك الجثث الطافية التي تعلوها الحشائش مثل محطات استراحة لطيور السميچي البيضاء. وتمتلئ الشوارع برؤوس قطفها الموت الكثير. وأرى الضباط وهم يأمرون جنودهم بالموت بدلاً عنهم، بينما يقضون هذا الوقت المهم بمطالعة جريدة الثورة أو القادسية.

ناديت على بنيَّة، فرأيت صوتي ضعيفاً ونحيفاً مثل صوت طفل أضاع أمّه في السوق. خجلت من تكرار المحاولة، وبقيت أنتظر، لكن بنيَّة لم تعد واختفت. ورأيت هناك من يتقدَّم الى هنا، بدا حالك السواد، ولم تتضح معالم وجهه أبداً. كان زنجيَّاً، وأخبرني بأنَّه الناجي الوحيد من فوج المهمّات الخاصة، بعد أنْ ارتأت القيادة العسكريَّة العليا التضحية بهذا الفوج، في سبيل التقدُّم على جبهة أخرى، فأطبق الإيرانيون مثل كماشة على أكثر من ستمئة جندي، وبدؤوا بحصدهم، من دون أنْ يفكِّروا بالحصول على أسرى.

(ما الذي أقوله لك.. لقد نجوت بأعجوبة، وتركت هناك ثلاثة أصابع من يدي اليمنى) قال هذا الزنجيُّ، ثمَّ سحبني من رَقْدَتِي وقادني الى العتمة، قال إنَّ اسمه عبود مطر شنشول، وأهله مازالوا للآن في منطقة الگيارة. سحبني من يدي بيده ذات الإصبعين فاستجبت له، ودخلنا العتمة معاً، إلتفت إليَّ واستطعت أنْ أشاهدَ شيئاً في وجهه، كان يبتسم، وقال لي: أَلَمْ تكن ترغب بذلك؟ سآخذك الآن الى «هنانك» يا صديقي.

الفصل الثاني

تعطيل الحكاية

[رُبَّمَا كانَ يُفَكِّرُ بِمَا كُنْتُ أُفَكِّرُ بِهِ سَابِقَاً. يُفَكِّرُ بِالتَّلْوِيْحَتَيْنِ وَالْيَدَيْنِ اللَّتَيْنِ مَنَعَهُمَا الزُّجَاجُ الْمُظَلَّلُ مِنْ أنْ تكُوْنَا شَيْئَاً وَاحِدَاً.]

نديم

وجدتني جالساً على تلَّة أثناء مغيب الشمس، بينما طيور السميچي البيضاء تتهادَى بأجنحتها الطويلة في عمق السماء. كانت كفَّايَ مطويَّتين في ردني قمصلتي العسكريَّة الكبيرة. أحدِّق في الأفق الترابيّ ولا أرى شيئاً جديداً. لكنِّي استمرُّ بالتحديق. ليس هنالك شيءٌ آخر في هذه البريّة القاحلة، سوى هذه الطيور البيضاء فوقي التي تغادر باتّجاه الشمال، وتنعق بأصوات خافتة تتناهى إليَّ في الصمت المديد الذي يحيطني.

كنت وحيداً، كما كنت دائماً، أو أنَّني هكذا لأنَّني أرغب بالقبض على ذاتي معزولةً من أيِّ شيء. ووجدتني أستعيد شريط اللحظات الأخيرة قبل انْهِدَام البيت على رأسي ورأس بنِّيَّة. لم أكن قلقاً تجاه شيء، ولم أفكِّر ببنِّيَّة أو بمصيرها، كانت سكينةُ الموتى ترقدُ على صدري.

حدَّقت بالمكان من جديد، ثمَّ نهضت وكأنَّني أبحث. أنا وحدي هنا، وأنا أعرف هذه البريّة، أعرف أنَّه مجرد نهاية يوم عادي لجندي عراقي، ولكنْ لماذا أنا وحدي.

سمعت قرقعة أسفل التلَّة، فشاهدت زنجيَّاً طويلاً يتهادَى على طريق نَيْسَمِي حاملاً جاليكاناً مملوءاً بالماء. كان يتقدَّم باتّجاهي،

ولم أنتبه بدقّة من أين انبثقَ، وحين اتّضحت ملامح وجهه عرفت حينها بأنّني أحْلُم.

ـ لا تقلق. إنّها مجرد غيبوبة، ستنهض من الفراش بعد يومين.

قال عبود ذلك، وهو يجلس بجواري، واضعاً جاليكان الماء بجواره. سكب منه في قعب زمزميّة وشرب ثمَّ أكمل ناظراً الى الأفق الترابيّ مثلي:

ـ إنَّه شيءٌ غير اعتيادي، أنا أعرف ذلك، ولكنْ، حتى أنا، ليس لِيَ علاقة بالموضوع. أنا مجرد شخص ميت، وشابع موت. المشكلة لديك، أنت من يريد أنْ تجري الحكاية بهذه الطريقة.

قال ذلك، ثمَّ أوقد سيجارة روثمن وبدأ ينفثُ دخانها في الهواء، قبل أنْ ينهض ماشياً بثقل وتعب الى الجهة الثانية من التلَّة.

لونٌ ترابيٌّ شاحبٌ بدأ يغزو السماء ببطء، وزادت الريح من سرعتها، حتى أنّي سمعت صوت أواني تقرقع من الجهة الثانية للتلَّة. نهضت فشاهدت ملجأً كان الايرانيون يستخدمونه في حرب الثمانينيّات. مبنيٌّ من أقواس حديد مرْصُوفة بجوار بعضها. شاهدت عبود داخل الملجأ يعد طعام العشاء، من دون أنْ تغادر السيجارة فمه.

ـ كان الايرانيون في هذه الأرجاء لمدَّة سبع سنوات وثمانية أشهر.

قال عبود ذلك، وبدأ يستذْكِر معركة طويلة دارت في هذه الوديان. استمرَّت ثلاثة أيام بلياليها من دون أنْ ينجح الجيش العراقي في زَحْزَحَة عدوه الايراني قيد أنمُلَة. ولكنْ بعد إعلان وقف إطلاق النار في آب العام وثمانين تراجع الايرانيون تلقائيَّاً

الى أراضيهم تاركين هذه المواضع والملاجئ على صورتها ثمانية هذه.

ـ لقد حدثت حكايات عجيبة في تلك الأوقات. تقدَّم الايرانيون والعراقيون باتّجاه مواضع بعضهم البعض وتعانقوا، متجاهلين تلك الاحتمالات التي كانت واقعيةً قبل ساعات بأنَّ أحدهم قد يقتل الآخر مع أيِّ أمر بإطلاق النار. بكى أحد الجنود وأبْكَى غريمه الايراني حين تعانقا وكأنَّهما يعرفان بعضهما الآخر، وبدا الأمر سخيفاً وبالغ العاطفيّة بالنسبة لآخرين. تبادلوا المصاحف وعلب الفستق وبعض الهدايا، وأعطى المتديِّنون قطعاً من تربة الحسين لجنود إيرانيين، فأخذوها كهدايا نفيسة ونادرة. كانت هناك لخبطة واسعة وفيضٌ شعوريٌّ غير مسيطر عليه بسبب المفاجأة غير المتوقَّعة لنهاية الحرب.

لم يتوقف عبود عن الكلام، ولم أرغب بمقاطعته، وبعد انتهاء العشاء، أطبق الظلام الدامس على كلِّ شيء، ما سوى المساحة الضئيلة داخل الملجأ التي أضاءَتْها (لَمْبَة) علبة معجون الطماطم الزجاجيّة المملوءة بالنفط، والموضوعة على كدس عتاد فارغ.

ـ هل سأنام أنا أيضاً؟

سألت عبود، حين رأيته يندسُّ في فراشه، ويفتح مصباحاً يدويَّاً صغيراً على صفحتي كتاب سميك وضعه في حجره، متَّكِئَاً براحة على وسادة السرير.

نظر باتّجاهي وبانت أسنانه شديدة البياض وهو يقول:

ـ لا تنظر إليَّ هكذا، أنا رجل بسيط ليست له علاقة بالكتب ولا بالقراءة مطْلَقَاً، لولا العسكريّة لكنت سائقاً لسيارة ريم أو كوستر على أحد الخطوط الفرعيّة في مدينة الثورة.

طوى الكتاب ماسكاً بإبهامه حافَّةَ الصفحة التي كان يقرأُ فيها ثمَّ حدَّ النظر إليَّ قائلاً وكأنَّه يكشف عن سرٍّ:

ـ إنَّ ما تراه يتعلَّق بحلمك أنت. أنت من أجرى هذه التعديلات المرْبِكَة.

ـ ولكنْ، هل سأنام أنا أيضاً؟ إنْ كنتُ في غيبوبة فكيف أنام؟

قلت له فمدَّ يده الى كيس ورقيٍّ مجَعْلَكٍ وقال لي:

ـ هذه هي القصَّة التي كتبتها في مكتب الاستنساخ الذي كنت تعمل فيه قبل أنْ يسقط على منزلك الصاروخ الاميركي. هذه الأوراق التي بقيت في حاسبة صاحب المكتب المسكين.

أخذتها منه، فوضع الكتاب السميك على كدس العتاد الفارغ الذي بجواره وأقفل مصباحه اليدويَّ الصغير، ثمَّ اندسَّ سريعاً تحت بطانيته الخَاكِية، مُوَلِّياً ظهره، وكأنَّه انتظر هذه اللحظة ليغادر الى ما وراء النوم.

قلَّبت الأوراق، كانت مجرد مسودات لشيءٍ أردت كتابته.

* * *

كان الجدار الفاصل بينَ بيتنا وبيت مصطفى الفيْلِي أشبه بكرسيٍّ طويلٍ مَبْنِيٍّ من القرميد الأصفر، أو حصانٍ حجريٍّ، لجلوسنا الصيفيِّ، أنا وهو، حين تُحَلِّق طائراتنا الورقيّة فتَعْلَقُ في النهاية بأشجار النخيل البعيدة، ويتوتر الخيط قبل أنْ ينقطع بسبب شدِّنا اللجوج نافد الصبر.

أول كتاب قرأتُه كان في بيته هو، من يد والده المعاون الطبي ذي العينين العسليَّتيْن، والذي يزرق الأبر في صالة بيته لكلٍّ منْ هبَّ ودبَّ، كنوع من العمل المجانيّ بعد الظهر.

وضع بين يدي قصَّة أحمد بن ماجد، وغاضني فيما بعد أنَّ مصطفى قرأها قبلي، وقرأ أشياءً أخرى مخبوءة في مكتبة والده. كان يفخر بوالده، ولديه صورة على خشب المكتبة الصقيل، تظهره مع أبيه وهما يقفان على سياج أبيض في مكان ما من مصايف الشمال.

كان أبوه يبْتَسِم، ولم أرَ يارالله يفعل ذلك في يوم ما، وبدلاً من انفراجة مجانيّة لا تكلِّف شيئاً على شفتيه واسترخاء ملامحه كان مشْدُودَ الوجه دائماً، ولديه مشكلة كبيرة في كلِّ وقت وحين، ولم أسمع نكتةً واحدةً يرويها، ويستخدم الأعضاء التناسليّة في أحاديثه كثيراً، حتى في شتائمه المتبادَلَة مع بنُيَّة، وهذا ما يبدو أبعد شيءٍ عن أبي مصطفى، الذي تمنَّيت ذات ليلة وأنا أغالب إغفاءةً ثقيلةً أنْ يكون والدي أنا.

حين أخذوا أبا مصطفى مطلع الثمانينيّات الى الفرقة الحزبيّة وغاب لمدَّة شهر، قال يارالله شيئاً غير مناسب كعادته. لكنَّه حزنَ فيما بعد لحال عائلة محمود الفيلي الكبيرة التي جمعت من بيوتات مدينتنا، ثمَّ رُحِّل أغلب الرجال فيها الى إيران. ونجا محمود من هذا الأمر لأنَّه كان بعثيَّاً، وعاد الى ولده مصطفى. لكنَّه سرعان ما ذهب الى جبهة الحرب مع إيران، وظَلَلْتُ اسمع، من وراء الحائط القرميديّ الأصفر على مدى أيام بكاء مصطفى على والده ينبعث من وسط البيت عند مغيب الشمس، فأرغب في مشاركته، حُزناً على غياب الأب الذي تخيَّلته.

* * *

أين يمكنْ أنْ ترى ذروة النساء القصوى حيث لا مكان لغيرهن؟

حين جلبوا جثّة عبد الهادي خضير عازف الكمان في فرقة حبايب للموسيقى الشعبيّة ووضعوها بتابوتها الملفوف بالعَلَم العراقي أمام الأطفال والرجال عند رأس الزقاق، هجمت أمّه من باب البيت، وكأنّها تلقت قبلها اتصالاً هاتفيّاً يعلمها بقدوم جُثّة ابنها الكبير من جبهات القتال في هذه الساعة بالتحديد. أمّ هادي هذه هي رأس النساء في الفواتح ومجالس العزاء، وكذلك في ليالي العشرة الأولى من شهر محرَّم، ويلقِّبُها الجميع بالملايَّة، ولا أحد يجاريها في القصائد الشعبيّة العديدة التي تحفظها، وتنغِّمها بصوتٍ مؤثر إنْ كان في مناسبات دينيّة أو في فناء البيوت المنكوبة بفقد أحد أبنائها.

في ذلك المساء تجمْهَرت النساء على بيت أبي هادي، وأراد الجميع، بنوايا غير مناسبة، أنْ يروا ما الذي ستفعله هذه المرأة تجاه ولدها هي، بعد أنْ كانت تفعل ذلك ببراعة كاملة لأبناء الآخرين. هرولت أم نجيب حافيةً تجاه التابوت الملفوف بالعلم اللامع، وتبعتها أختها العزْبَاء سليطة اللسان. وتجمهرتْ كلُّ نساء الحيِّ والقطاع على بيت أبي هادي عند مغيب الشمس. ودفعت النساء ببناتها الصغيرات كي يحفظنَّ ما ستقوله أم هادي على ولدها.

في العادة كانت أم هادي تتصدر النساء الداخلات الى بيت المتوفى وهي من تقود المجموعة الصغيرة عديمة الثّقة من النساء، فتلقي بيتاً من شعرها، ثمَّ يتبعنها في ترديده بطريقة إيقاعية تتناسب مع رَدْحِهن على أرضية الحوش الخرسانيّة. وتلتحم المجموعة الزائرة مع المجموعة الأصلية من نساء البيت، وتدور رُحَى رقصة حزن جماعيّة يصل صداها الى آخر الشارع.

أما في ظرفها الحالي فإنَّ أم هادي هي من تستقبل طَرْفِيَّة، تلك العجوز المسترْجِلَة، والتي تدانيها في شهرتها، وتتفوَّق عليها بصوتها الجهوري الخشن.

في تلك الأجواء، ازدادت أعداد القتلى مع تلاحق الأيام والشهور والسنوات، واصطبغت الجدران بلافتات العزاء السود، وأصبح تكاثر الموت فوق توقُّع الجميع، وتراجعت شهرة المطربين الشعبيين، أمام الشهرة المتصاعدة لمجموعة من الأسماء لنساء عجائز، على رأسهن طرفيَّة وأم هادي وأم نجيب، وأربع أو خمس أخريات، بوصفهنَّ الأكثر براعةً، داخل المدينة، في استدْرار حزن القلوب القاسية، وفي تفصيلِ شكلٍ استعراضيٍّ مناسبٍ لكلِ ميْتَةٍ، حسب ظرفها ووضعها، بأداءٍ ارتجاليٍّ ليسَ لهُ مثيل.

يغدو الأمر شخصيَّاً حين تدخل بنِّيَّة هذه المَعْمَعَة، فأتعرَّف بشكل مباشر على هؤلاء النسوة داخل باحة بيتنا، وهنَّ يَتَوَزَّرْنَّ بأحزمة من قماش فوق العباءات السود، قبل أنْ يقلبنَّ هذه العباءات على مؤخراتهن، ولربَّما شطرت أحداهن حزامها القماشيَّ الى نصفين لكي توفر حزاماً لرفيقتها، قبل التوجه الى مجلس العزاء. وساعد الإحساس بالفراغ وعدم مبالاة يارالله باندماج بنِّيَّة شيئاً فشيئاً في هذه المجموعة، وكأنَّها تتحسب لليوم الذي ستفقد فيه حميد بسبب الحرب، فيكون لها حينها من يقوم بالواجب في مجلس عزاء النساء داخل البيت، الذي يمثِّل في العادة ظهير الإسناد لسُرَادق العزاء الرجاليّ المنصوب في الزقاق، والذي لا يشهد أيَّة طقوس احتفاليّة، ويغلب عليه الوقار.

ظلَّت بنِّيَّة تَهِبُ للقيام بالواجب في كلِّ عزاء على قتيل جديد تأتي به طاحونة الحرب الى المنطقة، وكأنَّها تُسَلِّفُ النساء حزناً

ترغب باسترداده في يوم ما، حين يأتي حميد، ولا ريب، ملفوفاً بالعلم البرَّاق، ويركُن تابوته بجوار باب البيت.

* * *

كان سلمان الطويل يعلِّمُنا لعبة جديدة على سطح بيتهم، حين سمعنا صوت الاستعراض العسكريّ يتناهى إلينا من بعيد. رفعنا سراويلنا وأخفينا أعضاءَنَا المنْتَصِبَة، ونزلنا سريعاً. صاح سلمان منفعلاً لأنَّه لم يُكْمِلْ درسَه في تطويل القضيب بصابونة الرَّقِي. لكنَّنا عند الساحة الترابيَّة قرب السدَّة شاهدناه يقف بعيداً عنا، وينظر باشمئزاز الى ما يجري. كنّا نتحرَّك متشوّقين من مكان الى آخر كي نشاهدَ بوضوح. وحين وصلنا السدَّة الترابيّة خطونا عدَّة خطوات فأصبحنا أعلى من الجميع. من هناك شاهدت المتطوّعين في الجيش الشعبي، وهم يسيرون بخطى متراخية، وبملابس مختلفة. هذا يرتدي بنطالاً جوزيَّاً وقميصاً رماديَّاً، هذا يرتدي دشداشة عريضة مقطوعة الأزرار عند الرقبة، مشعث الشعر، بلحية نامية. هذا يرتدي غترة بيضاء وعقالاً مائلاً. هذا يرتدي بدلة عمال البلديّة ووجهه مثل الصمونة اليابسة. هذا مثل يارالله يرتدي دشداشة شكريّة وغترة مرقَّطة ملفوفة على رأسه. هذه بنِّيَّة تقف ملفوفة بعباءتها في مقدَّمة حشود الأهالي، تحمل كيساً من الجنْفَاص بيدها، وتصكُّ بيدها الأخرى على فمها، وكأنَّه يطلق رائحة قبيحة. أخ خ خ.. أنَّه يارالله، وهذه بنِّيَّة!!

نزلت من السدَّة الترابيّة، وحاولت الاقتراب من بنِّيَّة، لكنِّي لم أصل اليها إلَّا بعد صعود المتطوّعين الى السيارات الطويلة والكبيرة ترابيّة اللون، وكان الكيس قد اختفى من يدها، وعيونها ملطَّخة

بالدموع. كانت صامتة وعيناها تتكلّمان. وحين تحرَّكت السيارات الثلاث رمتْ امرأة عجوز نفسها فجأةً على التراب الناعم لهذه الساحة مثل مصروعة، واجتمع الناس عليها، بينما الصوت الحماسي للأغاني الحربيّة ينطلق من الفرقة الحزبيّة المجاورة بضجيج صاخب.

* * *

في اليوم التالي طرد الحزبيُّون فريق النجوم من الساحة الترابيّة. كان الفريق يتمرَّن في الظهيرة الحامية قبل مباراته القادمة مع فريق لا أعرف اسمه من منطقة الگيارة. وخمَّنَت أنَّ الحزبيين والرفيق داخل يريدون لعب الكرة، ولكن بعد صعود اللاعبين وجلوسهم على السدَّة الترابيّة حانقين ضجرين، جاء الحزبيُّون بعمود وبدؤوا بِدَّقه عند طرف السدَّة. استغرق الأمر طويلاً حتى انتهوا من عملهم الغامض، وتفرَّق لاعبو النجوم، أو ذهبوا خلف السدَّة، يلعبون على السبخات الملحيّة الجافَّة.

عند العصر، أو الغروب، تجمع الأهالي ثانيةً. ظهر الرفيق داخل ببدلته الزيتونيّة وكرشه الصغير، يتقدَّم الرفاق الآخرين عابساً كعادته. بعدها جاءت سيارة إسعاف، ثمَّ سيارة باص نزل منها مدنيُّون يقتادون رجلاً معصوب العينين. أوثقوه على العمود جيداً ثمَّ.. ألخ.. الخ.. الخ.

بعد ذلك بأسبوعين أخرجوا نجم عبد مهاوي من بالوعة بيته الطافحة. كان التفكير بهذا المكان كمخبأ هو الوحي الأخير الذي نزل على أمّه في تلك اللحظة، حين اقتحم الرفيق داخل والآخرون بيت عبد مهاوي من السطح بحثاً عن ابنه الفار من العسكريّة.

دفعت الأمّ المشدوهة غطاء البالوعة بيدها، ثمَّ ألقت ابنها في مخزن الفضلات على عجل. لكنَّها هي أيضاً من كشفت مكان ابنها، بعد أنْ تأخَّر الرفيق داخل كثيراً، وهو يتجوّل في البيت من دون حياء، مقلِّباً كلَّ شيء، ومحقِّقاً مع الجميع. كانت الأمّ تبكي ولا تمنع عينيها من التحديق بفتحة البالوعة المغطَّاة للنصف، كي يتنفَّس نجم كما افترضت. تأخَّر الرفيق داخل تحت وطأة يأسه، وعدم معرفته بالخطوة التالية، ثمَّ ألخ.. الخ.. الخ.

نظف نجم نفسه جيداً داخل الحمام، واستخدم تلك الصوابين والمنظِّفات التي اشتراها لنفسه بإسراف، فلن يستخدمها بعده أحد، ثمَّ ارتدى ملابس جديدة، وبعد أنْ أنهى الرفيق داخل وعصابته شايهم اقتادوا نجم معهم بهدوء، مع وعدٍ لم تطمئن إليه أمّ نجم، بأنَّ ابنها سيكون بخير. هذه الجملة التي نطقها الرفيق داخل منعت أمّ نجم من الصراخ والعِياط. لقد ملَّ من هذه الأصوات، وبدأ القرف ينتابه كلَّما صرخت امرأة تلك الصرخات المزعجة والمرعبة، ولا يتحمَّل الليلة شيئاً من ذلك.

ـ هناك عفو (ربَّما) مع عيد الثورة. اطمئني.

قال الرفيق داخل. ولكنِّي لمْ أرَ نجم عبد مهاوي بعدها، لم يُتح لي أيضاً أنْ أراه عند ذلك العمود المخيف. كنت [فقط] امتطي بايسكلاً صغيراً وأدور على الرصيف، حين سمعت صَلْيَة الرصاص المتلاحقة مع اقتراب المغيب، من هناك، من ملعب فريق النجوم قرب الفرقة الحزبيّة.

* * *

للرفيق داخل بنت لعوب، وأنا الآن أمتطيها وأجعل عضوي النشيط يَعْفُطُ في فرجها، وحين تصيح أقول لها:

ـ أنتم تستحقون ذلك.

ولكن هذه سخافة. إنَّها مخيَّلة ساذجة. حتى لو حدث شيء من هذا القبيل، فهو واقع ساذج ينزلق مثل الزبدة ويختفي.

إنَّه شخص ظريف، الرفيق داخل هذا، يلعب الدومينو في مقهى أبو لازم، ويقلِّد حركات وأصوات الممثِّلين العراقيين، فيثير الضحك، وينشد الشعر الشعبيَّ كأنَّه من تأليفه. لكنَّه يغدو مغموماً ويابس الوجه حين يرتدي بدلة الزيتوني أو بدلة السفاري، ويسلم عليه الجميع بحرارة أو يفرُّون قبل وصوله.

* * *

اقْتَنَعَ حميد بفكرة بنِّيَّة، وبدا ذلك غريباً، فهو يتهمها دائماً بأنَّها (متخلِّفة)، ولكنِّي أنا من شاهد بقعة البول الصغيرة تتسع على بنطاله، وهو يهزُّ وجهه المصْفَر موافقاً على كلام بنِّيَّة.

غلَّف كتاب رأس المال وكتب تروتسكي وبعض الروايات البوليسيّة والرومانسيّة، بقطعة نايلون كبيرة ثمَّ لفَّها بكيس جِنْفَاص وربطه بحبل. ثمَّ ألقى مكعب الكتب الكبير في بالوعة البيت، تاركاً حبلاً من النايلون المضفور يصل بينها وسدّادة بيبسي محشورة في فم البالوعة المطبق بإحكام.

بعد يومين أو ثلاثة اختفت هذه السدّادة السحريّة، ولم يسأل أحد عن ذلك. كانت خُطَّة بنِّيَّة، مرحلة تمهيديّة لفكرة اتلاف الكتب نهائيَّاً. لم تكنْ تعي ذلك، ولكنَّ حميد توصل بهدوء الى اهمال التساؤل عن السدّادة، والكتب التي أفلتت خيط نجاتها الوحيد من كوكتيل الخَرَاء.

لكنَّ الصور الجماعيّة التي أتلفها، ومزَّقها، لم تتمزَّق بين

أيدي الكثير من أصدقائه الظاهرين في هذه الصور. ولأنَّهم اختفوا بين هارب ومختبئ أو مساقٍ الى الأمن العامة، فإنَّ الدور عليه الآن. إنَّها مجرد صور. . نعم، ولكنَّه أمن بلد حبيبي، والشكُّ هالةٌ من هالات اليقين، إنَّه إبن عم أو إبن خالة اليقين، وانتهينا من سالفة اليقين من زمان، أمّا الآن فالأقربون أولى بالمعروف حبيبي. . بي. . بي.

مو هيچ؟. . راجع روايات المعتقلات والسجون رجاءً.

* * *

ماذا يوجد في البالوعة غير ذلك؟!

لقد أمر الريس فجأةً بشقِّ المجاري الصحيّة في طول المدينة وعرضها في العام ١٩٨٢ بعد أنْ سمَّى المدينة باسمه، ورُدِمَتْ لأجل ذلك كلُّ السواقي المكشوفة، التي كانت تخترق الأزقة بالمياه القذرة لتصبَّ في سواقي أكبر تتوازى مع الشارع العام. لن يسقط احد فيها بعد الآن، وسيهبط معدل نمو البعوض بشكل كبير أثناء الصيف، لن يخاف احد ما من انهدام سقف البالوعة تحت قدميه، أو انخسافها بسبب رقص نساء الجيران والأقارب في عرس متطوّع صغير حليق الرأس، تزوَّج من راتبه الكبير في الجيش، أو دَبْكِهِنَّ الجماعيّ في جنازته الملفوفة بالعلم الوطني، بعد ذلك بشهرين.

ردمت جميع البالوعات، ولن يكون هنالك مخبأ اضطراري بعد اليوم لأيِّ شيء، ولن تستطيع أيَّة عائلة بعد الآن الاحتفاظ بخرائها داخل البيت.

* * *

اختارني معلِّم القواعد لقراءة كلمة الخميس لهذا الأسبوع، أنا أذكى طالب في المدرسة، خصوصاً وأنَّ مصطفى محمود الفيلي صار غبيّاً، بعد مقتل أبيه في البسيتين. كان يدرِّسه في البيت قبل أنْ يأخذوه كضابط مجنَّد، قالت ذلك أمّه الكرديّة ذات العينين الخضراوين لمعلِّم القواعد في الصف في اجتماع أولياء الأمور. لذلك أنا الآن أذكى طالب في الصف أو المدرسة، وأصبح مصطفى محمود لا يلعب معنا، ويذهب الى البيت مباشرة بعد انتهاء الدروس.

أما أنا فقد توقفت عن البكاء المتخيَّل على سطح دارنا، أثناء اقتراب مغيب الشمس، حين أسمع نواح مصطفى على أبيه الغائب، لقد مات أخيراً، ولن يعود أبداً. ولأنَّه مجرد أبٌ متخيَّلٌ بالنسبة لي، فلمْ يكنْ لديَّ في تلك اللحظات أيُّ مبرر للاستمرار بمشاركة مصطفى في نحيبه.

فتحت ورقتي المدرسيّة، وتجعدت عيناي من ضوء الصباح المنعكس عليها. لم أفهم شيئاً مما قرأته بصوتي المتحمِّس. كان صوتي يصمُّ أذنيَّ، وأنا أدفع به بقوَّة كي يصل الى آذان الواقفين في نهاية الصفوف. شتمت الخُمَيْني تسع مرَّات، وسمَّيته بالدجال، ثمَّ أضفت من عندي ما قاله المذيع في التلفزيون، فقلت إنَّه عميل الامبرياليّة الصهيونيّة، ثمَّ مدحت الريس ست مرَّات، كي يصفق لي التلاميذ بحرارة لستِ مرَّات طبعاً. صفق الجميع حتى أولئك الذين أتعارك معهم دائماً، صفقوا أيضاً. وأحسست بأنِّي انتصرت عليهم جميعاً.

ولكنَّ نشوتيْ ذابت في الاسبوع اللاحق، حيث تقدَّم مصطفى محمود ليقرأ كلمة في اصطفاف الخميس عن عيد الشهيد. ذكر

اسم الريس خمس مرَّات أو أربع، وصفقنا له مع كلِّ مرَّة، حتى أنا صفقت، كي لا ينهرني معاون المدير الذي يدور في الساحة بين الصفوف بعصاه الطويلة. صفقت لمصطفى بخيبة، اكتشفت في ذلك النهار هذا النوع من التعذيب الذي يمثّله التصفيق.

* * *

هل قلت إنَّ حميد ألقيَ القبض عليه؟ إنَّه محظوظ جداً لأنَّهم أبقوه ثمانية أشهر في الأمن العامة، لقد تحوَّل الى شخص آخر، وكأنَّهم أطعموه طوال هذه المدَّة طعاماً سحريّاً. لماذا رأيته أطول من المعتاد ونحيفاً بشدَّة، كثيف الشعر، يبتسم كثيراً. وحسب روايته أنَّهم تحيَّروا بأمره كثيراً، ولم يعرفوا بالضبط لمن هو عميل، ولكنْ من المؤكد أنَّه عميل. وبعد تغيير مجموعة المحقِّقين لسبب مجهول، نسوا أمره تماماً، ثمَّ انفصل عن المجموعة التي صادفها في غرفة المعتقل في اليوم الأول، ولم يعرف مصيرهم، وأفرج عنه فجأةً من دون سبب مقنع. ألقيَ من سيارة اسعاف عند الخط السريع، فوجد نفسه أمام مِحْنَة جديدة. . الوصول الى البيت بهذه الهيئة المزريَّة وهذه الرائحة من دون نقود.

ولكنَّه وصل، ولا أتذكر كيف، وفي الأيام اللاحقة فَعَلَ الطعامُ السحريُّ فِعْلَهُ مع حميد، لقد تغيَّر تماماً، أو أنَّهم أطلقوا، عن طريق الخطأ، سراح شخص آخر نواجهه الآن للمرَّة الأولى. لقد أصبح مجنوناً كما تقول بنيَّة، وهو أمر تقبلته بتسليم كامل، ولم تعد تبحث عن معنى لسلوكه، وتبعتها في ذلك مطمئناً، ثمَّ بدأت أنظر اليه مثل قديس، يقوم بأشياء عميقة تحتاج منِّي أنْ أكون أذكى من مصطفى محمود كي أفهمها.

* * *

ولكنَّ حميد غبي، أقول ذلك الآن. لم يفعل مثلما فعلت في الـ٩١، حين أمسك بي الحزبيون بدشداشتي السوداء، ولحيتي السوداء، ومسبحتي السوداء، مع زويد العبد [أووف.. كان أسوداً أيضاً مثل يومنا]، كنَّا فرغنا للتوِّ من الهتاف في مظاهرة فريدة، أعقبت أحداث سوق مريدي التي كانت مثل قنبلة نعرف جميعاً أنَّها ستنفجر، بعد انخلاع ثلاثة أرباع المحافظات من يد الريس.

كان سوادنا الحادُّ دليلاً أولياً على جرمنا، ولم ينته النهار إلَّا ونحن موقوفون في فرقة ٨ شباط للحزب. وبدت نهايتي محقَّقة، أكاد ألمسها بيدي، ومن غير المجدي التعلُّق بأهداب النجاة.

لكنَّ زويد العبد ذا الأنف الكبير مثل فلفلة سوداء كان يُخالفني الرأي، وبدا على مشارف البكاء وهو يواجه الجدران الكالحة، وروائح الاجساد لعشرين موقوفاً. ارتحلنا من مكان الى آخر، حتى انتهينا بعد أيام في دائرة الاستخبارات العامة، أمام لجنة تحقيق منوَّعة، من الحزب، والأمن، والمخابرات. وما أنْ وصلنا الى مكاننا الغامض، الذي بدا أنَّه المكان الأخير لنا، حتى باشرت هذه اللجنة التحقيق معنا بالأرجل والأيادي والعصيّ والكراسيّ والطاولات وكلِّ شيء.

كان هناك شخص يشبه جورج أمادو، وأحسست بأنَّه يقود الجميع لأنَّه أكثر من شتمنا.

لم يكن زويد العبد قويَّاً بما يكفي لحضور الأجزاء الأخيرة من التحقيق، فسرعان ما أثخن بالجراح، وانسلخ فيه كلُّ شيء.

سألني جورج أمادو عن جماعتي. كان لا يريد سوى الاعتراف، فهذا أهمُّ منِّي ومن مصيري. قلت له وأنا أشير إليه بإصبعي متحدِّياً:

ـ أنت غير قادر على انتزاع شيء منّي من دون رغبتي.

كان ساكناً وهادئاً وشبه مبتسم، وهو يطوي ذراعيه السمينين على طاولته النظيفة، وبدا أنَّ وحياً إلهياً قد هبط عليه في تلك اللحظة، فاستجاب لحماقتي، سائلاً إيّايَّ بلطافة مصطنعة:

ـ كيف يا أستاذ؟!

حينها لم يكن بدٌّ من إخباره بالحقيقة، فقلت له إنّني الآن لست ذلك الشخص الذي عذبتموه في الـ٩١، إنّني قادم من المستقبل، أنا أسكن في الـ ٢٠٠٤، ولقد جئت الى هنا لغرض في نفسي، ولن تستطيعوا مهما فعلتم أن تقوموا بشيء لا أريده.

بدا الأمر جنونيّاً بالمرَّة، ولا يقلُّ كابوسية عن الأيام الماضية التي عشناها في هذا المكان. كان زويد العبد ينصت الى كلماتي المتلاحقة من مكانه قرب الحائط الذي لوثه بدماء وجهه ويديه، فأضاف لوناً طازجاً للطخات الدماء السوداء المتيبسة على لوحة الحائط التجريديّة، ولم يبدُ أنَّه فهم شيئاً، فشعرت بإشفاق ضعيف لمصيره.

حين انتهيت من خطبتي القصيرة، كانت الحقيقة قد تجمَّدت في عيني جورج امادو. مسح وجهه بيديه، واستند بظهره الى الكرسي، ثمَّ نظر إليَّ بملامح تطرد النعاس بنشاط زائف قائلاً:

ـ إذاً ماذا نفعل يا أستاذ؟

ظلَّ يُطَبْطِبُ بيده السمينة على المنضدة العريضة، وهو ينصت باستغراب. قلت له إنَّ موتي غير مجدٍ الآن، لأنَّ أجزاء أخرى من حكايتي تطلبني في الـ ٢٠٠٤.

ـ شلل مؤقت في الأطراف السفلى.. هل ينفع؟!

باغتني بمقترحه، فوجدتها فكرة مناسبة، ولم يمهلني وقتاً كافياً حتى عاجلني بسؤالٍ ثانٍ، وهو يشير برأسه الى زويد العبد:

ـ وهذا !؟

سكنت عيناي بنظرة طويلة الى الوجه اللحمي المحمرِّ لجورج امادو، وعبثاً منعت ما كان يدور في رأسي، لكنّي مع ذلك لَمْ أَقْوَ على نطق حرف واحد، وفهم امادو الخبير بهذه المواقف كلَّ شيء.

لم يشهد زويد العبد نهاية التحقيق معي، ولم تتح له فرصة لمعرفة أيِّ شيء آخر. في الحقيقة لم أقم بهذه الرحلة الشاقَّة من أجله، ولست إلهاً لأغيِّر المصائر.

نقلت الى مستشفى الكندي مصاباً بتمزُّق في الحبل الشوكي، وكان ذلك أهون لديَّ من رذاذ الأنانيّة الخفيف الذي تناثر على كلامي في (الأمن العامة).

* * *

اختفى مصطفى الفيلي في بيته قبل انتهاء عاصفة الصحراء، ولم يخرج أو يره أحد خلال سماعنا لاخبار انتفاضة الجنوب والشمال، ومغامرة سوق مريدي وما بعدها. كان طالباً في كلية الصيدلة، بينما كنت أدرس في سنتي الأخيرة من الإعدادية، ولم انشغل باختفائه كثيراً، لولا أنَّه ظهر فجأةً في مساءٍ صيفيٍّ من منتصف هذا العام. دخل عليَّ غير عابئ باحتمالية كوني مراقباً، وتحدَّث معي حول حالتي الصحيّة، ثمَّ تكرَّرت زياراته لي كلَّ مساء بانتظام. وفي زيارته الأخيرة ترك الحديث عن عمودي الفقري وساقيَّ الذابلتين، وتحدَّث معي عن الشيطان، وكأنَّه كان

ينصت خفيةً لكلِّ هذياناتي الليلية. قال إنَّه دخل في قلق كبير، منذ أول زيارة، لم يكن يرغب بإخافتي، ولكنَّه يشاهد الشيطان دائماً عند قدمي، يمسِّدهما بأيدٍ سوداء غليظة.

نظر إليَّ نظرة غريبة، ثمَّ قال:

ـ إنَّ روحك قويّة، وضريبة ذلك باهظة.

طبعاً صدقت كلام مصطفى، وتجاهلت قدمي الذابلتين، ورائحة البول التي تُلازمني، وشعري المشعث الذي لم يَرَ حَلَّاقاً منذ أشهر.

ظلَّت كلماته تتناسل في رأسي مثل بكتريا غريبة، لم أقاوم الشعور بالراحة المزيَّفة، وتركتها تفعل فعلها، لكنَّ السؤال المهمَّ ظلَّ من دون إجابة، هل كان مصطفى مبعوثاً من الله أم من الشيطان؟

***

ولكنَّ كلَّ ذلك قد لا يكون أمراً حصل حقّاً. كنت [فقط] أرقد في جوف التنُّور الطينيِّ لبنِّيَّة، مغطَّى بالكُرَبِ والسَّعَفِ اليابس. وحين داهم الحزبيُّون بيوت المنطقة بحثاً عن الشباب الصغار ذوي اللحى السوداء الداكنة، وقفت بنِّيَّة أمام التنُّور بشَخَّاطَتها وكأنَّها تنوي فعلاً سَجْرَ التنُّور، استعداداً للخبز.

نزل الرفيق داخل مع زملائه ذوي البدلات الزيتوني من سطحنا، قادمين من الأسطح المجاورة. تجولوا في أرجاء البيت ودخلوا كلَّ الغرف. أخرجوا التُّرَبَ والمسابح وقدموها للرفيق داخل كأدلة جرميّة، ثمَّ دخلوا المطبخ، وتأخَّر أحدهم في

المراحيض طويلاً، وظلَّ الرفيق داخل ينتظر نافد الصبر ليعرف ما الذي تمَّ العثور عليه هناك، الى أنْ سمع ضَرَطَات الرفيق القصيرة والمتباعدة، فأشاح بوجهه مشمئزاً. وما كان من بنِّيَّة في تلك اللحظة إلَّا أنْ ألقت النفط الأسود على السعفات اليابسة الظاهرة من فوهة التنُّور، ثمَّ ألقت عودها المشتعل، لتقطع دابر الشكوك بهذا المخبأ المحتمل.

سمعت صوت تقصف النيران وهي تتحرَّك على الحطب اليابس، ولكنَّها مازالت بعيدة عن جسدي المدثر جيداً بأغطية لم أتأملها، ألقتها بنيَّة فوقي كيفما اتفق.

تشاغلت بنِّيَّة بدعك العجين في الإنجانة، وتكوير قطعه السمراء، ثمَّ صفها في صينيَّة مجاورة للتنُّور. انشغلت بعملها متجاهلةً الجميع.

في السياقات المعتادة، هذا السلوك الغريب يكفي لإثارة الشكوك، ولكنَّ الرفيق داخل لم يكن يبحث عنِّي بالذات. كان يبحث عن كلِّ شابٍ ملتحٍ بلحيةٍ داكنة في قطاع ٣٨. كان الهدف متعدداً وواسعاً، ولم يصطد شيئاً حتى تلك اللحظة من نهاره الساخن، والوقت المتبقي لا يكفي للاستغراق ببحثٍ مجهريٍّ عن عدوٍّ خفيٍّ، ربَّما يكون ظاهراً في البيوت المجاورة.

* * *

غدا حميد أَشْهَرَ سكِّير في المنطقة. وكثيراً ما تعارك مع الحُرَّاس الذين يجوبون الشوارع والأزقة في الليل، مطلقين صافراتهم المزعجة بوجه الأشباح. غدا عدوانيَّاً، ولا يحتمل شيئاً، وأولئك الحراس الذين يعرفونه ويعرفون زميلهم القديم

يارالله، كانوا يقتادونه، متحملين شتائمه المنوَّعة، ويطرقون الباب كي يسلمونه ليارالله المريض أو بنِّيَّة، مثل مذنب يُودع في زنزانته.

وأنا غدوت أكثر قنوطاً وصمتاً، فلا الملائكة ولا الشياطين كانوا يعبؤون بي. ليس هناك سوى بنِّيَّة، ولم أكن مؤهَّلاً لوضعها في أيٍّ من الخانتين، لأنِّي أعرف تذمرها من خدمة هذا الكسيح الذي هو أنا. وكان حميد يتحدَّث معي في أوقات سكره، من دون أنْ ينتظر منِّي مشاركته في الحوار، ومن دون أنْ يعبأ لإنصاتي من عدمه. كان يثرثر مثل جهاز يشتغل فجأةً. يهدر لدقائق تطول أو تقصر، ثمَّ يصمت في لحظة لا يمكن تخمينها، وينهض مغادراً الى غرفته التي غدت في ما بعد غرفتي.

ذات مساء، كنت أقرأ في كتاب سميك ممدَّداً في فراشي كالعادة، حين طُرِقَ الباب، وسَلَّمَ رجال أغراب حميد الى بنِّيَّة، مع رجاءٍ جاء بنبرة تهديد أنْ يكفَّ حميد عن ازعاج الناس. كانت الدماء تلوّث فمه وأنفه، وقميصه المخرَّق كساه قيءٌ كثير. كان في وضع سيءٍ تماماً.

وما حدث في تلك الليلة بدا كأنَّه فاتحةٌ لكابوس سيتكرَّر في الليالي التالية. الرجال الأغراب أنفسهم، منظر حميد، وكلمات التهديد والوعيد نفسها، لم يتزحزح شيءٌ من ذلك عن هذه النقطة. وحين نهضت من فراشي في ما بعد شهدت تفاصيل الحكاية الغامضة، التي كان حميد معها يصل الى ذروة التصعيد، إنَّه يقترب من النهاية، فإمَّا أنْ تكون مؤبَّدة، وإمَّا أنْ تنبثق بداية جديدة.

وهذا ما حصل. توقف حميد فجأةً عن العمل مع مهرِّبي الفافون الى كردستان وايران. هذا العمل الذي قاده الى علاقات غريبة وشائكة مع اشخاص عديدين، ونظَّم من خلاله علاقته مع

رجال الحزب، الذين استفادوا كثيراً من الرشاوى التي ينفحها لهم بين حين وآخر، لقاء صمتهم، والكفِّ عن ملاحقته. وجمع من عمله هذا مالاً كثيراً، راح أغلبه الى الجيب الطويل في الدشداشة السوداء لبنِّيَّة، وأخرج بالباقي جواز سفر ظلَّ يهدد به بنِّيَّة ويارالله بين حين وآخر كي يتركوه وشأنه.

توقف عن العمل، وظلَّ يعود في ليالٍ كثيرة من دون سكر أو مشاكل، ثمَّ وبلا عاطفة كبيرة وبوجه ارتداه للمرَّة الأولى أعلن نيَّته بالسفر فعلاً. لم يصدِّق أحد طبعاً كلامه، لأنَّه يُعلن عن أشياءَ كثيرة ثمَّ لا ينفِّذها، ولكنَّه سافر حقَّاً بحقيبة رياضيّة صغيرة، وكأنَّه ذاهب الى الموصل أو البصرة. لم يبدُ بانفعال ملائم لرجل يهاجر، حتى تحيته لي وليارالله وبنِّيَّة، بدت تحية عابرة، غير مشبعة بمعنى النهاية والقطع مع حياة طويلة عريضة، واستقبلت أنا الأمر بإحساس مشابه، افترضت أنَّه سيعود غداً، أو أنَّه سيطرق الباب ليلاً كعادته بعنف مفزع، فتنهض بنِّيَّة من نومها وهي تُجَدِّفُ وتشتمُ المقدَّسات، وتبحث في الظلام عن نعلها البلاستيكيّ الأسود لتلبسه، ثم تفتح الباب لهذا (المسودن) كما تقول، قبل أنْ يُوقِظَ الجيران كلَّهم.

رفعت يدي، وباص شركة السفريّات الطويل ينحرف خارجاً من گراج العلاوي في يوم من صيف التسعينيّات الأولى. رفعت يدي ردَّاً على يده المرفوعة والثابتة وراء زجاج النافذة الكبيرة للحافلة. كان لا يفصل التحيتين واليدين لكي يكونا شيئاً واحداً غير هذا الزجاج. كنت أودع حياتي أيضاً.

في تلك الليلة، وفي الوقت الذي كان حميد فيه يبحث عن فندق مناسب وسط عمّان، طرق علينا الباب بضربات وقورة

منتظمة. رفعت بنيَّة رأسها قاطعةً ونستَها أمام التلفزيون، وتجاهلت أنا الأمر مُنْدَّساً في فراشي، وكأنِّي ما زلت مشلولاً. وبعد تكرار الطرقات نهضت بنِّيَّة مجدفةً كعادتها، شاتمةً هذا المسودن إبن المسودن [والذي كان يبحث في تلك اللحظة عن فندق مناسب وسط عمّان]، اجتازت المجاز تَشْخَطُ بنعلها البلاستيكيّ، وكأنَّها تكرِّر أمراً من تلك الأيام الخوالي، فيظهر لها حميد ثانيةً بوجهه المدمَّى وملابسه الملطَّخة بقيءِ الخَمْرَة. غير أنَّها حين فتحت الباب شاهدت نبيل.

نبيل الذي كان اسمه (زغير) وأبدله قبل عشر سنوات الى اسم رشيق أنيق يلائم حاجته النفسيّة لكبح المساوئ المتراكمة لاسمه السابق.

ـ ها يمة زغير.. شلونك؟

خاطبته بنيَّة، معلنةً أنَّها تتذكَّر وجهه، قبل أنْ تدعوه للدخول.
وحين ظهر بقامته الفارعة ووجهه الأبيض أمام باب الغرفة، لم أعرف لماذا لم أنهض له، وتظاهرت بالمرض، وشرحت بنِّيَّة، ساهية، أو متواطئة معي، كيف أُصبتُ بالشلل. لكنَّ نبيل لم يكن مهتمَّاً لمواصلة الشرح، وقاطع بنيَّة فجأةً قبل أنْ يرشفَ من استكان الشاي. كان مرتبكاً وهو يشرح لها كيف أنَّ حكاية كريمة وحميد أصبحت على كل لسان في المدينة. وهو يريد منها أنْ تخبر حميد بذلك، لأنَّه بعد الصحو من سكره سيكون الأمر معه كلاماً بين عشيرتين، ولن تشفع جيرتهما الوثيقة السابقة، أيام الشاكْريَّة، ولا مَعَزَّة ابو حميد في هذا الأمر. بل إنَّ أبا حميد هو السبب في هذه المشكلة، حين حافظ على علاقاته مع جيرانه السابقين في الشاكْريَّة المنْدَثِرة، وظلَّ يزورهم في قطاع (٥٥) في حي الأكراد بين حين

وآخر، ويصطحب معه حميد أحياناً، ومن هنا بدأت المصيبة، حين شاهد حميد كريمة.

لكنَّ هذه الحكاية قديمة، ومضى عليها عشر سنوات تقريباً. إنَّها من الزمن الذي كان يُكَنَّى فيه ابو كريمة بـ(أبو زغير) وليس (أبو نبيل)، فما الذي استجدَّ الآن؟

ظلَّت بنِّيَّة واجمةً تقبض بيدها المعروقة ذات الوشوم على فمها، وكأنَّه يطلق رائحة قبيحة، منصتةً لكلام نبيل الذي ما زالت تسمِّيه زغير، وتركته يثرثر من دون أنْ تُقاطعه، وأنا وحدي كنت أعلم أنَّ هيأتها المتفهِّمة كانت تُخفي تشوّشاً كبيراً، ورغبةً تائهةً لإنهاء هذه الزيارة بطريقة مناسبة.

مع ذلك، ربَّما فهمت، مثلما فهمت أنا لماذا كان حميد يأتي مضرَّجاً بالدماء والقيء. كان قد ارْتَكَسَ بشكل غريب الى لحظات ماتت في الذاكرة، الى تلك الأوقات التي كان فيها جنديَّاً بين الحياة والموت مطلع الثمانينيّات، حين تصعَّدتْ عاطفته تجاه كريمة، التي كان ينطق اسمها بتسكين الكاف وكأنَّه يقول (إكريما)، لانّها بنظره كانت قطعة من (الكريما) وتشبه قيمر العرب. ظلَّ يُطَبْطِبُ كثيراً على راتبه الكبير كنائب عريف في مقاومة الطائرات، لكنَّ يارالله لم يُقَدِّرِ الأمر جيداً.

طلب منه خطبة (إكريما) لكنَّ الأمر لم يحصل أبداً لأسباب متناقضة، لا يستطيع أحد الآن البَتَّ فيها، ومعرفة السبب الحقيقي.

كانت عائلة أبو نبيل أو زغير من الكرد الفيليَّة، وقال يارالله لحميد أكثر من مرَّة بأنَّ الريس سيرحِّلهم من العراق عاجلاً أم آجلاً.

ولكنْ، أيُّ كرديٍّ فيليٍّ هذا الذي يُسمِّي ابنه زغير ويتكلَّم الچا والچيف! إنَّه بالأحرى رفض تزويج ابنته من جندي سيموت في يوم ما ويترك ابنته أرملة. وهذه نكتة طبعاً، فالملائكة والشياطين والمصريون وحدهم من كانوا معفوين من التجنيد الإجباري في العراق.

في تلك الأوقات، أيُّ سببٍ سخيف هذا، وربَّما كان السبب الحقيقيّ هو رغبة الأم بتزويج ابنتها لـ(دكتور أو مهندس) وإقفال ذهنها الخرف على هذين الخَيَارين. وربَّما كان للخمرة التي يعشقها حميد أكثر من نفسه دورٌ في تلك التراجيديا، لأنَّ عائلة أبو نبيل معروفة بتديُّنها، وفقدت أحد أبنائها بسبب هذا التديُّن.

ولكنَّ الفرضية المنطقيّة تقول إنَّه (بدأ) يشرب الخمرة ويُدمنُ عليها بعد فقدانه لكريمة، وليس قبل ذلك. وأنا شخصيَّاً وضعت تفسيراً جاهزاً ومسلْفَنَاً من عندي الى كلٍّ ما سبق: البنت مخطوبة لابن عمها، هكذا تنتهي عادةً ثلاثة أرباع المغامرات العاطفيّة في مدينتنا.

تزوَّجت (إكريما) الجميلة إذنْ، وسَكَرَ حميد ليلتها شارباً نهر دجلة من الخمور، شَفَطَ مثل سيارة حوضيَّة وسط شارع فاض بمياه المجاري أشْرِبَةً متنوِّعة لم يُحْصِ كميتها أحد. ودخل بعمق في عالم آخر لفترة طويلة، وكره يارالله وبنِّيَّة حتى الموت من وقتها، لذا لَم ينطق أمامهما بعد ذلك بشيء عن كريمة أو غيرها.

ـ إنَّه يدخل الزقاق سكراناً، والناس مازالت في الشارع، يجلس عند الحائط المقابل لباب بيتنا، ثمَّ يُشْرِعُ بالبكاء، والمُنَاداة بأعلى صوته: إكريما.. إكريما.. يا إكريما. وظلَّ الشباب المراهقون في المنطقة يسمُّونه ساخرين ببائع القيمر. لقد فضحنا،

والمرأة عند زوجها وأولادها في مكان آخر منذ زمن طويل.

قال نبيل ذلك بصوت مرتجف، فردَّت عليه بنِّيَّة بلكنة واهنة، رافعةً يدها عن فمها:

ـ يمه زغير.. حميد مسافر.. راح لعمان يمه.

لكنَّ نبيل فهم الأمر بشكل مغلوط، وأنهى زيارته مخاطباً بنِّيَّة عند باب الحوش:

ـ مسافر.. غير مسافر.. قولوا ما شئتم، ولكن نحن أيضاً لدينا عشائر، وفي المرّة المقبلة، سآخذه بيدي الى الشرطة، وبعدها نترك الرجال الكبار يتفاهمون.

عادت بنِّيَّة الى وسنتِهَا امام التلفزيون، مضطجعةً بهيكلها الضئيل على عباءتها الملفوفة، ولم تعلِّق على زيارة نبيل. وشعرت أنا بحاجة للذهاب الى المرحاض.

لَفَحَنِي الهواء الساخن في الحوش، ثمَّ رائحة الخراء البائت في المرحاض. جلست طويلاً من دون أنْ أفعل شيئاً، ثمَّ انخرطت في بكاءٍ شديد. كنت أرغب بالصراخ في ذلك الليل:

ـ إكريما.. إكريما.. يا إكريما.

* * *

مع اليد الملوّحة كانت الصورة مقلوبة هذه المرّة. أنا هنا خلف الزجاج المظلَّل لحافلة السفريّات الطويلة. وهو هناك على الرصيف بجوار بنِّيَّة ويارالله، وهم يلوِّحون لي مرغمين، فهذا ما عليهم أنْ يفعلوه في مناسبة كهذه، وهم أضعف من أنْ يبتكروا شيئاً جديداً.

أنظر الى حميد وتلويحته المخذولة، ربَّما كان يفكِّر بما كنت

أفكِّر به سابقاً، في النسخة الأصليّة من هذا المشهد. يفكِّر بالتلويحتين واليدين اللتين منعهما الزجاج المظلَّل من أنْ تكونا شيئاً واحداً.

كنت أنظر الى قدمه المعْطُوبة، التي داست على لَغَم أرضي في العراء المواجه لِمَنْدِلِي العام ١٩٨٦، وأعرف أنَّ هذه القدم موجودة هناك خلف الكفّ الصناعيّ الذي يتوازن في وقوفه عليه بالكاد. كان قد زرع حقل الألغام هذا مع رفاقه قبل شهرين، مع الرياح الباردة الأولى لتلك السنة المشؤومة، وبعد الأمطار الغزيرة، لأخريات الخريف، قيل له أنَّ الحقل الذي علَّموه بعلائم معينة قد زحف وارتحل الى مكان آخر.

هذا المكان الآخر هو ما اكتشفه فيما بعد، حين أطاح به واحد من الألغام الخفيّة، وقطع كفَّ ساقه اليسرى. ولكنَّ هذه الحكاية تشبه كثيراً حكاية القذائف المرْسَلَة الى السماء الاسفنجية، والتي تعود الى مرسلها مباشرةً.

بسبب ذلك قُطِعَتْ ساقه من وسط الفخذ. فهذا أمرٌ جديدٌ تماماً. كلُّ ذلك حصل في الثواني الوجيزة التي سبقت تحرُّك الحافلة الطويلة من گراج العلاوي.

كان حميد يحمل جهاز المخابرة مرتقياً مع رفاقه جبل مَاوْت للمرَّة الألف ربَّما، حين سقطت قنبلة مدفعيّة على مسافة من أعلى الجبل، ولم يكنْ هذا أمراً حسناً، لأنَّ هذه القنبلة التي لم تؤذِ بشظاياها أحداً أرسلتْ الى حميد قطعة كبيرة من الصخر ضربت فخذه الأيسر، وألقته مع ساقه المعلَّقة في جيب غائر على كتف الجبل.

حين استيقظ في مستشفى السليمانيّة العسكري، شاهد ياراالله

بكوفيَّته وعُقَاله يُحدِّق بوجهه مغموماً، ولم يترك يارالله ابنه يَرْمِشُ بعينيه كثيراً، حتى عاجله بعتاب قاسٍ لا يُلائم هذا الموقف بالمرَّة:

ـ مو گلتلك اتزوج. . هسه منو ترضه بيك وانت هيچ؟؟

تَفَهَّمَ حميد عتاب والده المكرَّر، لكنَّه لم يفهم الجزء الثاني من جملته الحانقة، إلَّا في وقت متأخِّر، حين استطاع النظر الى ساقيه الممدودتين على السرير الأبيض. وتلبسته الصدمة، وهو يرى ساقه اليمنى تضطجع وحيدة ومهملة، وغير قادرة على الحِراك إلَّا بصعوبة. حزن كثيراً على هذه الساق، لأنَّه لم يكنْ مؤهلاً بعدُ للحزن والصراخ على ساقه الأخرى، الموجودة في مكان ما، هناك، عند سفح جبل ماوت الشاهق.

بعد مدَّة تخلَّى عن ساقه الصناعيّة، التي بدت مثل عدوٍّ ملَّ من التعايش معه. لفظَها، وكأنَّها هي من طردت ساقه اللحميّة الحيَّة. تخلص منها واستعاض عنها بالعكازتين.

في تلك الأجواء العصيبة زاره معزُّون مهنئون كثيرون، فهو يستحق الأمرين معاً. لقد فقد جزءاً من جسده الى الأبد، وأفلت من هذه الحرب المجنونة وما بعدها من الحروب الى الأبد أيضاً. ولكنْ لو دخل أحد من زوَّاره في رأسه، لوجد شيئاً آخر غير كلمات التسليم والرضا. سيفاجأ بانشغاله على مدى أوقات استلقائه المديدة بمصير الساق المفقودة، وبالأحلام التي لا يشعر بغرابتها وعدم إحتوائها على منطق، وكأنَّها - هذه الأحلام - مجرد انعكاس لانسراح ذهنه المضطرب. كان هادئاً وراضياً، لأنَّ هناك من يخبره في ظلمات رأسه المنهك بأنَّ هذه الساق ستعود يوماً، وأنَّ الشيء غير الحقيقي الذي يسيطر على حياته، سينهار في لحظة ما ليعود كلُّ شيء الى سابق عهده. ستعود الساق الى

موضعها. إنَّه يصدق ذلك ولا يشغل باله كثيراً بكيفيّة عودتها. فإمّا ذلك أو سيعود للموت الذي لامس حدوده سابقاً، فهو أفضل من هذا الانْثِلام الميؤوس من شفائه في الروح والجسد.

لقد كشف عن شيء من هذه الهواجس بشكل مختزل أمام زميل دراسته القديم چاسب مشخوط، وهي حماقة لا تغتفر، فما الذي يفهمه چاسب من هذه الهلوسات. إنَّها أوضحت له - لا أكثر- كم هي سيئة حالة حميد، وأتاحت له أنْ يبدو أكبر من حميد و أكثر حكمة، وهذا موقف كانت أعماق چاسب تحتفظ بصورة حلميّة عن تحقُّقه في يوم ما. وچاسب هذا لا يدري الآن، ويستولي عليه إحساس بالحزن والقرف والندم، لكنَّ أعماقه جَذْلَى. لقد تفوق على حميد أخيراً.

قال له بنبرة حكيمة:

ـ أنت أفضل الآن من ذلك الجندي الذي ينتظر الموت في كلِّ ليلة، وكلِّ وقت. لقد انتهت معركتك، وستغدو ثريَّاً بعد الإكراميات التي سيمنحها لك الريس. أنت أفضل من أبو سلمان الطويل الذي تحوَّل الى (يلگ) من دون أذرع أو سيقان. لقد تركت أنت ساقك اليُمنى فقط ثمَّ عدَّت بأكثريّة أعضاء جسدك، وهذا أفضل من عودة ساقك وتركك هناك. ولكنْ ماذا يفعل أبو سلمان الطويل المسكين، بعد تركه في الأرض الحَرَام لركائز ممارسة واجبه الزوجي. لقد تحرَّرَ من إجهاد الممارسة الجنسيّة، نعم، وترك هذه المهمّة لزوجته التي لا تشبع، والتي تحمد الله كلَّ ليلة في سرها، أنَّ الحرب أبقت، على أيَّة حال، على قضيب ابو سلمان الطويل.

* * *

إنَّ هذه الكلمات تمثِّل صوت الأعماق الداكنة لچاسب مشخوط، فهو غير قادر على نطقها أبداً. أنا أعرف ذلك، ولهذا انشغل ومنذ أيام دراسته بكتابة رسائل التعارُف، الى أصدقاء في المغرب وتونس والخليج واليمن ولبنان. كتعويض عن ضعف القدرة على الكلام لديه. كان يواظب على هذه الهواية كواجب مقدَّس، ويوقع رسائله دائماً باسم: فؤاد زكي. وحين طلبت منه صديقة تونسيّة صورة شخصيّة دخل في محنة طويلة، لأنَّه خَشِيَ أنْ تضحك من خلقته الزَّفْرَة كما يقول. لذلك أرسل لها صورة عباس التركماني بعينيه الخضراوين الواسعتين والشعر الأشقر. وتمنَّى من الله ألَّا تطالبه بعد حين بصور أخرى في أوضاع متحرٌكة، أمام نصب الحرية أو في حديقة الزوراء، أو سينمات شارع السعدون، لأنَّه لن يكون قادراً على طلب صور كهذه من عباس التركماني، ولن يستطيع أمامه أنْ يكشف سِرَّ أخذهِ لصورته الأولى.

ظلَّ يواظب على مراسلة العناوين التي يجدها لهواة المراسلة في مجلَّتي التضامن وكل العرب، ويتسلَّم بين حين وآخر جواباً من بعضهم، ثمَّ ركَّز مراسلاته في ما بعد على النساء والفتيات، ويوقع كلَّ هذه الرسائل باسم: فؤاد زكي. فإذ لم يحضَ بهذا الاسم في هوية الأحوال المدنيّة فما زال لديه أناس في هذا الكوكب لا يعرفون له اسماً غير فؤاد زكي، هذا الاسم الذي كان يرغب به بعمق، رغم أنَّه لم يعلن لابيه غير نصف الأُمْنِيَة. كان عازماً على تغيير اسمه ذات يوم من چاسب الى فؤاد، ولكنَّه لم يتجرأ على إخبار مشخوط بأنَّه يريد تغيير اسمه أيضاً الى زكي.

ورفض مشخوط أيَّ تغيير في الاسمين رفضاً قاطعاً، وحين شاهد إصرار ابنه، انفجرَ بوجهه غاضباً، فما الذي سيقوله أبناء

عشيرته هنا في هذه المدينة، وهناك في العِمارة، وهم يعرفونه بـ(أبو چاسب)، وأيَّ تخنُّث هذا حين يصبح لقبه (أبو فؤاد)، ثمَّ ما الضير في چاسب؟ أليس كلُّ انسان شريف هو كاسب على باب الله:

ـ شحال لو اسمك گطافة، شلتاغ، زبون، عوير، سوادي، خنيفر..

بهذه الكلمات أنهى الأب مشخوط مشروع ابنه چاسب. ومن حسن حظِّه أنَّه لم يكنْ يعرف بنبأ زغير الذي تحوَّل الى نبيل.

***

تدخل بي حافلة السفريّات الطويلة الى الحدود الأردنية، وأرى صورة كبيرة للملك الحُسين أمام نقطة التفتيش وتأشير الجوازات، ولا أجد في نفسي أيَّ أثر لتلك الأيام البعيدة. إنَّني أتخلَّص من أيامي القريبة فحسب. أتذكَّر بالكاد حميد وهو يخطو بعكازتيه وكأنَّه يؤدي رقصة غريبة، أو تمريناً رياضيّاً. وكأنَّ ساقه المختفية مطوية الى الخلف مثل معاقي الأفلام السينمائيّة. أتذكَّر چنبر العطور الزيتيّة الذي يجلس وراءه كل عصر وسط سوق مريدي المزدحم، وعلاقاته الواسعة مع اناس يحترمونه بزيادة طفيفة، لا لشيءٍ إلَّا لكونه مُعَاقاً. وأنا وحدي من يعرف أنَّ حميد كسب بساقه المفقودة شيئاً أهمَّ من الأشياء الأخرى جميعاً. لقد دخل في حكاية هي أهمُّ منه بكثير، غدا ـ بسبب ساقه المقطوعة ـ برغيّاً مناسباً في آلة الحكاية الكبيرة. حدث ذلك في السنة الأولى لعوقه، في ردهات مستشفى الرشيد العسكري. كان رأسه يزدحم في تلك الفترة أثناء النوم بصور لشوارع وأزقة غريبة يتجوَّل فيها وكأنَّه يسبح

على الأرض بخطوات ناعمة. كانت أماكن بالغة الهدوء، وذات كثافة حميمة، يجلّلها ضوء متناثر المساقط، لا يعرف من أين يبزغ، يضاعف من هدوء وسكينة هذه الشوارع والازقة الغريبة. وكان يخطو خطواته الناعمة تلك بساقه اليمنى دائماً، بساقه التي فقدها.

ولا يتذكّر دائماً الوضع الذي تبدو فيه ساقه السليمة داخل الحلم. وكان المشهد بأجمعه يبعث في نفسه الارتياح والقلق معاً، بما يشكِّلُ مزيجاً غامضاً هيمنَ بالتدريج على نظرته خلال النهار، وبالتحديد في تلك الأوقات التي يفقد فيها الاهتمام بما يجري حوله.

هناك، في احدى ردهات مستشفى الرشيد العسكري، تعرف على حمدان. كان ذلك لقاءهما الوحيد، فعبثاً حاول العثور عليه في ما بعد. جلس بجواره على أحد الكراسي البلاستيكيّة المصفوفة على حائط ممرٍّ طويل، وطوى رُدْنَ بنطلونه الأسود تحت (نصف) فخذه. وظلّ يرمق الساعة بين حين وآخر.

كان قد انتبه وهو يتقدَّم في الممرّ بعكازتيه الى نظرات هذا الشاب شديد السُّمْرَة، والذي يرتدي دشداشة بيضاء بأزرار مفتوحة. لم يعرف مغزى هذه النظرة التي ملأت حدقتيه الواسعتين، ولكنَّه تعود على فضول العيون، فمنظره شاذٌّ، وهو جسديّاً أقل من رجل، مهما حاول تجاهل ذلك.

ورغم امتلاء هذا المستشفى العسكري في تلك الأوقات بالرجال المُبتَّرِين في مناطق قطع مختلفة، إلّا أنَّ ما أثار فضول هذا الشاب انتقلت عدواه الى حميد بعد دقائق معدودة، حين انتبه الى القدم المقطوعة لحمدان من منتصف الفخذ (مثله تماماً) ولكنْ، في الساق اليسرى.

وسرعان ما انفتح الكلام بينهما مثل جنديين مجازين إلتقيا في كرسيين متجاورين في حافلة تغذُ بهما بعيداً عن جبهات القتال. لقد جاء حمدان من الرمادي لزيارة قريب له جُلِبَ مجروحاً من شرق العمارة.

حمدان يتعامل مع نفسه وكأنَّه مازال بقدمين اثنتين، ومازال يحافظ لهذا السبب على نشاطه الزائد كرجل ذي أُصول ريفيَّة، الحركة والتنقُل، وزيارة الأقارب مهما كانوا متفرِّقين وبعيدين جزءٌ من رجولته، مثلما القعود جزءٌ من طبيعة النساء. وهذا أمر يختلف كثيراً لدى حميد، الذي يرى القعود والجلوس فرصة التصالُح الوحيدة مع الأشخاص سليمي الجسد، فهو معهم، في وضع الجلوس، لا يحتاج لساقه المبتورة كي يكون مماثلاً لهم، أمَّا القيام والحركة فهو الانفضاح الأكبر.

وكما يجري في مثل هذه المواقف، فإنَّ الحديث ينتهي دائماً الى ذكريات اللحظات العصيبة، الى التفاصيل المرَّة التي فرقت بين الساق وصاحبها. كان الأمر لدى حمدان شظيَّة صاروخ أرض ـ أرض، أمّا لدى حميد فهو احتجاج الجبل والطبيعة على تخريب الإنسان وتدميره، وقد تسلَّم حميد وحده هذا الاحتجاج بصخرة ثقيلة صَلْدَة.

ثمَّ وكأنَّه وجد الشخص المناسب لتفهم هواجسه، أخبر حميد حمدان بكوابيسه الغريبة، تجوله في تلك الأزقة والشوارع التي تشعره بالأمان الغامض، خطواته المنزلقة من دون احتكاك على أرض هذا المكان السحريّ ضاغطاً بكلِّ ثقله على ساقه اليمنى المفقودة. الأُلفة الدافئة مع قدم عضليّة عادت اليها دماؤه الفائرة أخيراً.

ـ الى اين ينتهي الحُلُم عادةً؟

سأل حمدان. فضغط حميد على جبهته محفِّزاً تلك الأعماق الغائرة في ذاكرة الليل كي يعرف صورة النهاية التي تسبق اليقظة. شعر بارتباك وهو يقطع لحظات الصمت ببعض الجمل القصيرة ثمَّ يتوقف، واستعاد الذكرى المشوَّشة للمشاهد الختاميّة؛ جدران من الطابوق مطليَّة بالطين. نخلٌ كثيرٌ. مياه. أرضيَّة مكسوَّة بالخراسانة. امرأة، امرأتان، كذا كذا كذا.

ـ إنَّه بيتنا في الرمادي.

قال حمدان بنبرة واثقة، ثمَّ أوقد سيجارة سومر طويلة، متجاهلاً يافطة التحذير البلاستيكيّة فوق رأسه الداعية للامتناع عن التدخين، وحالما زفر أول نفس من دخان سيجارته أكمل:

ـ وهذه المرأة هي أمي وتلك زوجتي، وهذه النخلة الشائخة مازالت موجودة قرب سياج البيت.

تحدَّث حمدان عن أشياء مشابهة لتلك التي رواها حميد. تفاصيل حُلُميَّة ترافقه ككابوس منذ تلك الليلة المشؤومة التي صَحَا فيها على فقدان ساقه اليمنى. في هذا الكابوس هو يسير أيضاً بساقه المعْطُوبة، ويدخل أزقة وشوارع حُلُميَّة لم يَرَها سابقاً، و الخ الخ الخ.

انتهى حمدان للدخول (في حلمه) الى بيت بنِّيَّة وياراللله و(انا!) ورؤية التنُّور الطينيّ ذي الشبح الدخانيّ الأسود على حائط الجيران غير المَلْبُوخ. دَرَجُنَا الملْتَوي وسعفات نخلة الجيران التي نَتَفْتُ أنا خُضْرَتها النافرة في الحوش.

ـ إنَّ قدمينا تسيران معاً، هناك، في الحلم.. إذنْ؟!

قال حمدان أو حميد ذلك، قبل أنْ يقطع استرسالهما نداء من

أحد الأطباء، لينتهي بذلك الحدث الأغرب في حياتيهما معاً. لقد تنازلا عن قدميهما إذنْ من أجل أنْ يسير ذلك الرجل الحلمي، حسب رواية حميد. وهذا ما لا أثق به. من المؤكد أنَّ حمدان طالب دكتوراه في علم النفس الحربي، وفقد ساقه أثناء جولة ميدانيّة على الحِجَابَات، أجْبَرَتْهُ رئاسة الكليَّة التي يدرس فيها على القيام بها مع غيره من الزملاء حديثي التَّخَرُّج. وهو يقدِّم الآن بهذا اللقاء غير المخطَّط له داخل احد الممرَّات في مستشفى الرشيد علاجاً مجانيَّاً ومفيداً لحميد، كي تضمرَ لديه وتضعفَ تلك الكوابيس والهواجس المقلقة، ويتصالح مع نفسه المعاقة أخيراً.

* * *

لم أفهم من ضابط الجوازات الأردنيّة السبب الذي منعه من ختم جوازي للَّحاق برفاق رحلتي في حافلة السفريّات الطويلة. كانت الظهيرة حامية، وقد صُلِبْنَا ساعات طويلة في هذا المكان المزدحم، وكأنَّ العراقيين جميعاً قد انحشروا في باب فرارهم الوحيد.

قادني موظَّف صغير الى غرفة جانبيَّة، وهناك خاطبني ضابط بلكنة ثقيلة وصوت متحشْرِج:

ـ أخي هذا الجواز مش بتاعك. مكتوب هون انو انت حميد يارالله، وانت في الحثيئة اسمك نديم. مش هيك؟؟

جفلت من سؤاله، وبرْطَمْت بكلمات لم افهم منها شيئاً.

اقتادني موظَّفون أمنيُّون الى غرفة يشغلونها وقت استراحتهم، وجمَّعوني مع عراقيين آخرين، ثمَّ علمت بمغادرة حافلتي، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدت نفسي داخل الاراضي العراقيّة،

وحمدت الله أثناء عودتي مع رفاقي المبْعَدِين بسيارة شاب من الرمادي أنَّ هذا الأمر كلَّه ليس حقيقيّاً، وإلَّا لكانت كارثة ثقيلة، لا يستطيع جسدي الهشُّ تحمُّلها.

فكَّرت بالكلمات الكثيرة التي تداولتها مع ذلك الضابط ذي الهيئة الكسولة. لم يتجاوب معي أبداً. قلت له إنَّ هذا يحدث في الحلم، أستطيع، مثلاً، اجتياز هذه الحدود عَدْوَاً مثل لاعب أولمبي. كان من الممكن أنْ أركب بساطاً سحريّاً يُسقطني في الساحة الهاشميّة بعمان بدل كلِّ هذه التفاصيل، ولكنَّ المشكلة أنَّ عليَّ الاستمرار في النسق الذي دخلت فيه. مع ذلك ظلَّ هذا الضابط مصرَّاً على أنَّ الأوامر تسري في كلِّ الأوضاع، في الواقع والخيال وفي جهنم الحَمْرَا أيضاً. وليس أمامه، رحمة بي، سوى إبعادي عن الأراضي الأردنيّة.

إنَّنا نثرثر الآن يا عزيزي في منطقة الاحتمال، أخبرته بذلك، لكنَّه ظلَّ جامد النظرات.

ـ لا يمكن لضابط حدود، أو ضابط أمن أردني أنْ يتحلَّى بالشاعريّة. أفهم ذلك حين تتخيَّل شيئاً مماثلاً في مناسبة أخرى.

قال لي، وهو يُسَلِّم جوازي وبعض الأوراق المرفقة الى موظَّف الأمن الصغير، وخامرني، وأنا أخطو برفقة هذا الشاب مجهول الهويّة، خدر في كلِّ أرجاء جسدي، ازداد حين واجهت في الخارج لفحة الشمس الحارقة، وزحمة العراقيين على باب هربهم الوحيد.

* * *

كنت أتصفَّح كتاباً سميكاً حين طرق بابنا الصفيحي الكبير،

فتململت بنِّيَّة في رقدتها أمام التلفزيون، لكنِّي تظاهرت بالنوم. وحين اشتدَّت الطرقات على الباب رفعت بنِّيَّة رأسها مجدفة وشاتمة المقدِّسات، ولم أفهم لماذا تسحب دائماً نعلها البلاستيكي بيدها قبل أنْ تنهض وتلبسه.

كان الطارق هو الرفيق چاسب مشخوط. وحين دعته الى الدخول بدل الوقوف بالباب، رفض مفضلاً الحديث معها من هنا. رفع بنطاله الزيتونيّ العريض على خصره النحيل، رفعه بهدوء حتى لا تبدو الصورة فكاهية، ثمَّ سأل عن حميد.

ـ حميد مسافر يمه.. سافر لعمان يمه چاسب.

قالت بنِّيَّة ذلك بحنوٍّ ولَكْنَة شائخة، قالتها بضعف وانكسار أبديٍّ، ولم تعرف بأنَّه يكره أنْ يناديه أحد ما باسمه الصريح ويفضِّل أنْ يُلَقَّب بـ(ابو فؤاد)، على اسم ابنه الذي مازال في بطن أمّه.

ـ مسافر.. غير مسافر، قولوا ما شئتم ولكنّي جئت لأحذره.

قال ذلك بنبرة عداء غير متوقَّعة، ثمَّ سرد لها المشاكل التي يسبِّبها حميد بعمله في تجارة قوالب الفافون والنحاس، وكيفَ أنَّ الحزب يسعى للقضاء على هذه التجارة الحصاريّة لأنّها تضرُّ باقتصاد البلد والثورة. ولم تبدُ استجابة بنِّيَّة مقنعة لچاسب، خصوصاً وأنَّها تصف ابنها بأنَّه (على باب الله).

ـ يُهَرِّب الفافون والصِّفِر الى إيران والعُصَاة في الشمال وتسمِّين هذا باب الله، لعد باب إبليس شلونه؟

قال چاسب، مستثمراً هذا الموقف الى حدوده القصوى لصالح بدلته المكويّة جيداً، وشعره المصبوغ ومسدسه الطارق وحذائه الماروني الملمع. ثمَّ حتى يخفِّف من الحدَّة التي

استشعرها في كلامه مع هذه العجوز البريئة أفصح لها عن أسبابه الخاصة:

ـ أمي.. أنا لا أنسى الزاد والملح، ولهذا أنا جئت لأحذِّرَ حميد، وإذا قبض عليه الرفاق في يوم ما لا يلوم إلّا نفسه. وفي تلك اللحظة إذا لم يقبضوا عليه ربَّما يقبضون على ابو حميد بدلاً عنه.

وهنا تغيَّرت سُحْنَة بنَيَّة، واحتدَّت ناسية المخاوف التي تثيرها هذه البدلة والحذاء والمسدَّس والشعر المصبوغ:

ـ تردون حميد روحوا لعمان، يارالله شعليه. أشو خدم الحزب والثورة لما الله گله بس، خدم ذيج الثورة وهاي الثورة، ولو بيه حيل وفايدة هم يخدم الحزب والثورة اللي بعدهه.

صدمت الكلمات المرصوفة والمتلاحقة لبنَيَّة هيبة چاسب أمام نفسه، وأحس بالخطأ في الانجرار بثرثرة خرقاء مع هذه العجوز الحَيْزَبُون:

ـ آني صوچي، آني ما افتهم، وانتم عائلة كلكم شيوعية.

* * *

تشكُّ بنَيَّة أنَّ خراب حميد جاء من أحد أمرين: المشروب، والكتب، وكنت اقرأ في رواية أجاثا كريستي (المجيء الى بغداد) حين طرق الرفيق داخل باب بيتنا بعد العشاء بساعتين. أغلقت الكتاب، وأنا أفكِّر بتفسير بنَيَّة لحالة حميد، أنَّني أتحرَّك الآن داخل حكايات متناثرة ولست متأكداً من إحداها، وهذه وسيلتي ربَّما لتعطيل الحكاية الأصليَّة، والفرار منها، أو هي محاولة لاستكشاف أهميّة الخيارات التي لم تُتِحْها الحياة. أفكِّر بذلك، أو

اقرؤه في الرواية بين يدي، بينما الرفيق داخل يتحدَّث مع بنَيَّة عند الباب.

دخل الى المجاز مرتدياً العُقَال والكوفيّة، وبيده مسبحة يسَر مفضَّضة، يطقطق بها وهو ينظر الى جثَّة يارالله المسجَّاة في الحوش. كان أشبه بغول سمين، بعد أنْ شُفِيَ من دائه المعويّ وترك المشروب وبدأ يُصلِّي. كان بذلك الصورة المضادة لمنظر يارالله المقترب من الموت منذ سنوات، بسبب سوفان الفقرات القطنيّة، والتهاب كليتيه وكبده، وعشرات الأمراض الصغيرة الأخرى.

ظلَّ الرفيق داخل بهيئته العشائريّة المحترمة يجادل بنِّيَّة التي ملَّت الإعلان للجميع أنَّ حميد سافر الى عمان. فشطح ذهنها بعيداً وقالت بسبب عدم الانتباه والملل للرفيق داخل:

- يمه راح إل لبنان. هاي البيهه شغل.

فاستثمر الرفيق داخل هذه الكلمات العفويّة لمحاكمتها، قائلاً إنَّ البلد فيها شغل ليش يروح إل لبنان حتى يشتغل لو إلا السرقة ونهب اموال الدولة حتى يصير شغل هنا؟

لم تجبه بنِّيَّة، وكان على ما يبدو غير متأكِّد مما سمعه عن سفر حميد، ويسعى لاستحصال المبلغ الشهري الذي خصَّصه له حميد. ظلَّ يتحاور مع بنِّيَّة ويارالله المبحْلِق بعينيه من دون أنْ يعي حقيقة الموقف.

فكَّرت بحجم الرعب الذي يمثِّله هذا الرجل في المنطقة، ومدى الاسترخاء الذي يتمتع به الآن. إنَّه الشخص نفسه الذي يقول الجميع عنه سرَّاً إنَّه من سبب الشلل لمصطفى الفيلي، بعد أنْ اقتاده بيده الى الفرقة الحزبيّة ومن هناك الى الأمن العامة، بوصفه

من ذوي التوجُّهات الدينيّة، ولديه ارتباط بقوى المعارضة في الخارج، وما الى ذلك من الاتهامات التي أعرف أنَّ الكثير منها مجانيٌّ، ويُلَفَّق بعد أنْ يتمَّ القاء القبض على الشخص المعنيِّ. خفت من اعتباطيّة أمر كهذا لذا ظلَّلت في العتمة، وكأنَّني خارج البيت، ممسكاً بالرواية مثل طوق نجاة، وأفكِّر باحتمالات أخرى لحدوث هذه الحكاية.

ولكنِّي فوجئت وهو ينظر باتّجاهي داخل عتمة الغرفة، وكأنّه يراني، قائلاً بحدَّة وبلهجة أبويَّة آمرة:

- إبني التفت لدروسك وعوفك من هاي الكتب، تره هذا الدرب هوه اللي خرب حميد وخلاه خارج رعاية الحزب والثورة، وصار إنسان دايح. انت إلك مستقبل لو تنظف دماغك ابني.

ظلَّلت على جمودي، وافترضت أنَّ هذا الحوار هو من المشهد البديل لما حصل، ذلك المشهد الذي لم يجرِ أبداً، حيث أخرج فيه الى باحة الحوش وأواجه الرفيق داخل وأجيب على اسئلته بدلاً من بنيَّة المسكينة.

إنَّه الرفيق داخل الآخر إذنْ، في نسخة الحكاية غير المرويَّة.

* * *

أخرجته أمّه بعربته المتحرِّكة الى خارج الباب، ومن هناك تسلَّمت القيادة منها، ودفعته برفق على إسفلت الزقاق المليء بالحفر الصغيرة والأزبال.

أفكِّر أحياناً بأني افعل ذلك منذ زمن سحيق، مذ كنا تلاميذ في مدرسة الأعشى الابتدائية. أنا من يقوده كل يوم الى الصف

الدراسي ويعود به الى البيت. أنا صديقه المقرَّب، الوحيد ربَّما، ولكنْ عليَّ أنْ ادخل الى رأسه حتى أتأكّد.

أدور به في الشوارع، وأعبر الأرصفة بحذر، أفكِّر بعجلاته ودورانها اكثر من الحركة الإيقاعيّة لخطواتي، وقد أتجاوز بالعجلات اللامعة حفرة صغيرة مليئة بالماء ثمَّ يغطس حذائي فيها من دون أنْ أنتبه.

كان صامتاً أغلب الوقت، وحين يسنح هدوء قرب مستشفى الچوادر، وبالذات قرب ثانوية الوثبة للبنات، كان يتكلَّم، يُعلِّق على شيء ما، ينظر طويلاً الى اطفال يلعبون الكرة في الحديقة العامة المجاورة للمستشفى، وأكسر صمته أحياناً بالغناء، وأعرف أنَّه يكره الغناء. أغني أغنية لسعدي الحلي، مقلِّداً صوته، فيضحك، لا أراه يضحك، أنا في الخلف دائماً، لكنِّي أسمع، واشعر أنَّه يضحك. وقد تعوّدت يداي على مقبضي الكرسي، تعوَّد جسدي على طاقة الدفع، أعرف ثقل جسده، وأعرف ثقل ما يفكِّر به.

لم يعهد لي أحد بهذه المهمّة، لقد تبنِّيت الأمر شيئاً فشيئاً، وغدا منظرنا مقدَّساً في أعين الجيران وأهل المنطقة، وبات يعرفنا أشخاص كثيرون، وكأنَّهم انتبهوا لوجودنا فجأةً حين صرنا نسير معاً. كان يبادر بالسلام على الجالسين قرب أعمدة الكهرباء، أو في أركان الأزقَّة، وعند مقهى أبو لازم، الذي يخرج تخوته في الصيف ويصفها مع المناضد الخشبيّة المتآكلة أمام المقهى. كان مصطفى يكره المقهى، لكنَّه يبادر بالسلام. وكنت أكره السلام على كلِّ من هبَّ ودبَّ.

ولكنَّنا كنَّا نلعب الكرة، مثل هؤلاء الأطفال، على الحشائش

الميتة للحديقة المجاورة لمستشفى الچوادر. نلعب في ساحة مدرسة الأعشى، ولا نعود الى البيت إلّا حين نجوع، وكانت بنيَّة تعطي لكلٍّ منا قطعة خبز مدهونة بحلاوة الراشي.

كان يركض إذاً، رغم شعوري أنَّي أدفع عربة المعاقين هذه منذ زمن سحيق. ولن يستمرَّ الأمر الى الأبد طبعاً، فأمَّا أنْ تنقلب العربة، أو يموت مصطفى أو أموت أنا، كي تتوقف العجلات عن الدوران، رغم أنِّي لا أفكِّر بهذه الطريقة كثيراً. هل تريد أنْ تنظر الى معاق وهو يتبوَّل أو يتغوَّط، لا احد يريد أنْ يساعد معاقاً في هذه المهمّة. وحين تموت أم مصطفى الكرديّة ذات العينين الخضراوين، من الذي يستطيع تحمُّل خدمتك يا مصطفى؟

أوقف سيارة تكسي، وأضع كرسيه، بعد أنْ أطويه، في صندوق السيارة، ونذهب صباحاً الى شارع المتنبِّي. عند مدخل الشارع أفرش كرسيه على الأرض، وانزله بهدوء، ثمَّ نشقُّ طريقنا وسط زحمة المتفرِّجين على الكتب المرصوفة على جانبي الشارع.

لم أكنْ أكترث لما يشتريه. في الحقيقة لم تهمّني كثيراً هذه الكتب التي يقتنيها، يرفعها من الأرض، أو يطلب منِّي ذلك، ويستغرق الأمر وقتاً قبل أنْ يحسم أمره ويلقي بالكتاب الى الأرض أو يساوم البائع لشرائه.

أووف، في أحيان كثيرة، افضل قيادة كرسيه من دون توقف، على انتظاره وهو يكاد يقرأ نصف الكتاب قبل أنْ يحسم الأمر بشرائه أو تركه. أهذا ذنبي، أنَّني كنت الشخص الذي أقنعه بالتصالح مع الكرسي المدولب؟

ما الذي كانْ سيحصل معه لو أنَّه ـ بعد خروجه من معتقلات الأمن العامة ـ بقيَ في فراشه يطالع أشباح الرطوبة في السقف،

آثار الأرضة المتعرِّجة النابعة من الزوايا، صور آبائه وأجداده وأخوته على الحيطان، صورته وهو يقف بجوار شجرة يوكالبتوس قرب المدرسة الثانويّة، مسبحة الخشب ذات الحبَّات الكبيرة المعلَّقة على مسمار في أعلى الحائط.

من المؤكد أنَّه لن يفاجئني حينها بآرائه الغريبة، أنا المذنب في الحال التي وصل إليها. لقد شاهدت ام مصطفى بوجه غسلته الدموع، وهي تتهمني بأنِّي غسلت دماغه. كنت أغني له أغنيات سعدي الحلي في بعض الأحيان. وأمنحه فرصة مشاهدة الفتيات وهنَّ يأتين من السوق بخصل شعرهنَّ الملوَّنة الخارجة من تحت العباءة، هل في ذلك شيء خطير؟!

كنت ارغب دائماً بالدخول الى دماغه لأعرف ما الذي يفكِّر فيه. من المؤكد أنَّ غرائزه تتحرَّك لمرأى الفتيات، ولكنَّ وجهه لا يبدي أيَّ استجابة، ولا أعرف حقيقة ما هي حالة عضوه الذكري، لم أتطرَّق معه الى هذا الموضوع خشية أنْ أسبِّب له صدمة.

كنت متحرِّقاً لأعرف كيف تتحرَّك هذه الأفكار، ومن أين تأتي، وهل ينطق بما يفكِّر فيه، أم أنَّه يُغلِّف أفكاره بكلمات تعني أشياء أخرى؟

بالإمكان الافتراض بأنَّ كلَّ شيء خطر في ذهني، وأنا أدفع عربته المعدنيّة على الاسفلت، على حافَّة الشارع وعلى الرصيف، بين برك الماء، وعلى الحشائش، وفوق الأزبال. لم يُعلِّق أبداً على طبيعة قيادتي لعربته، وكانت يداه ترتاحان دائماً في حجره، ومن المزعج بالنسبة لي أنْ يتشاغل عنِّي في بعض الأحيان بقراءة شيء بين يديه، تلك اللحظات كنت أغني فيها، أرفع صوتي من دون اكتراث للكلمات الساقطة من الاغنية، والتي أموهها بصوتي

أو استبدلها بكلمات مشابهة. كان يقطع قراءته وينظر الى الأمام. خشيت أنْ يتحوَّل ذلك في يوم ما الى عملٍ معتاد. هناك أشياء كثيرة تنتظرني غير الترفيه عن مصطفى، ولكنِّي غير قادر على خيانته، لست مؤهَّلاً لسحب ثلاثة أرباع حياته منه فجأةً. ولم أشأ السخرية منه، ومن إيمانه بأنَّه سينهض عن كرسيه في يوم ما. كان يبدو مطمئناً لحدوث ذلك، وأنا وحدي، كما يبدو، كنت مثقلاً بحقيقة أنَّه سيبقى هكذا الى أبد الدهر.

أسير معه، أو خلفه، وأفكِّر أنَّنا بدأنا من نقطة غائمة وغير محدَّدة، ثمَّ تقدَّست هذه البداية، وأصبحت أكثر صلابة مع تراكم الأيام والأشهر والسنوات. كنت عقب إنتهاء حرب الـ٩١ أسحب أقدامي بثقل، يائساً من الطريق الطويل، وكان هو راقداً ينتظر أقدامي كي يشاركني فيهما، كي تغدو قدميه أيضاً. لم احترم وقتها، والهواء المعبَّأ بالدخان ورائحة الرمال يَسْفَعُ وجهي، شيئاً مثل الجلوس نظيفاً على سرير وثير، بينما الهدوء يعمُّ العالم بشكل حاسم. ولم أعرف بماذا كان يفكِّر أبداً.

كنت مترباً ومكسواً بالملح والعرق رغم برودة الجو القارصة، أتهادى على الطريق الطويلة خلف جنود آخرين، لا يلتفتون الى الوراء. وحدي كنت أتلفت كلَّ حين، من دون أنْ أعرف لماذا، وكانت الطائرات مازالت تشخط السماء فوقنا، وتعاود ذلك كلَّ دقيقة تقريباً، منذ أنْ جاءتنا الأوامر بترك مواضعنا والخروج من الكويت.

أضغط بقدمي المتصلِّبة على تراب الطريق، وأرقب مرور سيارة، من دون أنْ أتوقف عن المسير، حتى وصلنا البصرة، وقلت ها أنذا سأجلس أخيراً، ولكنَّ خطواتي استمرَّت، من دون

رغبة منّي، وبقيت أدفع جسدي للتقدُّم أكثر. كانت الأصوات من حولي تتعالى، غريبة وموحشة، تجعل الدماء تتيبس في العروق، ولم أتوقع أنَّني سأسمع هذه الكلمات في يوم ما.

شتم ضابط صغير الريس بصوت عالٍ ثمَّ فتح بغضب نيران بندقيته على صورة كبيرة للريس المبتسم عند مدخل الفرقة الحزبيّة في وسط البصرة، واشتعلت الحمى في رؤوس جنود وضباط صف، فانهالوا ببنادقهم التي لم يستعملوها في الحرب أبداً، أمطروا الصورة المثبَّتة على جدار كبير باطلاقات كثيفة حتى اختفت الابتسامة غير المنطقيّة، ووجدت ساقيّ ترتحلان بعيداً وتسحباني للتقدُّم على طريق العودة لبغداد.

حين وصلت الى گراج العلاوي، كان رأسي يختزن الانتفاضة التي اشتعلت ورائي، وأحرقت كلَّ شيء، النظام وآثاره ورموزه، وكذلك أحرقت إمكانية أنْ تستمرَّ كانتفاضة. وكنت كمن يقودها بخطواته صعوداً الى العاصمة.

ركبت في شاحنة لنقل الجصّ، وتلوث ظهري وشعر رأسي ببياض حوض الشاحنة، مع ركاب آخرين، أمطروني بوابل من الاسئلة، كنت خائفاً من أنْ يفلت من لساني شيء يمكن أن أحاسب عليه في ما بعد، ورغبت بالوصول الى البيت فحسب. كنت أريد نسيان الموت الذي رأيته يتكدَّس على الطريق بين الكويت والبصرة. وأردت أكثر من أيِّ شيء آخر نسيان الكلاب السمينة التي ظلَّت تمخر بهدوء والْتِذَاذ رؤوس الجنود القتلى فوق الرمال على جانبي الطريق، أو بجوار سياراتهم التي أحرقتها الطائرات المُغِيْرَة.

حين طرقت الباب، كنت ملاكاً أبيضَ بسبب الجصّ، وكان

النهار يُشارف على الانقضاء، وبدا زقاقنا خالياً. هرب بعض الأطفال من أمامي صافقين الأبواب وراءهم. ظهر حميد في فرجة الباب، فانهار جسدي، من دون أن أخطط لذلك. تلقفني حميد ساحباً إيّايَّ الى الداخل.

واصلت السير في حُلُمي، ولم يُصدق جسدي بعد أنَّني وصلت، كنت أطأ الجثث بقسوة غير مبرَّرة، رغم أنَّها ليست على طريق تقدُّمي. أنحرف بخطٍّ أفعوانيٍّ كي أدوسَ على الجثث جميعاً، كلِّ الجثث، وكان ذلك مُقْرِفاً، ويُشعرني بغمٍّ هائل.

حين أخبرت مصطفى بذلك قال لي إقرأ المعوِّذتين، ولكنَّه تبدل في ما بعد، وقالت أمّه إنَّني غسلت أفكاره. أردت إخبارها بأنَّ الشخص الذي لا يتحرَّك تزداد أوهامه. وعليَّ أنْ أقنعه بالحركة كي تعود البشاشة الى وجهه. لكني لم أدرك حينها، أنني سأظل مسجوناً بهذا المسير الذي لا ينتهي، بينما يتحرك هو سابحاً في حلمه، دون أن يتحرك حقاً.

قال لي إذا كان جوهر الإله ساكناً، فهذا يعني أنَّ الإله ميت، أمّا إذا كان متحرِّكاً فهذا يعني أنَّه متبدِّل، لو يجيبني شخص ما على هذا السؤال لكنتُ ارتحت.

وحين أثرتُ معه الموضوع في ما بعد، قال لي إنَّ هذا السؤال غدا قديماً. ولم يخبرني بالضبط هل يعني هذا أنَّه وجد الجواب عليه، أم يئس من الجواب.

كنت أزيد من سرعة كرسيه المدولب كلَّما بدأ بطرح أسئلته المخيفة. يهتزُّ جسده بسبب الحصى والحفر التي أعبر عليها، ولا يسألني عن تفسير هذا الإسراع غير المبرَّر. يستمرُّ في الكلام،

وأغالب إنصاتي الآثم باقتراح شوارع وطرق جديدة لم نمضِ فيها سابقاً، أو أهملنا المرور بها منذُ زمن بعيد.

كنت أستعدُّ للالتحاق بخدمة الاحتياط العسكري الثانية، ولم أخبره بذلك، متحيِّناً فرصة أفضل في كلِّ مرَّة، ولا أجد هذه الفرصة الأفضل. كان هشَّاً ورقيقاً مثل وردة تُشارف على الذبول. ولم أفكِّر بأنَّني أحتاجه بالقدر ذاته لحاجته لي. لم أخبره بشيء عن معسكر التدريب الذي ينتظرني لأكرِّر فيه السخافات العدميّة ذاتها. وكانت الاستثارة التي يُخلِّفها استحضار الخراب الذي سأتّجه اليه شيئاً مشوَّشاً يشبه التفكير بما وراء الموت.

ذات مساء كنت أقوده داخل الزقاق باتّجاه منزله، وكان يُغنِّي أو يُدَنْدِن أغنية لقحطان العطار، ورأسي يدور مثل جرم تائه خارج مداره، مفكِّراً في اللاشيء تقريباً. أوصلته لباب البيت، حين التفت إليَّ برأسه الضئيل قائلاً بما يشبه الكلمات الختامية قبل افتراقنا:

ـ لقد فهمت الى أين ذهبت دعواتي الكثيرة منذ نيسان ١٩٩١ وحتى اليوم، لقد تبخرت في الأثير.

أطْرق ناظراً الى قدميه الذابلتين ثمَّ أكمل:

ـ لن أنهض من كرسيي أبداً يا نديم. لقد خسرت نصف جسدي من أجل لا شيء. وهذا ما لن يتبدَّل أبداً يا صديقي. مثلما لن يتبدَّل الشيء الآخر. . لن يعود لي نصف جسدي أبداً.

كنت كمن ينتظر هذه الكلمات، التي كابر كثيراً ولزمن طويل حتى لا ينطقها. تخلَّى عن أمله الزائف بالغ الشاعريّة بأنَّه مادام طيباً وخيِّراً فإنَّه سيُكافأ على صبره، لأنَّ النهاية للطيِّبين، كما أنَّ

النهاية، بوجهها الآخر، للإشرار أيضاً، مثلما يحدث في افلام كارتون ساسوكي.

كنا، أنا وإيَّاه، نتقمَّص ساسوكي كما يفترض، بينما الآخرون، كلُّهم، يمثِّلهم هانزو الشرير. ولكنَّه تخلَّى عن ذلك اخيراً، ليس في تلك الأمسية طبعاً، وإنَّما في لحظة سابقة، لم استطع ابداً الدخول الى رأسه لتحديد زمنها.

وما دامت هذه الرسوم المتحرِّكة تحترق الآن، فإنَّ دوري سيكون أسهل بكثير. استثمرت اللحظة كي أحرِّر قدمي من السير الطويل. قلت له:

ـ لن أستطيع المجيء غداً، ربَّما لن أستطيع المجيء أبداً. بعد ثلاثة أيام أساق الى معسكر النهروان.

قلت ذلك أو لم أقله، لا فرق. تركته يدخل الى بيته، وانصرفت برأس مشحون. كنت أفكِّر بأنِّي ربَّما ساصحو غداً صباحاً لأجده ينتظرني عند الباب.

تنقلب الحكاية..

يسحبني وأنا على الكرسي المدولب الى خارج البيت، مارَّاً على لوح خشبيٍّ سميك موضوع على دَكَّة الباب العالية. يدور بي دورتين ثمَّ يُوجهني نحو مدخل الزقاق ويبدأُ بدفعي ببطء، مغنِّياً أغنية قديمة لقحطان العطار. وأنا مثل ملك كسول لا يُفضِّل السير مسافة مترين، يدفعني خادمي المطيع على محفتي الحديديّة، ذاهباً بي الى السوق، أو الى المكتبة العامة. يدفعني نحو كافتريا صاخبة قرب احدى الجامعات من أجل اللقاء مع صديقتي، أو من أجل الحصول على أكبر سخريّة ممكنة من الفتيات الرشيقات ذوات الشعر المصبوغ والشفاه الممتلئة. يسألني عن احتمالات انتصاب

عضوي الذكري في تلك الأجواء، لكنِّي أتجاهل سؤاله دائماً، فهذا سرٌّ شخصيٌّ. يرميني الشباب بأكواب العصائر وقطع الكيك الغارقة بالقشطة، وحين أتلوَّث تماماً، يدفعونني بأيديهم الى الخارج، ولا يرجعون بجوار صديقاتهم حتى يتأكَّدوا أنَّني اصبحت بعيداً بما يكفي.

أجد خادمي المطيع واقفاً بذراعين متصالبين، منتظراً أوامري. تقدح عيناه بالشرر، لكنِّي أطالبه بسحبي بعيداً عن هذا المكان. فيعبر بي الشارع، ويأخذني بسيارة أجرة الى حديقة الزوراء. أطلب منه أنْ يرفعني ويجلسني على ذلك الغصن السميك من شجرة اليوكالبتوس. أشير بيدي الى ذلك الغصن الملوي، فيجلسني هناك، ليلتقط لي صورة تذكاريّة.

يأخذني الى النهر، وعند الضفة المليئة بأعواد القصب العفنة وعلب السجائر والببسي ينزل قدمي الذابلتين، ثمَّ يغوص بجسده الرياضيّ لابطاً في الماء البارد، وحين يعود يرفع يديه بالكاميرا، غاطساً الى منتصف جسده في الماء القذر، ويلتقط لي صورة تذكاريّة وانا أبلبط في الماء بقدمي الميِّتتين. ففي الصورة يتداخل الميت والحيُّ.. أليس كذلك؟

أشبع من العالم الخارجي، وأطلب من خادمي المطيع أنْ يقودني الى البيت. أغمض عينيَّ خلال الطريق، وأتحسَّس تقدُّمنا على إسفلت الشارع باهتزاز جسدي، وأصوات منبِّهات السيارات. أفتح عيني وأرى مؤخرات الموظَّفات، ثمَّ أغمضهما، وأفتح عينيَّ أمام سوق شعبيٍّ وأرى البائعات، وأرى عباءات سود ملطَّخة بالطحين وتراب الشوارع.

وحين يصل بي الى باب البيت، إلتفت إليه بنظرة شاكرة، فها

هو خادمي المطيع يتّجه الى حريته الآن، لقد أنهى واجبه من دون تذمر، وسيختفي مثل ماردٍ دخاني عائداً الى قمقمه. نهضت كي افتح الباب، لكنَّ قدمايَّ لم تستجيبا. نظرت الى مصطفى مستفهماً، فوجدت ابتسامةً عريضةً ترتسم على وجهه.

ـ هل بقيَ شيءٌ ما في جولتنا لم نقم به؟ لم يبقَ إلّا مديرية الأمن العامة لم نزرها هذا اليوم.. هه ههنا أليس كذلك يا مصطفى؟

سألته بقلق. لم ترتخِ ابتسامته المريبة، وداهمني وجلٌ شديد وأنا أنحني بجسدي أكثر نحو الباب في محاولة للنهوض، لكنّي أرجعت جسدي الى الظهر الجلدي لكرسيي المدولب، مُعلناً فشلي. عاودت النظر الى مصطفى، الذي ما زال يستند بجسده الى مقبضي الكرسي. ثمَّ انحنى إليَّ متحدِّثاً بخفوت وكأنَّه يُسرني بشيء خطير، وانفتح سيل الكلام على شفتيه:

* * *

كنت تريد دائماً أن تتخلَّص من كوابيس السير الطويل الذي قادك من الكويت الى بغداد. وأردت التخلُّص، بطريقة مريحة من السير وراء هذا الكرسي. أنا أعرف ذلك، لأنّي أعرف أنَّه داخل الحكاية أو الحلم يستطيع الإنسان أن يقرأ أفكار أصدقائه. وهذا ما فشلت فيه أنت، ونجحت أنا.

كنت تحسدني على جولتي، وترى نفسك خادماً ورَّط نفسه في خدمة مجانية. لقد حسدتني، لهذا أردت ان تتخيَّل كيف يبدو الامر لو كنت مكاني، ودخلت في هذه الحكاية الحلمية. لكنّي أنا أيضاً أتخيَّل أشياء كثيرة. صدقني، كنت اشعر بذنب عميق، واتمنَّى نهار

كلَّ يوم لو انَّك لا تأتي، كي أعفي نفسي من هذا الخدمة المخجلة لي من دون مقابل، كلَّ هذا الزمن. حتى أنِّي تمنِّيت في لحظة ما لو ان الأمر يغدو معكوساً، كي ارد لك - ليس إلا - جزءاً من جميلك تجاهي. تخيلتك على هذا الكرسي، كخدمة جديدة تمنحها لي، بأن تجعلني أقودك أنا هذه المرَّة، أوظِّف قدميَّ لارادتك في التجوال المريح. كي أسدد ديني، أيها الصديق.

لقد حلمت أنا بذلك، في الوقت الذي حلمت انت فيه بالحلم نفسه. هل تصدق ذلك؟!

لقد مللت من التفكير بالإله الساكن والإله المتحرِّك، عن قدرة الإله المفترضة للتدخُّل في العالم الذي يصنعه. وها أنذا اكتشف سخف هذا التفكير. هناك آلهة كثيرة. أنا وأنت آلهة بصورة ما يا صديقي، ولكننا مع ذلك غير قادرين على الخروج من الحكايات التي نصنعها.

أنا أعرف بأننا تخيَّلنا معاً تبادل الأدوار هذا. حلمنا في لحظة واحدة أن يحدث هذا الشيء، وعليك أن تصدق الآن أن معجزة ما جعلتنا ندخل معاً الحلم ذاته. أليست الحقيقة امضاء شخصين على الاقل على وهم معين؟

لقد اتحت لي الثرثرة داخل هذا الحلم يا صديقي، لذلك ستصمت هنا ويبدأ دوري في تحريك هذه الحكاية، مادمنا قد تخيَّلناها معاً.

إنَّ اليأس المطبق، اليأس الداكن هو ما يمنعني من العودة الى هذا الكرسي الرجيم. لذلك ستمضي الحكاية في طريق جديد. سألتحق - بدلاً منك - بعد ثلاثة أيام الى معسكر النهروان، ثمَّ لا تنسى انك جندي قديم، ولا تحتاج الى تكرار هذه التجربة. أما أنا

فسيبدو الأمر بالنسبة لي مثل الالتحاق بالجنَّة. أنا قادر على المجازفة بتخيُّل هذا الإحساس. حتى لو غدت الحياة حينها كابوساً.

لا تجهد نفسك كثيراً يا صديقي، وأنت تدفع العجلات المعدنية لهذا الكرسي على شوارع وأرصفة المدينة، بتخيُّل اشياء أخرى. فالمعجزات لا تتكرر. لا تُمنِّي نفسك بالتقائنا مرَّة ثانية في سطوع الحلم المتداخل، فهذا مستحيل، ولا يمكن لأحد أن يحلم وهو داخل في حلم أصلاً. ومن جهتي أنا أضمن لك أنني لن اصحو ابداً. والباب الذي أغلقناه معاً لن تستطيع فتحه بمفردك.

* * *

وجدتني جالساً على تلَّة واطئة، ارسل النظر نحو أفق مضبَّب بالتراب الأحمر، بينما كتل سوداء صغيرة تتهادى في البعيد. نهضت وخطوت باتّجاه المرصد النهاري وحدَّقت بمرقاب الثمانية كليومترات، وتحقَّقت من هذه اللطخات السود المتطفلة على سكون الأفق الترابيّ، كان قطيعاً صغيراً من الغزلان، يقوده ذكرٌ بقرنين كبيرين مثل أغصان متشابكة. منظر مذهل قياساً الى سكون الموتى الذي يُحيطني.

نسيت للحظات الكلمات الاخيرة التي قرأتها في الأوراق التي أعطاني إيَّاها عبود قبل نومه، (الباب الذي اغلقناه معاً لن تستطيع فتحه بمفردك)، تردد صدى هذه الجملة في جمجمتي الخاوية ثانيةً، وقفزت الغزلان بحركات رشيقة لتختفي في الضباب الأحمر. عاد الأفق الى حقيقته ثانية. وكبس على رأسي ذلك الضيق الذي يُخلِّفه كابوس ثقيل.

فاجأتني يد عبود ذات الاصبعين وهي تمسك بيدي، وكأنَّه طبيب يريد التأكُّد من نبضي. إلتفت اليه، فقال لي:

ـ ستعود الآن يا صديقي.

وقبل أنْ أتكلَّم بشيء هزَّني قائلاً:

ـ نديم..

تمزَّق السكون بلغطٍ متصاعد، وتحرَّك أنفي ليشمَّ رائحة الديتول والمواد المنظِّفة، متأرجحاً ما بين النوم واليقظة. أطلُّ مغمض العينين من لحظتي البرزخيّة، الى عالم من لغطٍ متصاعد يأتي من الممرِّ المجاور للغرفة التي كنت أنام فيها.

فتحت عينيَّ وواجهني السقف، وداهمني ما يشبه إغماءة جديدة، بقيت ساكناً للحظات أتشرَّب عودتي الى الأرض ثانيةً حتى سمعت صوتاً معدنيّاً يقترب من سريري. مِلْتُ ببصري فشاهدت مصطفى وهو يدفع عربته المدولبة ويقترب منِّي.

ـ نديم..

قال ذلك وهو يفرد وجهه بابتسامة خفيفة.

آه.. لقد خرجت من الكابوس إذاً، الحكاية المقفلة. تحرَّك الدم في رأسي، وفتحت عينيَّ على سعتهما. أمسك مصطفى بيدي التي كانت مقيَّدة الى أنبوب المغذِّي، وقال لي بِلَكْنَة غريبة:

ـ ألَمْ تكنْ ترغب بذلك يا صديقي؟ العجوز تحتضر. لم يتحمَّل جسدها الضئيل ثقل الحجارة الكثيرة التي وقعت عليه. ستموت بنيَّة.

قال ذلك ثمَّ تغيَّر وجهه فجأةً، ولمعت عيناه، فخفق قلبي بعنف. لم أفهم ما قاله. واردت النهوض لمعرفة ما يجري، لكنَّ جسدي كان ضعيفاً، وغلبتني نوبة إغماء جديدة.

ـ نديم . . !

خرج يدفع عجلاته المعدنيّة بخُذلان، حتى انتهى الى رصيف الشارع، وحين استيقظت ثانيةً، بعد نصف ساعة، لم استطع التأكُّد. هل كان مصطفى بجواري حقّاً، أم كان صوت حَنْجَرته المرتجَّة هو آخر شيء رافقني في أضغاث غيبوبتي؟!

الفصل الثالث

رياح التغيير

[كُلُّ مَاْ هُوَ هُنَا هُوَ هُنَاك، وَكُلُّ مَاْ هُوَ هُنَاكَ هُوَ هُنَا أَيْضَاً، وَكُلُّ مَنْ يُفَرِّقُ مَاْ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّهُ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَوْتٍ إلى مَوْت]

الاوبانشياد الهنديّة

أُغلقُ باب البيت، فينقطع أنين العجوز في غرفة المعيشة. ينقطع لساعات النهار فقط، حيث اتسكَّع على غير هُدى، هَرَبَاً من هذا الأنين. أصافحُ الطرقات نفسها، المليئة بالحفر التي خلَّفتها العبوات الناسفة. الأرصفة المخرَّبة بسبب سُرفات الدبَّابات الاميركية، والأزبال، والأطفال الحُفاة، والمياه الآسنة، وأعمدة الكهرباء المائلة.

لقد انتهت المعارك ولم تنتهِ أيضاً. لم ينتصر أو يُهزم أحد. مجرد هُدنة غير محدَّدة. كما هو حال كلِّ شيء. الأزمات تتأجَّل وتسافر معنا الى الأمام.

أجلس في مقهى عند رأس الشارع. الأغاني اختفت، والأناشيد الدينيَّة الحماسيَّة تصدح في عربات الباقلاء والشلغم. الأصدقاء يختفون أيضاً، والبرد يلسع الوجوه. أشرب شاياً عند هذه المقهى الصغيرة أمام موقف مزدحم لسيارات الفورد القديمة. وعلى أريكة مجاورة أجد عدد يوم أمس من صحيفة (رياح التغيير). مازالو يكرِّرون الإعلان نفسه. إنَّهم يطلبون منضدين على الحاسوب.

يبرد الشاي وأفكِّر؛ ما الذي يجري الآن مع حميد؟ لماذا

انقطع فجأةً؟ كان، حتى إعلان الحرب، يُرسل بانتظام مبلغاً من المال كلَّ شهر تقريباً. الراتب التقاعدي ليارالله الحارس الذي تتقاضاه بنِّيَّة لا يكفينا نحن الاثنين والآن انا مجبرٌ على التفكير بإعلان جريدة (رياح التغيير)..

أفكِّر بذلك مرَّة أخرى، حينما أمرُ أمام تمثال عبد المحسن السعدون الفايبرگلاس، بعد أنْ سَرَقَ لصوص مجهولون التمثال الأصلي المصنوع من البرونز. هل سيقطِّعونه ويصهرونه ويحوِّلونه الى سبائك جاهزة للبيع؟ يغدو تمثال الفايبرگلاس خلفي، بينما أغذُ السير نحو بسطات الباعة على امتداد الباب الشرقي.

فتيات ينظرن بفضول الى اعلان عن عدسات ملوَّنة على الواجهة الزجاجيّة لمحل عوينات، وبائع حقائب سوداني يساوم عائلة على حقيبة سوداء كبيرة. ما الذي يفعله حميد في هذه الاوقات؟

يرنُّ السؤال في رأسي مثل ناقوس معذّب، وأنا أنظر الى بنِّيَّة وهي تقاوم الموت الذي يجرجرها الى سراديبه المعتمة. إلتواء مثير لمؤخرة امرأة نزلت من حافلة (الكيا) الصغيرة عند مدخل شارع فلسطين يجعل السؤال، مرَّة أخرى، ينبثق في رأسي بشكل غامض.

إنَّه يدخل الآن الى حانة مضبَّبة بدخان السجائر. يُعلِّق معطفه المطريَّ على الكرسي الطويل ثمَّ يطلب خمرة حمراء. منتظراً أنْ يَرِنَّ هاتفه المحمول في أيَّة لحظة. مازال سيء المزاج، والحوادث الصغيرة المحبطة تتراكم في طريقه. وهذا أمر مزعج، لأنَّك في النهاية لا تجد سبباً واضحاً لانزعاجك أو تشاؤمك، فالشؤون الصغيرة تتلاشى من الذاكرة سريعاً مخلِّفةً جروحها الدقيقة.

إنَّه يُفكِّر بطريقة ما للاتصال بي، بعد عطل هاتف بيت أبي مصطفى. في الحقيقة كلُّ خطوط الهاتف الارضي تعطَّلت بعد الحرب، وأصلح بعضها، لكنَّ الخدمة سيئة على الدوام. وهناك من يفكِّر بالطريقة التآمريّة المعتادة، فيقول إنَّ عدم إصلاح الهواتف الارضيّة لغاية ترغيب الناس بشراء الهواتف المحمولة. الأمر لا يخرج عن كونه اتفاقاً شيطانيّاً بين شركات الهواتف المحمولة الداخلة حديثاً الى البلاد مع شركة الهاتف المملوكة للدولة. ولكنِّي لا أصدق هذه الحكاية.

إنَّه قلق من أجلي، وربَّما من اجل بنيَّة أيضاً، فهي لم ترتكب جريمة حين انجبته، وكلُّ شيء يتغيَّر. إنَّه قلق، ويسعى للاتصال بي بأيَّة طريقة. لا بدَّ من أنَّه يبحث عن دفتر هواتف منسيٍّ في حقائبه القديمة. يتأمَّل رقماً لصديق في الموصل أو البصرة، ويهاتفه سريعاً ليكلِّفه بمهمّة العثور على أخيه الصغير وأمّه العجوز.

ربَّما سيفعلها ويأتي، كما فعل العديد من المهاجرين. لسعة سكين حاميّة أخيرة على القلب، كي تهدأ لواعجه، وينسى البلاد نهائيّاً. زيارة قصيرة. استكشاف سياحي، بينما الحياة الحقيقيّة مازالت هناك. فرشاة الأسنان، والمنشفة البيضاء، وسندانة الصبّار، وقائمة البرامج التلفزيونيّة المفضَّلة. الاصدقاء. الصديقة اللدنة، التي تنشِّف شعرها في الحمام، بينما عشاء المطعم المجاور يتقدَّم على السلالم مع شاب أشهب. طرقات على الباب، والفتاة ذات الشعر المبلَّل تفتحُ وتدسُّ عملةً تحوي صورة ملك قديم في يد الشاب قبل أنْ تُغلق الباب، قادمة بالعشاء الجاهز.

الحياة مهيئة لاستقبال من أخذوا كَيّاً علاجيّاً على نُدْبَة القلب

الدامية. والحمام جاهز لغسل التراب والدخان وحتى منظر المأساة المتناسلة، وقُبلات الأهل، وثرثراتهم. كلٌّ شيء جاهز لغسل الكابوس الثقيل الذي يرسله ايقاع الحياة في البلد الأصل الى الرؤوس قبل أنْ يُرهقها التفكير غير المجدي فتنام.

مجرد جولة سريعة، ببنطال من آخر خطوط الموضة، وسترة صغيرة باليَّة الأردان (كما هي الموضة). الكريم المرطِّب للبشرة في الحقيبة القماشيّة الصغيرة فوق الكتف. ولا مشكلة. قليل من المأساة، مادمت قادراً على قطعها في أيَّة لحظة. فلتأخذ كفايتك من الغرق في المأساة، مادمت تحتاج كي تتوازنَ نفسيَّاً لإلقاء نظرة على الجحيم ليس إلَّا.

سيأتي إذنْ، أو لا يأتي. لقد صدمه قطار المترو في مدينة فانكوفر، أثناء حضوره فعاليات مهرجان محلي. نزل بسبب سكره الى السكة الحديد، بعد منتصف الليل بساعة. مرَّ القطار سريعاً.

لقد غرق إذن في بحيرة قارصة، تكوَّنت حول جسده بعد انخساف لوح الجليد الشفاف الذي سار عليه سعياً وراء فُقْمَة شاردة، على بعد كليومترات عدَّة من الدائرة القطبيَّة الشماليَّة. مات وهو يريد قطف ثمرة كرز كبيرة، لم يَرَ مثلها سابقاً، في أعلى شجرة مائلة داخل غابة جنوب هولندا، بينما صديقته تتساءل عن حماسته المفرطة هذا الصباح لفعل شيء يرضيها. ينظر الى الأسفل كي يتأكَّد من الإنجاز الذي حقَّقه، ويتجاهل تقدُّمه بالسن. ينكسر الغصن اللين تحت حذائه الثقيل قبل أنْ يطال الثمرة اللامعة، ويهوي بجوار صديقته الضاحكة. يموت بينما تُفكِّر هي بأنَّه يمارس لعبة أخرى.

يتلاشى ضياء النهار، ويرتفع صوت سائقي السيارات أسفل

جسر المُشاة في باب المعظم، وهم ينادون على الخطوط التي يعملون عليها، وكأنَّهم يُحذِّرون الركاب من عدم الركوب. أضع كيس الفاكهة بين ساقي، وتستدير السيارة بنا بعنف، وكأنَّها تهرب من الليل الذي يتقدَّم بذئابه المخيفة بثبات.

يتداخل الليل مع بعضه، ويغدو ظلام الرأس أليفاً. لم أكن أفكِّر بهذه القسوة التي أصنعها، لأنَّها تتناسل من حولي، فلا تعود نسبة شيء إلى صاحبه واضحة أو مهمّة. كيف يمكن أنْ أترك عجوزاً مريضة وحدها، في عهدة نساء الجيران؟ ولكنَّه يوم عملي الأول. وهذا ما ترغبه بنِّيَّة بشدَّة. انكببت على كدس الأخبار المحليّة، ولم أرفع رأسي إلّا والوقت ينقضي. من دون أنْ أنتبه لشيء مما نضَّدته على شاشة الحاسوب. لقد وافقوا سريعاً على تعييني مع سبعة آخرين في الجريدة، من دون أسئلة كثيرة.

ترنُّ الهواتف المتروكة في أدراج استعلامات الجريدة للأشخاص الزائرين، تحتشد أحياناً مثل جوقة جماعيَّة ثمَّ تهدأ. ويتناهى إليَّ كلُّ شيء من الشباك المجاور، فاستعيد مشهداً مَرَّ في ذهني اثناء النهار. وأتساءل من جديد عمَّا يفعله حميد في هذه الأوقات.

.. يرنُّ الهاتف المحمول الموضوع على الطاولة الخشبيّة في الحانة المضبَّبة بدخان السجائر، ويقرأ حميد اسم صديقه على الشاشة الصفراء، فيعرف بأنَّه لن يجيءَ. إنَّه يتصل ليخبره بتعذر المجيء. اللعنة. يحتسي ما تبقَّى في كأسه، وينظر بلا مبالاة نحو البار العريض، الى مؤخرات الجالسين على الكراسي الطويلة، ويستمرُّ الهاتف بالاهتزاز الصامت على الطاولة.

في هذه الأثناء كان الصديق المتأخِّر يتقدَّم بخطى واسعة من

الباب الزجاجي، ويفتح، وهو يلهث، اللفافة الصوفيّة الطويلة عن عنقه قبل أنْ يدخل.

وأكون أنا في طريق العودة، بينما تحتشد صديقات بنيَّة عند رأسها، يدخِّنَّ ويتناقلن اخبار الجيران. أنظر من وراء زجاج (الكيا) المضبَّب بأنفاس الركاب، وأفكِّر، وأنا استعيد جوقة موبايلات الظهيرة في ذهني، بذلك الاحتمال النادر من بين ملايين الإحتمالات لتداخل لحظتين. فأرى كُتَلاً غائمة، وافترض أنَّ السيارة الصغيرة اخترقت الضباب الكثيف بين عالمين وها أنذا ألمح لثانيةٍ المقطع الجانبي لوجه الصديق المتأخِّر عن موعد لقائه مع حميد. إنَّه صديق لمدير سيرك جوال، يفكِّر حميد بالعمل معه. دفع هذا الصديق فرضة الباب الثقيل بهدوء، وأنارت اضواء سيارات بعيدة وجهه الجانبي. كم بدا لي هذا الرجل يشبه حميد كثيراً.

الفصل الرابع

حميد وهاميت

[أَحْبَبْتُهَا، نَفْسِي، هَكَذَا، مِنْ دُوْنِ أَنْ يَكُوْنَ لَدَيَّ يَقِيْنٌ بِمَعْرِفَتِهَا، فَالْمَعْرِفَةُ تُفْسِدُ الْمَحَبَّةَ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ..؟]

هاميت

لا اريد أنْ أربككم. ولكنّني مجرد طيف يرافق حميد في حِلِّه وترحاله. وقد منحت داخل هذه الحكاية سلطة أنْ أروي قصَّته بدلاً منه، لأنِّي ربَّما الشخص الأكثر حُرْيَة. فالحكاية الجيدة تحتاج راوياً حُرَّاً، لا يخشى من شيء أو من أحد. . أليس كذلك؟!

الأمر معكم سيغدو مثل كابوس صغير، ولكنِّي لا أشعر به، لأنِّي لا أخشى على شيء. لا أملك أيَّ شيء أصلاً. أنا لا شيء تقريباً، لولا هذه المنحة الإلهية التي تدفعني للتحدث الآن. أنا الصوت الذي كان في رأس حميد، وتجسَّد أمامه الآن بشراً سويَّاً.

* * *

كان ينتظر ذلك الرجل الذي حدَّثه عن السيرك الجوال. وقد ألغى فجأةً موعده معه بسبب انشغال طارئ. لذا بدا كئيباً ومضغوطاً حول ذاته حين دخلت عليه الحانة. واتضح ليَ أنَّه بدأ يشرب مبكراً هذه الليلة. قال وهو يحرِّك بيده كأس البراندي على الطاولة، إنَّها الذكرى العاشرة لإقامته في هذه المدينة الباردة، اليوم أكمل عشر سنوات هنا. ولم يبدُ لي أنَّه وقع على اكتشاف سعيد.

كان يبتهج أنَّ الناس هنا يسمُّونه (هاميت) في تحريف لاسمه الاصلي (حميد). ويكرِّر أمام الآخرين حكاية اسم والدته الذي يرتبط بنوع مألوف من أسماك النهر العراقيّة. العراقيون ينظرون الى هذه السمكة على أنَّها الأجمل في النهر، وبعض أجمل البنات كانت تُسمَّى في الجنوب العراقي بـ(بنَّيَّة). أتذكَّر أنَّ ذلك كان أول ما واجهني به، أنا أيضاً، بعد اكتشافي لنفسي، وبدا الامر بقيمة أيٍّ بداية أخرى لعلاقة بين شخصين.

أتمَّ عشاءه ثمَّ خرجنا من حانة ومطعم (لو وان تي) الصيني فضرب البرد وجوهنا المكشوفة بقسوة. توقَّف عن الكلام، وأحكم غطاء الرأس في معطفه السميك، متجاهلاً أنَّ السائرين بجوارنا على الرصيف من سكان هذه المدينة لا يشعرون بالبرد الشديد.

عبرنا شارع (چاينيز ريفر) بخطوات خدرة، وبقينا نتسكَّع على الرصيف المقابل، مثل عجوزين يريضان نفسيهما على طريق اعتادا المرور عليه مئات المرَّات. كنت مخدَّراً، مثل سكِّير بدأ يعبر حدود شربه المعتادة، وكنت أراه يمرُّ بشيء مشابه.

تطوَّحت يده في الهواء كأنَّه يريد رمي شيء، لكنَّها تخاذلت ثمَّ ارتكنت جانباً، وخطا بفتور على حاجز من القرميد المصفوف. وبقيت أسير على حافة الشارع، من دون أنْ أرتقي الرصيف، كُنَّا جسمين مناسبين لإشعار الآخرين بأنَّ حياة ما تمضي على هذا الشارع لا أكثر.

لقد شاهد مساء البارحة وجه أمّه هذه، التي اسمها على اسم سمكة عراقيّة شهيرة، في التلفزيون على الفوكس نيوز وهي تلعن الاميركان، ملفوفة الرأس بعصابة بيضاء، في ردهة مستشفى خانقة بين أجساد نساء واطفال من مدينته. قُتِلَ الكثيرون من الأهالي

خلال أيام معدودة جراء مواجهات عقيمة، ولا يثق أحد هنا أنَّ الأنباء تذكُرُ الأعداد الدقيقة لضحايا هذه المواجهات من كلا الطرفين.

غزته هذه الأمُّ في منفاه. وصلت اليه، بعد أنْ قطع الصلة مع صورتها ونبرتها وتغضنات وجهها، وكلِّ شيءٍ فيها. لقد اقتحمت عالمه الساكن، الذي يسير بوتيرة منتظمة منذُ أنْ وصل هذه البلاد وسكن هذه المدينة، قبل عشر سنوات تقريباً.

لماذا لم يتعامل مع صورتها في التقرير الإخباري كما يتعامل عادةً مع التلاحق اللانهائي لصور بشر آخرين يقذف بهم التلفزيون بكلِّ قنواته على مدار الساعة؟

بإمكاننا منع أنفسنا من رؤية شيء ما، وحينها لن يكون له مكان في الذاكرة، أو حتى في نفاية الذاكرة المطْمورة في اللاوعي. أما حين نرى هذا الشيء، فلن نتخلَّص منه بعدها ابداً. وهذه الحقيقة تُفسِّر وضع حميد. لقد استعاد بعنف، ومن دون إرادة منه، خزين صور كان مطموراً في غياهب ذاكرته، أو أنَّه شاهد فجأةً، بتفاصيل أكثر، ما كان صورة شبحيَّة تضمر مع الايام.

وصلنا الى حدود مصنع العُلب البلاستيكيّة، وهناك توقفنا، وظلَّ حميد يدعك فروة شعره الطويل بيديه. ثمَّ، من دون أنْ يعيد غطاء الرأس الثقيل، عاد أدراجه، واثقاً من كوني سألحقه طائعاً مثل كلبٍ وفيٍّ مع سيده.

* * *

ولكنِّي أنا أيضاً اسمي حميد، ويسمِّيني الاهالي في منطقة (ستورمز وايت) التي اسكنها باسم اكثر خِفَّة: هاميت. وعلى

العكس من صديقي الذي اسمه على اسمي، لا أفكِّر بغموض اتجاه حياتي، واستعمل مفردات واضحة فقط في تحديد شؤوني. لهذا السبب اجد دائماً بيسر وسهولة مبرِّراً لافتتاح يوم جديد. انهض في السادسة والنصف صباحاً على صوت المنبِّه، أجبرت نفسي على النهوض فور سماع هذا الصوت، من دون أنْ أتيح لأوهامي أيَّة فرصة. أجبرت جسدي على ذلك، كي امتلك الثقة الكافية لممارسة حياة تشبه حياة الآخرين من حولي.

آخذ دشّاً بارداً، كي اطرد النعاس نهائيّاً، ثمَّ أقلي بيضة غير مخفوقة، وآكلها مع قطعة من الجبن الابيض وخبز قليل التحميص. أشرب شايي، وانزل من سُلَّم العمارة، فأنا لا استخدم المصعد إلَّا للصعود. اختطف دراجتي الهوائيّة من المرآب، واندفع بها على رصيف الشارع المؤدي الى المحميّة الطبيعيّة المجاورة.

لا يستمرُّ التريُّض سوى عشرين دقيقة، أعود بعدها الى شُقَّتي ثانيةً لأشرب كوباً كبيراً من العصير، وأغيِّر ملابسي لأتوجه الى عملي كصباغ للمباني.

استطعت مؤخراً تطوير مهنتي، فانا قادر الآن على فرش الورق الملوَّن على الجدران والسقوف بالغراء. ويمتدح زملائي دائماً دِقَّتي في العمل، حتى غدوت مشهوراً نوعاً ما في المقاطعة الصغيرة التي اسكنها. وارى أنِ السبب في ذلك عائد لكوني لا أفكِّر بترك هذا العمل ابداً، لذا فأنا أتذكَّر خبراتي الصغيرة فيه مع تقدُّم الزمن، على العكس من زملائي الذين يرون في ارتقاء السلالم الخشبيّة وخلط الاصباغ، وشمِّ روائحها المختلفة، نوعاً من العقوبة لا يستحقونها، بل يستحقون عملاً افضل، بأجر أعلى، وأوقات راحة أطول، واحترام أكثر.

وما الذي يشغلني أنا من أحلام هؤلاء الرجال. في الحقيقة.. لا شيء. أنا أفكِّر بالذوبان مع الزمن، والاندساس في نهاية فيلمي القصير، تحت شجرة سنديان كبيرة، مع رقعة لا تحوي سوى اسمي المستعار، الذي اعرف به في هذه الحكاية. فالرجل الذي كنته اختفى منذ سنوات طويلة. ربَّما دُفِنَ في ارض موطنه، ولا تربطني به صلة الآن. أنا شخص أعيش في الهنانك، وأرغب، صادقاً، أنْ أموت وأدفن في الهنانك أيضاً.

* * *

كان النهار نسياناً، والليل تذكُّراً. كنت اعمل على سُلَّمي الخشبي طوال النهار، وأتناول في المطعم الصيني عند شارع (چاينيز ريفر) وجبة الغداء. أسترق النظر الى ليوبليانا، الفتاة البوسنيّة الصغيرة ذات الوجه الاحمر المنمش، وهي تدور بين الطاولات، ثمَّ أرجع لاقضي فترة ما بعد الظهر في العمل ثانيةً.

كان النهار نسياناً، وكان (هو) يقضي أغلب ساعات النهار نائماً، وحين يستيقظ عند الظهر يُعِدُّ وجبة سريعة ويأكلها أمام جهاز الحاسوب من دون اهتمام. وقد يمدَّ يده، في لحظة سهو، الى علبة بيرة، ويرتشف منها بهدوء، حتى يكتشف بعد وقت أنَّه قضى عليها من دون أنْ ينوي ذلك.

كان يقسم المبلغ الشهري الذي يُمنح له بين اجور الانترنت والخمرة، وحين ينتهي نسيان النهار نجلس في الليل أمام مائدة واطئة في شقّتنا الصغيرة. يفتح العلب والقناني كلَّها، في إشارة أكيدة أنَّنا سنشربها ولا ريب. ويقلِّب قنوات التلفزيون بحثاً عن أغنيات صاخبة. ومع دخولنا التدريجي خلف غمامة السُكْرِ، أتذكَّر

الجبل والأشجار المثمرة. والجوز بلحائه الاحمر اللين، وهو يتدحرج من الاشجار الداكنة نحو الوادي. أتذكَّر الاحجار القاسية، يعبث بثباتها ماء شديد الصفاء. أتذكَّر حنجرة أبي التي تجلب بتنغيمها العالم الى قدميه، تسحب الوديان البعيدة بنداءٍ غامض كثيف، كي تنحشر في حنجرته قبل أنْ تميد الارض بصوته المتمايل، لتقفل حلقة الزمن دورانها ويتناثر الطلع في اختتام آهته المديدة.

أتذكَّر، أو أنَّني ارتحل الى (هناك) عنوةً. أتعذَّب وأفرح، وأدهش من الفرح والعذاب، وتُقْطَعُ السبل بيني ونفسي بعد ساعتين من الشراب.

في تلك اللحظات كان صنبور الكلمات ينفجر على شفتيه، فيتحوَّل الى كائن آخر، ربَّما كان مُخَبَّأً في زجاجة الوايت هورس التي بيننا.

غدونا مثل ممثلين في مسرحية صغيرة، نكرِّرها كلَّ يوم، يسرد أمامي حكايات عديدة، كأنَّه بئر لحكايات لا تنتهي، وأنا دائم التورُّط فيها. ويُذكِّرني بحوادث وأشياء لا أعرف متى كنت شاهداً عليها. ويعزِّز صمتي من تورطي في هذه الحكايات. ولأنَّ النهار نسيان مطبق، فقد كنت لا أثق إلّا بالنهار، وكانت الثرثرات والزجاجات الفارغة تكنسها الرياح الصباحيّة والضوء البارد.

لا أستطيع تَذَكُّر المرَّات التي سقط فيها تحت وطأة سُكْرٍ ثقيل، فقد كنت أسبقه دائماً في هذه القضيّة، فما بين تعب النهار وانشداد جسدي المؤلم لصبغ الأسقف والحيطان العالية، ولأنِّي احتاج للاستيقاظ مبكراً، لا أجد أمامي أيَّ فرصة للسهر الطويل.

هل يستمر في الثرثرة معي بعد ذهابي للنوم؟ لا أعرف. ولكنَّنا

لم نكنْ ثلاثة. كنت الوجه الذي يتقبَّل طائعاً ذلك القناع الذي يفرضه في لحظة ما. فلا تعود ملامحي الغائبة تحته مهمّة لأيٍّ أحد. حتى أنَّه يمتنع مع تلك اللحظة المرهفة وغير المحسوسة عن نطق اسمي. كان الليل إذن ليله، وسلب منِّي ذلك سلطة التذكُّر، ولم أعترض، ما دام النهار نسياناً مطبقاً.

انا الآن حين اتحدَّث، لست وفيَّاً لمشاغلي، حتى أنِّي فشلت في استعادة ليوبليانا في أيِّ ليلة من لياليَّ. بقيت تلك الفتاة مربوطة الى المطعم الصيني، وآكل انا صورتها بعينيَّ مع السوشي والخمرة البيضاء على طاولتي، لتختفي حالما أخرج للهواء والشوارع النهاريَّة، عائداً الى اصباغي وجدراني وسلالمي الخشبيّة.

أنطلق من الليل، في رحلة داخل رأسه، ذلك الرأس الذي يحمل حياةً أخرى لم تمت جيداً، ومنعت أيَّ حياة أخرى من البزوغ.

في أحيان كثيرة أصدق ادعاءاته، وأسمح لنفسي أنْ تغادر بعيداً. تنفلت من دون نيَّة الرجوع،

وأقول بعد رشفة مرّة: لم لا.. ربما كنت شبحاً لفكرة غير ناضجة، لا أتجسد واتمرأى إلا في ساعة الليل هذه. وما سوى ذلك فانا نسيان مطبق. لا يحوي شيئاً، قذفت بي الصُّدْفة الى هذا المكان القصيّ، بعيداً عن جبالي، وأشجار جوزي، وصوت الآهة المديدة من حَنْجَرة أبي، التي تخلق معنىً راسخاً للوديان والحقول من حوله.

* * *

إنَّه شيء غريب، أنْ نندفع لمغادرة الحياة التي هي حياتنا، أو

نستمرَّ فيها بطاقة المغادرة، والحقد عليها وهي تلتصق بنا. ولن يغدو مهمّاً بعد ذلك نوع الحياة التي تكون في الأمام، مادامت لا تشبه شيئاً من حياتنا.

شخصيّاً، لا أحتاج الى هذا التفسير، لأنّي مؤمن أنَّ تفسير حياتي يُفسدها. مؤمن كذلك، بأنَّ الطاقة الحيويّة للحياة، خارج تفكيري وإدراكي، تُصحِّح نفسها دائماً، من دون الحاجة لمعونة منّي. التفسير نحتاجه من أجل خيالاتنا ليس إلّا، وأوهام الطمأنينة.

لقد قطع رفيقي حياته وأبتدأ حياةً جديدةً بطاقة الحقد، التي غطَّت بموجها كلَّ شيء، وها هو الموج ينحسر لتطفو صورة أمّه مع مجموعة اخرى محتشدة من صور ظنَّ أنَّها تلاشت قبل عشر سنوات.

* * *

أقود ليوبليانا الى شُقَّتي. أفتح الباب لهذه الفتاة المكوَّرة الصغيرة، ذات الوجه الدمويِّ والشعر المتموِّج الملفوف مثل كُرة في قفا رأسها. أقود ليوبليانا، ولم لا؟

إنَّه هو من يُفكِّر بذلك ولست انا. حتى أنَّه يفسح لنا الطريق نحو مطبخنا الصغير. لا يجلس الى طاولة الطعام معنا. ويبقى مثل شبح يَتَخَطَّفُ في الشُقَّة، ما بين الشُرْفَة والحمام وغُرْفَة النوم. ثمَّ تسألني ليوبليانا بلَكْنَة طفوليّة عن سبب تلفُّتي في الشُقَّة الفارغة.

ـ هل هنالك شيء؟

تسأل ببراءة. فابتسم مادّاً يدي الى يدها المدوَّرة الصغيرة المهْمَلَة على غطاء الطاولة.

كان التلفزيون يعرض نشرة الأنباء على الفوكس نيوز، ولم تكنْ ليوبليانا تنظر الى شيء، وكنت انظر الى شعرها الأحمر المصفوف بعناية. لم تكنْ تنظر، كانت تنتظر.

وفكَّرت ثانيةً أنَّني أقود الحكاية الى نهايتها، ستحترق الفراشة إذن. ولن أرى بعد الآن حول المصباح أيَّة فراشة تدور بشهوة حول اللهب المنير.. آه.

بماذا سيفكِّر عامل طلاء في فترة الغداء عند اقرب مطعم سيئ لا يوجد غيره قرب مكان عمله بعد الآن؟ لن توجد ليوبليانا أخرى بالطبع. وهذه التي أمامي ستفرد ساقيها بعد دقائق، عاريةً تحت عُرْيي، أجوسُ في لحمها الدافئ، قابضاً على ذاتي التي دُفِنَتْ في ذاتها منذُ زمن سحيق.

أعرف أنَّ هذا التفكير ينتجه الخوف من الحياة، الحياة التي تنبثق من أجل أنْ تتلاشى، وليس من أجل شيء آخر... الخلود، السرمديّة، الثبات في سعادة مركَّزة. لا يمكن أنْ يحدث هذا أبداً. وعليَّ أنْ أتوحَّد مع الحياة التي تنبثق بقوَّة نحو الموت.

أضرب بالفرشاة كتلة الدهان السائلة، وأفرشها على الحائط العاري، وأفكِّر ثانيةً، بادئاً من نقطة البداية، فأنا خلال النهار لا أملك الوقت الكافي للتفكير بأشياء مهمّة، تماما كما يحدث لليوبليانا، التي لا أعرف بالضبط الوقت الذي تغادر فيه عملها، وفرصة لقائنا بسبب ذلك لا تبدو ميسورة.

إنَّها فرصةٌ ممكنةٌ لصاحبي الذي لا يكادُ يعمل شيئاً، والذي يستيقظ في هذه الأثناء من نومه الثقيل، جالساً امام شاشة الحاسوب. ولأنِّي امتنعت منذُ أسبوع عن الغداء في ذلك المطعم الصينيّ ذي الطعام السيئ، فإنَّ ليوبليانا في يوم اجازتها

الأسبوعي، تسأل زملائي الصباغين عنِّي، وتقودها قدماها الهاربتان من الرتابة وألبوم وجوه الصينيّين الباهتة الى شُقَّتي، تتردَّد قليلاً ولكنَّها ترغب بمفاجأتي، ولا يسعى أيٌّ من زملائي الصّبَّاغين الى تنبيهها، بأنِّي في العمل الآن ولست في إجازة مثلها.

ما الذي اريد الوصول إليه؟ حسن.. يفتح صديقي الباب لليوبليانا وحين تسأله عنِّي يضحك في وجهها قائلاً:

ـ آه.. إنَّه شخصٌ خياليٌّ غير موجود. إنَّه في الحقيقة الشبح الذي يرافق حياتي لا أكثر.

وحين ترتسم على وجه ليوبليانا علامات الدهْشَة، يستثمر (هو) إشارة الفضول التي تبدَّت في وقفتها الصامتة، ليدعوها للدخول حتى يشرح لها القصَّة.

والقصَّة طبعاً، يمكن أنْ نشاهدها الآن جميعاً، حين تضعون وفي هذه اللحظة أيَّ قُرْصٍ صلب لفيلم بورنوغرافي.

* * *

أنا شخصٌ خياليٌّ. كم يبدو هذا مصيراً خانقاً وغير رحيم. ولكنَّه يُمثِّل في الوقت نفسه الحدود القصوى للحريَّة بالنسبة لي، فما التبعات التي تترتب على أعمال شخص غير موجود، وما الهدف السامي لأفعال رجل لا أثر له؟

أنا أتحرَّك ـ مرافقاً حياته ـ على هذه الحافَّة البرزخيَّة، متابعاً مزاجه المتحوِّل، من دون تَذَمُّر أو شكاية. ولكنَّه لا يعرف أنَّني لم أعد طوع أمره تماماً، واكتسبت شخصيّة مستقلَّة على هامش ما يعرفه من حياتي ومسالكها. لقد أحببت نفسي. وهذا ما لم يدركه بعد. أحببتها، هذه التي لا وجود لها، والتي لا أمل بوجودها،

والتي لن ينفعني أنْ أجدها في نهاية المطاف، حين ينتهي الطريق بكلِّ شيء، ويتوقَّف كورال الحياة عن الإنشاد، ويُقْفِرُ المشهد الذي أمامي، وأُتْرَكُ وحيداً مع نفسي التي عرفتها أخيراً.

أحببتها، هكذا، من دون أنْ يكون لديَّ يقينٌ بمعرفتها، فالمعرفة تُفْسِدُ المَحَبَّة. أليس كذلك..؟

كان يُجرجرني خلفه، ويغوص في مفازات ومتاهات لا حصر لها، وكان كارهاً لنفسه حَدَّ الموت، وكنت صورة لذاته التي يكرهها، لذا كان يُكيل لِيَ كلَّ ليلة أقذع الشتائم، ويصفني بأرذل الصفات، وكنت أتقبَّل ذلك منه، لأنِّي أعرف بأنَّ القضيّة لا تخصُّني في النهاية وإنَّما تخصُّ نفسه المعكوسة في المرآة، والتي يظنُّ أنَّها صارت بعيدةً بما يناسب صورة في الذاكرة، وليس ما تعكسه المرايا وواجهات المحال التجاريّة وزجاج السيارات أمام عينيه خلال الليل والنهار.

حتى أنَّه غيَّر اسمه في النهاية، وترك لي اسمه القديم، فغدا هو (هاميت) وأصبحت أنا (حميد). لقد اوجدني كي يلمس بثقة صورته الجديدة من خلال صورة أخرى تزداد بشاعةً وفقراً وخراباً كلَّ يوم، فيرى تقدُّمه في النصاعة والألق والنمو. لذا لا تهربوا رجاءً حين تجمعكم صدفة منحوسة بشخصي الرجيم، فأنا لست ما ترون أبداً، أنا ذلك الذي لم تروه، أنا الصورة الرابضة في أعماقه، ولربَّما في أعماقكم. أنا ذاكرة الحياة السيئة التي لا تريد أنْ تموت.

* * *

يُدخل يده تحت الفَانيلا ويَقبض بهدوءٍ على خاصرتها الليِّنة. بينما يده الثانية تُداعب شعرها المتموِّج الأحمر. يُفكِّر ثانيةً بهذا

الطقس الذي شاهده آلاف المرَّات. ربَّما تَكْمُنُ الآن في مكان ما كاميرا تُوثِّق هذا المشهد بالغ التكلُّف، حتى ليقترب من كونه مثاليّاً. ولكنّي أراقب بصمت ما يفعله بهذه الفتاة الضئيلة، وكيف يُقرِّب شفتيه منها، بينما تضغط بيدها الصغيرة على صدره وكأنَّها تُحاول إبعاده، ولكنْ من دون فائدة. إنَّه يقترب أكثر، والأضواء الساطعة لشُقَّتنا الصغيرة تكشف كلَّ شيء أمام صانعي فيلمنا الصغير.

تتحرَّك الكاميرا المجهولة لتنزلق تحت وقفتهما غير المتوازنة، وترينا انطباق الشفتين بحُمَّى قُبْلَة لا تريد أنْ تنتهي، وقبل أنْ ينتهي المشهد القصير تتوقف الكاميرا بلقطة مقرَّبة على يدها الصغيرة المتشنِّجة وهي تدفع جسده من دون فائدة.

أشحت ببصري بعيداً، فلقد شاهدت هذا المشهد سابقاً، إنَّه يُكرِّر بحرفيّة عالية الصيغة النمطيّة لمشاهد الإثارة. ومع صوتها المختنق بكلمات غير مفهومة أستشعر الاقتراب المحموم من مشهد الاغتصاب.

ما الذي قادها الى هذه الشُقَّة إذاً؟ لماذا جاءت معه إذا لم تكنْ ترغب بما يقوم به الآن؟ عجيب. دفعته بقوَّة، لكنَّه سحبها معه على الكَنبَة المنجَّدَة.

بعد عشرين دقيقةً كان يغسل عضوه على المغسلة، بينما ترتدي هي على عجل سروالها الجينز، وتبحث عن حقيبتها. لم تتركه يعود الى الصالة لكي تودعه، وسمع، وهو في الحمام يعصر عضوه من الماء البارد، صوت انصفاق الباب.

لم يبدُ على وجهه أيُّ تعبيرٍ حين جلس عاري الساقين بعضوٍ مُرْتَخٍ داكن اللون على الكنبة المنجَّدة، يرفع المنظِّم بيده ويفتح

جهاز التلفزيون. كنت غائباً هناك، أرقد في زجاجة الموتاي الموضوعة على المنضدة الزجاجيّة بثبات، والتي كانت جزءاً من حفلته مع ليوبليانا التي لم تكتمل كما يبدو.

كان لديَّ تفسير بالغ الدراميّة لهروب ليوبليانا المبكر، جعله ينظر إليَّ باستغراب، وكأنَّ عينيه الجاحظتين تَنْعَتَاني بالكذب والافتراء. قلت له: لقد اغتصبت الفتاة يا صديقي، ولأنَّها طفلة بوسنيّة ساذجة، فلن تُطالبك بحقوقها في المحاكم. لقد نجت من كوارث كبيرة في بلادها، واستطاعت الفرار بمساعدة الأمم المتحدة لكي تغدو مواطنة أميركيّة في نهاية المطاف. هنا نزعت حجابها وارتدت الجينز، وأنت نزعت بكارتها عُنْوَةً هذه الليلة يا صديقي.

سكب ما تبقى في زجاجة الموتاي في كأسه ثمَّ تجرعه دفعةً واحدةً، وقال وهو ينهض بجسد مثقل وعضو عارٍ ومجعَّد:

ـ بل هي أميركا. أميركا من اغتصبت ليوبليانا وليس أنا. لقد قامت أميركا من خلالي ومن خلالها بما يقوم به الأميركيون في كلِّ لحظة.

* * *

رغم ذلك فقد أحبَّ ما فعله، وسحب كرسيه المدولب وظلَّ حتى ساعة متأخِّرة يُتَكْتِكُ على الحاسوب. كنت هناك نائماً على الكنبة المنجَّدة، أحلم بامرأةٍ تُطرق الشباك في ظهيرة حامية، حيث الأناس الكبار في العائلة نائمون في الهول على هدير مبرِّدة الهواء، بينما حشرتُ نفسي في غرفة تحت المروحة أقرأ في كتابٍ سميك. رفعت رأسي على صوت الطَّرَقَات الخفيضة. وشاهدت وجهها

يبتسمُ من فُرْجَة عباءتها حائلة اللون. ثمَّ شاهدتها تَمْرِقُ مختفيةً، فصفع وجهي ضوء الظهيرة الحامي.

انقلبتُ على الكنبة وكدت أسقط، لكنَّه كان يتكتك على الحاسبة بنشاط، ويدوِّن ما حدث هذه الليلة، ربَّما كتب شيئاً يتعلَّق بحلمي غير المفهوم أيضاً.

شاهدتها ثانيةً، تسحبني من يدي الى المراحيض، والأناس الكبار في العائلة، عائلتها، يخدرون تدريجياً تحت الهواء المبلَّل بالرطوبة لمبرِّدة الصيف. ركنتْ جسدي الضئيل على الحائط غير المكسوِّ للمراحيض، وغزتْ أنفي رائحة خَرَاء بائت، حين كبستْ بشفتيها الساخنتين على شفتي. ظلَّت تُقَبِّلُني وتضغط بجسدها على جسدي، بينما داهمتْ عضوي المنتصب الصغير رغبةٌ حَرَّاقة للتبول.

ضربَ على لوحة المفاتيح كلماتَهُ الأخيرة لهذه الليلة، وظلَّ رأسُه يَنُوْدُ يميناً وشمالاً، وأحسست بأنَّه لم يعد قادراً على إبصار ما يكتبه بوضوح. أخبرته بأحلامي المتقطِّعة على الكنبة المنجَّدة، حين شاهدته يقفل الحاسوب ويذهب باتّجاه المطبخ. عاد بقنينة ماء معدنيٍّ وظلَّ يرشفُ منها وهو يتقدَّم نحو غرفة نومه. قال لي بأنَّها البقايا التالفة من أحلامه. كان قد حلم سابقاً بشيء مشابه، قبل أنْ يُلقي عليَّ بنفاية ذاكرته. شعرت بحزن طفيف لصورة الفتاة التي قَبَّلَتْنِي [أقصد قَبَّلَتْهُ في حلمه هو]، وداهمني شوق لإكمال ما رأيت. تخيَّلت أنَّها موجودة هناك حيث أنظر، على الكنبة المنجَّدة في صالة شُقَّتنا الصغيرة، تَفْرِدُ ساقيها لي أنا. من المؤكَّد أنَّه لم يحضَ منها بأكثر مما رأيت. ولكنِّي شخص غير موجود، وأجد ألفةً مع أشباهي، خصوصاً هذه الفتاة، التي تُغلق مصباح الصالة

الآن، وتسحبني اليها، داخل فيلم بورنوغرافي لم يَرَهُ أحد من قبل.

* * *

أنا هاميت إذنْ، مخلوق من كلمات، وصورة تكتسب قوتها داخل مخيَّلة حميد فحسب. وحين أتجوَّل في الشوارع عند رأس السنة، أو في عيد القدِّيسين، أو حتى في مهرجان سنة القرد الصينيّة، لا يستطيع أحد رؤيتي أبداً، ويمرُّ المحتفلون من خلالي، أكون هؤلاء المحتفلين الذين لا يكفُّون عن اختراقي لأجزاء من الثانية.

أعرف تماماً أنَّ ذاكرتي مستعارة من شخص آخر، اكثر حياةً منِّي، وترونه ولا ريب، وأشعر بالحنين في بعض الأحيان تجاه صور تنبثق فجأةً من هذه الذاكرة المستعارة، ولكنِّي أملك خيار التملُّص من الحنين والانفلات باتّجاه اللحظة فحسب، لأنِّي أعرف أنَّها ليست ذاكرتي، وأنِّي لست شخصاً مثلكم.

أدور داخل البرد الصقيعيّ، بملابس شبه بالية، وضعها حميد في خزانتي المفترضة، داخل الشُقَّة التي نسكن فيها معاً. انظر الى واجهات المحال، يا إلهي.. أنا قادر على رؤية هيأتي المزريّة، ولكنِّي أضحك، المشهد لا يتحمَّل أيَّة رومانتيكيّة، أهذا هو الشخص الذي يريد حميد التخلُّص منه؟! ياللمسكين.

أقف، وكأنَّني أكرِّر بعضاً من يوميّات حميد، في مواجهة معمل العُلب البلاستيكيّة، ها هنا يعمل المهاجرون الى هذا البلد. وينبثق شيءٌ ما في ذهني وأنا أراقب الدخان وهو يتصاعد من الأنابيب الضخمة في البعيد.

إنَّ حميد يريد نسيان هذه الصورة أيضاً، ويريد نسيان هذه الجولة التي قام بها سابقاً، لذا ألقى بها عليَّ، باعتباري مَقْلَعَ نفايات ذاكرته. آه.. فهمت الآن لماذا قادتْني قدماي الى هذا المكان.

لقد اشتغل حميد في هذا المعمل ولا ريب، ولن أحتاج الى تقليب ذاكرتي لأعرف ذلك، لديَّ حشد من الصور داخل المعمل، وجوه صينيّة وصوماليّة وإيرانيّة وكذلك وجه حميد، منعكساً على زجاج قاطع من الألمنيوم. إنَّه وجهي الآن طبعاً.

بوسنيُّون هربوا من مذابح التسعينيّات، وأيضاً، من دون شكٍّ، شعراء وموسيقيُّون ورسامون وفلاسفة ناشئون، يحملون الصناديق المملوءة بعُلب الزيت البلاستيكيّة الفارغة.

يجلسون فترة الغداء، كلٌّ مجموعة على حدَّة، غير عابئين بفكرة الامتزاج والاختلاط التي تقوم عليها هذه البلاد. ولربَّما تبادلوا بعض الكلمات بالعربية أو الانگليزية الركيكة، ولكنَّ هذا لا يُمَثِّل شيئاً في نهاية المطاف.

الجنس وحدَهُ من يُحطم الحواجز جميعاً، وأنا أجزم أنَّ هذه المجموعات المتباينة وهي تتقاطع في سيرها وحركتها على أرضيّة المعمل الكبير، تمتزج أحياناً وبقوَّة وواقعيّة شديدة في الخفاء، وبعيداً عن الأعْيُن، هناك على سرير ما، في غرفة أو حتى وراء شجرة وارفة في المحميّة الكبيرة للأشجار العملاقة القريبة من هذا المكان.

أنا أيضاً كنت قريباً من بعض النساء، ولكنِّي لا أستطيع تذكُّر شيءٍ أكثر خصوصيّة من ذلك، واعتقد أنَّ السبب عائد الى حميد.

لقد احتفظ بهذه الصور المثيرة لنفسه ولا ريب، وترك لي الزبالة التي تُحيط بها داخل الذاكرة.

ولكنَّ ذلك لم يجعله يغادر قنوطَهُ، وأنا أعرف السبب. إنَّ الصوماليين والصينيّين والبوسنيّين والعراقيين والايرانيين الذين هنا، مجبرون على تقليص هوياتهم وذاكراتهم الى ما يناسب التنويع على هوية هذه البلاد، لا أحد يطلب منهم ذلك بالطبع، ولكنَّ كسر الحواجز والاندماج مع المحيط يتطلَّب الخروج من قُدْسِ أقداس الهويّة، وتعريضها لتيارات هوائيّة مختلفة، وحميد يعي ذلك لذا هو فرح باسمه الجديد الذي منح له على هذه الارض (هاميت). عليه، إنْ أراد راحة أكبر، أنْ يجري، أو يشجع، على عمليات تحريف أخرى أكبر، كي لا يغدو نفسه في النهاية، أو يغدو نفساً أخرى جديدة، غير منشغلة بإعداد صورتها المتحفِّية، أقصد صورتي، استعداداً لدفنها.

* * *

إنَّه يخطط للإجهاز عليَّ. ولا يعرف أنَّني أعرف. ولكنِّي لا أكترث لما يخطط له. إنَّها مشكلته وليست مشكلتي، أنظر الى ما يفعل. وأرى أثر ذلك عليَّ كلَّ صباح أمام المغسلة في الحمام. بدا وجهي المنعكس في المرآة هذا الصباح أكثر اسوداداً من أيِّ يوم مضى. لم استطع النظر طويلاً الى الأخاديد حول عينيَّ ولحيتي النابتة، التي غطَّت بلون رماديٍّ نصف وجهي. إنَّها صورة رأيتها سابقاً، أو هي كامنة هناك في نفاية الذاكرة التي غدت ذاكرتي، والتي ألقاها عليَّ حميد ذات يوم.

صفعت وجهي بالماء، ودعكت عينيَّ. وحين مرَّرت بيديَّ

على وجهي العظميِّ المتغضِّن، شاهدت خلفي على المرآة ومن باب الحمام أشخاصاً يجوبون الشقّة، وهم يُجرجرون أكياس رمل. وحين التفتُّ شاهدت ثُلَّة من الشباب الصغار يدخِّنون عند عمود كهرباء مائل، ويضحكون، بينما تشخط السماء طائرة عموديّة.

كان الشباب الصغار يرتدون البزّات الخاكيّة، والأفق الترابي خلفهم يتهيَّج بمرور العجلات العسكريّة البعيدة. هاج التراب الناعم وغطَّى وجوه الفتيان الضاحكين.

بعدها شاهدت حميد يركض معهم، ركضوا منبثقين من غيمة التراب، ومن خلفهم غيمة سوداء جديدة وبعيدة لدخان متكاثف يتمايل منحرفاً بكتلته الضخمة مع اتّجاه الريح. غطَّى التراب ثانيةً المشهد أمامي، إثر قذيفة قريبة، وحين توضَّحت الرؤية، شاهدت حميد يقف حاسر الرأس بملابس ممزَّقة وبوجه مجعَّد مجنون خلف ضابط برتبة كبيرة، ويسدد بندقيته الى ظهره.

.. سعف حائل الخضرة، وأواني بلاستيكيّة مُلْقَاة على أرض خرسانيّة مليئة بالشقوق. طفلة بشعر مشعَّث تمصُّ كيساً مليئاً بعصير أحمرَ مثلَّج. وامرأة بوجهٍ موشوم برموز خضراء داكنة تمسك شباكاً ذهبيَّ اللون وتنادي بصوت متجرِّح مفجوع.

أمرأة بجسد ممتلئ وثوب منزليٍّ شفيف وفوطة رأس حمراء، تلوح من وراء ملابس مبلَّلة على حبال غسيل، ثمَّ المرأة نفسها في غرفة أعلى السطح، مستلقيةً على حصيرة من قماش مضفور تُكرز الحَبَّ الشمسيَّ وتنظر الى الباب المفتوح على الهاجرة، وحميد يتسوَّر الحائط غير المكسوِّ الذي يفصل بين البيتين.

حميد يستلقي على المرأة ذات الجسد الممتلئ ويدخل يده

تحت كسوتها الداخليّة، ويُمَسِّد لحمها الرطب داخل العتمة. بينما طفل رضيع يبكي هناك تحت نجوم السطح الساكنة.

كانت عيناي محمرَّتان في المرآة، والشيب يكسو فوديَّ. إنَّني أشيخ سريعاً، أتداعَى وأهرم. إنَّه شيء يُذَكِّر بـ (صورة دوريان جراي) لأوسكار وايلد.. أليس كذلك؟

سيأتي من عمله كصباغ للمباني بعد ساعتين، وحالما يدخل يأخذ دوشاً دافئاً، ثمَّ يُقرِّر شيئاً جديداً؛ سنخرج بنزهة أنا وهو سيراً على الأقدام حتى المحميّة الطبيعيّة القريبة من حيِّنَا السكني. وهناك بين الأشجار العملاقة الملْتَفَّة، والتي تحجب زُرْقَة السماء بخضرتها الداكنة، يُرديني بسكين مطبخ عريضة. وبسرعة يواري جُثَّتي بالتراب الرطب وأوراق الأشجار العفنة برتقاليّة اللون، ثمَّ يعود وحيداً من دون نفسه.

* * *

ألقى عليَّ بكنْزَة مخرَّمة، وبنطلونٍ عتيق، كان يلبسهما أيام إقامته في الأردن، حين كان يِعمل على عربة شاي في مدينة الزرقاء أثناء الليل. أنا أعرف رائحة هذه الكنزة، وأعرف لون هذا البنطلون جيداً، خصوصاً مع الأضوية الخافتة لنيونات المحال التجاريّة القريبة من عربة الشاي. أعرف العراقيين الذين يقفون ليشربوا الشاي عنده، أعرف أسماء بعضهم، وأعرف أسماء المخنَّثين جميعاً، الذين يتجوَّلون في هذه الأوقات لاصطياد رفقاءَ ليلةٍ محتملين، بل رافقت [رافق حميد] بعضهم، وبالذات مع إطلالة الفجر، حين يأتي صاحب العربة الأردني، ويتحاسب معه على عمله الليلي.

لبست الكنزة والبنطلون، فرمقني بنظرة فاحصة، وكأنَّه يريد التأكُّد من هُويتي. فكنت مع هذه الملابس صورة مكتملة بالغة الكثافة لما يريد التخلُّص منه.

أغلق باب الشقّة واستدار ليتبعني في نزولنا على السُلَّم. وعند باب العمارة صادف السيدة ليزا ايزيوولد. أزاحت هذه السيدة العجوز الشبيهة باجاثا كريستي نظارتيها لتتأمَّل حميد جيداً. ألقى التحية عليها، وعمل ذلك بأبطأ ما يمكن، مجارياً إيقاع السيدة العجوز. شدَّت على يده، ثمَّ كرَّرت أسفها للمرَّة الألف ربَّما لما يجري في العراق. وهي تأسف بالذات لأنَّ ابنها يُسهم، ككادر طبي، في جيش التحالف الرابض هناك.

ظلَّ حميد يتصنَّع الابتسام حتى انصرفت السيدة. وفكَّر من جديد بذلك الخطأ الذي وقع فيه ذات يوم، حين كشف لهذه السيدة عن أصوله. لكنَّه على ضلالة، فهو لا ينظر الى المرآة كثيراً هذه الايام، ليدرك أنَّ بشرته وسحنته تتكلَّمان وتعترفان بالنيابة عنه. لم يعد ينظر طويلاً الى المرآة، وترك هذه المهمّة لي، وكأنَّ ذلك وحده كافٍ لحذف سحنته وتقاطيع وجهه من هذا العالم نهائياً.

داسَ بحذائه الرياضي الأبيض على القرميد المصفوف للرصيف المحاذي للعمارة التي نسكن فيها، وارتسمت الآن على وجهه ابتسامة جديدة أزاحت الابتسامة المجاملة للسيدة العجوز. نظر باتّجاهي، وفهمت مغزى هذه النظرة، لأنَّ المشهد يُكرِّر نفسه:

ـ إنَّها امرأة مسكينة.

لم أجد رغبة لتكرار تعليقاتي نفسها. إنَّهم غير واقعيين، خرجوا بالآلاف المؤلَّفة في الشوارع والساحات لمناهضة الحرب

لا لشيء، إلّا لأنَّ الحرب، أيَّ حرب، هي عمل ضد النوع الإنساني، وأنْ تسير نحو حرب تعلم أنَّها ستُخلِّف ضحايا أمر غير مقبول أخلاقياً.

- إنَّهم كونيُّون وإنسانيُّون أكثر مما ينبغي.

خطر ذلك في ذهن حميد ونحن ننعطف عند تقاطع الشارع باتّجاه مقهى (ليبل كاتس). جلس على منضدة صغيرة قرب النوافذ العريضة وطلب الشاي. كان المقهى الذي يشبه مطعماً صغيراً شبه فارغ في هذه الساعة من النهار. ثلاث طاولات مشغولة بشباب صغار، وعامل المقهى البنغالي يشغل نفسه بمسح أيِّ شيء بمنشفة في يده. وحال جلوس حميد، تقدَّم باتّجاهنا وألقى التحية مع ابتسامة عريضة، تعني في الوقت نفسه؛ أنا مستعد لتقديم الخدمة يا سيدي. إنَّه العامل نفسه الذي اختبر حميد معه أولى أكاذيبه في هذه المدينة الصغيرة قبل سنوات، فقد ظنَّ هذا البنغالي أنَّ حميد من أصول مشابهة لأصوله، لكنَّ حميد صحَّح له خطأه، وصحَّحه بمبالغة، فادَّعى بأنَّه كرديٌّ من كردستان العراق، وليس له أيَّة علاقة بشبه القارة الهنديّة، حتى أنَّ اسمه في الحقيقة (هاميت). فسقطت بارتجاله لهذه الكذبة كرة ثلج، ظلَّت تتدحرج على السفح وتكبر ويتعاظم حجمها، حتى انتهى الامر بحميد الى تأليف سيرة كاملة عن أبيه ذي الشروال القهوائي العريض، وبساتين الجوز الملتفَّة على جبل سامق، بينما يظهر البيتُ الحجريُّ لحميد وعائلته عند المنحدر بجوار عين ماء تتدفَّق بعنفٍ نحو الوادي. ويبدو أنَّ حميد لم يرتحْ لهذه الكذبة، لذلك لفظها باتّجاهي، فهوت فوق ركام الصور السيئة العديدة التي غدت ذاكرتي.

وضع الخادم البنغالي قدح الشاي أمام حميد، ولم يُقدِّم لي

شيئاً بالطبع. ظلَّ حميد يرشف بهدوء وفي الخلف موسيقى كانتري خفيضة تصدر من عمق المقهى.

كان ينتظر أحد الاميركيين الذي أخبره بإمكانية العمل في سرك جوّال، وهو لا يجيد بالطبع أيّاً من الألعاب البهلوانيّة، ولكنَّ هذا السرك يحتاج الى سائق شاحنة جديد بدل رفيقهم الذي مات على المقود أثناء السير على الطريق العام بين ولايتين. ليس هناك شيءٌ مؤكَّد، وهذه الفرقة التي حضر حميد بعض عروضها، تتميَّز بقلَّة أفرادها، وتقاربهم الحميم فيما بينهم، وليس سهلاً، كما يتصوَّر حميد، أنْ يقبلوا غريباً بينهم لفترة طويلة، حتى وإنْ كان سائقاً لإحدى شاحناتهم. ولكنَّه لا يفكِّر بذلك كثيراً، عليه أنْ يُغادر معهم، وليس مهمَّاً ما يحدث بعد ذلك.

* * *

لم تكتمل صورتي لديه، لذا يبدو عليه التردُّد، مازال شيءٌ منِّي وشيءٌ منه يتداخلان، ويرفضان الانفصال تماماً. مازال يتذكَّر ما أحلم به، وأحلم بما يسعى لنسيانه، فأحكي له عمَّا رأيت، فأتلف بذلك خصوصيّة ما يفترض أنْ يكون ذاكرتي الحميمة والشخصيّة. وأُشْعِرَهُ بأنِّي أعرف ما يعرف، من دون أنْ أقصد ذلك.

لم يذهب الى عمله منذ يومين، وهاتفه زملاؤه الصباغون أكثر من مرَّة خلال النهار. وفهموا أنَّ وعْكَةً ألمّت به بشكلٍ مفاجئ. ولكنِّي أعرف ما الذي حصل بالضبط. كان يعيش تحت وطأة لحظات الاستيقاظ الأولى من النوم. حين تطول هذه اللحظات داخل أجواء من العزلة والصمت، يتخمَّر أحساس قديم ويستولي على كامل وعيك، وهذه الخميرة ذات الطعم المميَّز لم تكنْ سوى

ما شاهده في تلك الليلة المشؤومة. كان يُحرِّك بالمنظِّم قنوات التلفزيون، مسترخياً على وسائد الكنبة المنجَّدة. وكنت نائماً في زجاجة موتاي صغيرة موضوعة على الطاولة أمامه، أعطتها له ليوبليانا من بار المطعم الصيني. كنت أرقد هناك خلف الكأس الثامنة من هذا المشروب الحادِّ، وأراقب ما الذي يجري على وجه صديقي.

تلاحقت التقارير الإخباريّة في تغطيتها لأحداث المواجهات المسلَّحة في العراق، وبالذات القتال الدائر بين القوات الأميركيّة والمسلحين المحلِّيين في العاصمة العراقيّة. كان التفاؤل قد انقشع سريعاً، ولم تعد الوجوه الظاهرة على الشاشة تحيي الاميركيين كثيراً. وفقدت تلك الصورة الشهيرة للعب مجنَّدة من المارينز مع أطفال مدينة الثورة بهاءها.

تحرَّكت كاميرا الفوكس نيوز داخل بهو مستشفى شعبيٍّ شبه معتم، يكتظُّ بنساء متشحات بالعباءات ورجال ذوي دشاديش بيض. اقتربت هذه الكاميرا من أَسِرَّة مصابين نتيجة المواجهات المسلَّحة خلال الليلة الماضية. وهنا ظهر وجه امرأة عجوز ملفوف بشاش أبيض، صاحت رغم إصابتها، منتبهة لعين الكاميرا، وشتمت أميركا وقواتها بأقذع الشتائم. لقد ضربت قذيفة مجهولة المصدر المنزل المجاور لمنزلها في قطاع (٣٨)، وكانت تغسل الأواني عند حنفية البيت، فسقط جزء من جدار الجيران عليها.

جمدت عينا حميد، وسارع الى زجاجة الموتاي وسكب منها في كأس صغيرة. ورغم أنَّ وجه هذه العجوز غاب سريعاً عن شاشة التلفزيون، إلَّا أنَّ شيئاً طفا على ملامح حميد لم يتغيَّر حتى هذه اللحظة.

لقد ردمت هذه العجوز، بوجهها المليء برموز الوشم الأخضر، الهوَّة التي صنعها ببطء وجهد خلال عشر سنوات. دخلت الى رأسه مثل بكتريا دقيقة، واستقرَّت هناك، وبدأت تعمل ببطء أيضاً.

وانبثقت هذه العجوز أيضاً في أحلامي لتلك الليلة بكثافة لم أعهدها سابقاً. كانت تطاردني بنعلها البلاستيكيّ الأسود عبر السُلَّم الحجريّ لبيتنا، ولأنِّي أسرع منها فإنَّها تقذف بهذا النعل اليابس الثقيل عليَّ وأنا ارتقي بسرعة درجات السُلَّم باتّجاه السطح، وتنجح بإصابتي قبل أنْ يختفي جُرمي من أمامها.

شاهدتها تقف هناك أيضاً، بجوار يارالله وهو يذبح طيوري الحُمر الخمسة والعشرين، ويرمي بها تباعاً في طست معدنيٍّ كبيرٍ أمام البيت في زقاقنا، والأطفال والمراهقون يتجمَّعون للنظر الى هذه المجزرة في طيوري العزيزة. شاهدتها صامتةً وحياديّةً، وكأنَّها تؤيد، من دون تردد، ما يقوم به زوجها الغاضب على ابنه وطيوره المزعجة.

شاهدتها هناك عند الباب، لا تلقي بالماء خلفي وأنا التحق بيوم العسكريّة الأول الى معسكر المحاويل. كانت تنظر الى بائعة القيمر التي جلست في تلك الساعة المبكرة بجوار دكان حجي دِخِن. ألقيت بنظرة أخيرة على هيأتها الضئيلة ممسكةً فمها كالعادة وكأنَّه يُطلق رائحة قبيحة، وانتظرتُ أنْ تنظرَ إليَّ، لكنِّي كنت قد غادرتُ تماماً بالنسبة لها.

شاهدت الشوارع تفرغ من الأصدقاء، وصور الريس في كلِّ مكان. وشَحُبَ كلُّ شيء ليبدأ مشهدٌ آخر؛ أخي الصغير يودِّعني

عند گراج العلاوي. يشدُّ على يدي وينظر بحدَّة الى عينيَّ باحثاً فيهما عن يقين وعدي:

ـ ستنفذ وعدك.. حميد؟.. ستجلبني بجوارك في أيِّ بلد كنت؟

يقول ذلك، ثمَّ يقترب أكثر، كي لا تسمعه المرأة العجوز على الرصيف في الخلف:

ـ بعد موت بنيَّة ستجلبني بجوارك، أليس كذلك يا حميد؟

يختفي صوت الأخ الصغير تحت هدير محرِّك باص السفريّات الطويل الذاهب باتّجاه عمان، ثمَّ بعدها بسنتين، يختفي هذا الصوت اكثر تحت هدير طائرة البان أميركان المرتفعة من مطار الملكة عالية باتّجاه أميركا. يختفي الصوت نهائيّاً، فبنيِّة لم تمتْ كما يبدو.

* * *

بدأت النقود التي لديه بالنفاد، فهو يفرط في الشرب هذه الأيام، ولا يبدو واثقاً من شيء، حتى رغبته بالانضمام الى السيرك الجوّال بدأت بالتلاشي، فذلك الصديق الاميركي لم يقدِّمه الى اعضاء الفرقة إلَّا في اليوم الأخير لإقامتهم في المدينة. كانوا يحزمون أغراضهم، حين تقدَّم منهم حميد برفقة الرجل الاميركي، وهناك أجاب صاحب الفرقة بكلمات موجزة:

ـ بإمكان ستيوارت أنْ يقود الشاحنتين معاً.

قال ذلك ضاحكاً، ولم يفهم حميد المُزْحَة في كلام هذا الرجل. كان بحاجة الى وقت أطول كي يفهم الدواعي المهذَّبة في رفض صاحب الفرقة لتوظيف شخص جديد.

كان يعوِّل على الجولة الواسعة في أراضي الولايات المتحدة الاميركية مع هذه الفرقة، من دون أن يتأكَّد أنَّ الفرقة معنية بذرع القارة الاميركية حقَّاً في تجوالها أم لا.

يقود الشاحنة الصفراء، تلك التي مات على مقودها ذلك السائق السمين الذي لا يعرف اسمه، وينهب الطرقات الملساء الطويلة، مستخدماً المنبِّه الشبيه بصوت قاطرة لإيقاظ نفسه من الخدر أو النعاس، وليس لتنبيه السيارات الأخرى على الطريق. وما الذي يريده بعد هذه الحياة أكثر من فكرة الهرب المتصل من حياته. ولكن ذلك كلَّه لم يبدأ كحلمٍ داخل رأسه حتى. وانقشع مثل ثرثرة عجولة لأشخاص مرُّوا بجوارِه على الطريق.

إنَّه يشعر الآن بعزلة طاحنة، فليس لديه أشخاص حميمون، لأنَّه، ببساطة، لا يجد رغبة كافية للمشاركة مع الآخرين في مشاغلهم. أما النساء فالقضيّة أعقد، فهو لا يستطيع التخلُّص من صورة العلاقة العابرة، حتى أنَّه ضيَّع فرصة أو اثنتين لإقامة علاقة جادة، بسبب إحساس المرأة التي أمامه بأنَّه عابث وينظر إليها من خلال فرجها تحديداً ويهمل الأجزاء الأخرى.

اتصلت به ليوبليانا، وأخبرته بأنَّ عليه أنْ يراجع المستشفى، لأنَّه يشرب كثيراً، وربَّما غدا مدمناً من دون أنْ ينتبه، لكنَّه أخبرها بأنَّ الثلاجة فارغة، ويحتاج الى بعض النقود من أجل التسوّق. ثرثرت معه قليلاً ثمَّ صمتت، ثمَّ قالت قبل أنْ تنهي اتصالها بأنَّها سامحته، وأنَّها هي من أخطأت بحقِّه في تلك الليلة. تنفَّس بعمق عبر الهاتف لكنَّه لم يُعلِّق بشيء، وقبل أنْ يُغلق الخطَّ بهدوء كرَّر أمامها بتعب أنَّ الثلاجة فارغة. ولم تأتِ ليوبليانا الى شقّته ثانيةً، ولم تُسَلِّفْهُ النقود من أجل ملء الثلاجة.

ارتدى ملابسه، وظلَّ ينظر عبر النافذة الى الشارع والمارّة والسيارات. اشتدَّ البرد عليه، فلبس قبعة صوفيّة ونزل هابطاً على سلالم العمارة كعادته.

عاد بعد ساعتين بصندوق بيرة، وبعض المعلَّبات وكيس من الخبز، منفقاً ما تبقى لديه من نقود. ظلّ يدور في الشقّة، يفتح التلفزيون، ثمَّ يتركه، ويجلس أمام الحاسوب، ويعبث بصفحات الويب المختلفة. يفتح النافذة العريضة ويترك الهواء الجليدي يغزو الشقّة، مرتشفاً من علبة البيرة أمام العتمة الممتدَّة للشارع والحي السكني.

كانت الفوضى تضرب أطنابها في الشقّة الصغيرة، أوراق ممزَّقة، وصحف وعلب مرميّة بجوار الطاولة الوطيئة في الصالة، ملابس متسخة مرميّة في المطبخ وفي الحمام. كانت شقّة جميلة ومرتَّبة قبل أسبوع من يومنا هذا.

فتح علبة سردين وبدأ يأكل بتمهُّل وهو يتابع القنوات التلفزيونيّة ولا يثبت على واحدة، وكأنَّ إصبعه جمد على مغيِّر القنوات، وكنت هناك أربض في العلبة الثامنة، والتي يقترب منها حميد سريعاً هذه الليلة.

ظلَّ التلفزيون يقذف بالوجوه الكالحة شديدة السُمْرَة، والملفوفة بالكوفيّات. ظلَّ يقذف بالعباءات والنخل وأعمدة الكهرباء الملتوية، والحواجز الخرسانيّة والأسلاك الشائكة، ومنظر الجثث والهتافات والأفواه الصارخة، واللحى والعمائم، والبدلات المكوية جيداً، وأربطة العنق المبرَّدة، وابتسامات المطربين الوطنيين، والشوارع المزدحمة، والمتطوعين الجدد في الجيش

والشرطة، وهم يقفون في طوابير طويلة تحت الشمس الحارقة بوجوه غضّة طريّة وجائعة.

وظلَّ حميد يتحاشى كلَّ ذلك، ولكنْ ماذا يفعل مع الخبر رقم واحد في كلِّ القنوات؟

كنت حزيناً، انظر الى علب السردين والبيرة المرميّة على الأريكة والأرض والطاولة، وانظر الى حميد وهو يغالب إغفاءة سكره الثقيل. رشف ما تبقى في علبته الثامنة قبل أنْ يلقيها خلف ظهره، ثمَّ انحنى ليرفع علبة أخرى من الصندوق الصغير. في تلك الأثناء كان التلفزيون المحلي للولاية يعرض تقريراً لم يبتعد كثيراً عن العراق، ولم يكنْ حميد منتبهاً لذلك، بينما كنت اغسل وجهي في الحمام، وأحدِّق مليّاً بالآثار الجديدة التي طرأت على سُحنتي. كنت حالك السُمرة، بلحية نامية، ورأس غزاه الصَّلَع من الجانبين. كنت ارتدي وجه رجل جائع حدَّ اللعنة، ومملوءاً بخسارة حُبٍّ مرير، خرج من سجن رهيب للتوِّ، فأدركت بأنَّ رفيقي لم ينسَ شيئاً من أمري، وأنَّه رغم كلِّ شيء مازال مصرَّاً على إنهاء معركته معي.

حين دخلت الصالة بدا وجهه حاقداً، وهذا ما جعلني أكثر حزناً من أجله [من أجلي]، كنت أقترب من نهاية شوط الذاكرة التي هوت عليَّ من دون أنْ أطلب ذلك.

لم أستطع التحدُّث معه بشيء، حتى أنَّه لم يقدِّم ليَ مشروباً كعادته. جلست أمام حاسوبه، وفتحت صفحة بيضاء، وشرعت بكتابة وصيتي.

كان يتابع التقرير الذي تبثُّه القناة المحليّة للولاية، عن نجاح السلطات في استعادة عدد كبير من مسروقات المتحف العراقي، والتي عثروا عليها تباعاً لدى جنود مسافرين قادمين من العراق،

وبعض تجار التحف والآثار. كنت أسمع ما يقوله التقرير بوضوح. إنَّ متحف الولاية قرر افتتاح معرض بهذه المسروقات، من اجل إطلاع الرأي العام عليها، قبل أنْ يُعاد تسليمها الى السلطات العراقية.

قال لي من بعيد وهو يرشف من علبة في يده، بأنَّه سيذهب الى هذا المتحف، وسيطلب من المسؤولين فيه عدم إعادة الآثار المسروقة الى العراق:

ـ ستُسرق ثانيةً يا صديقي، ما الفائدة من إعادتها، إنَّهم لا يفهمون. ثمَّ ما الضير في بقائها هنا. إنَّ الملايين سيرونها في هذه البلاد، بينما هناك لا يقدرها احد، ويعتبرها في أفضل الأحوال كتلاً من الطين والحجارة، إنْ لم تعتبرها السلطات الجديدة نوعاً من الأوثان والأصنام.

أوقفت الطباعة على الصفحة البيضاء، وقلت له:

ـ إنَّها غريبة ها هنا، من الأفضل أنْ تعود، ثمَّ من سيذهب للعراق إنْ خرجت كلُّ آثاره منه؟

ـ من هو الأحمق الذي يُفكِّر بالذهاب الى العراق على أيَّة حال؟

قال ذلك بحدَّة، وأحسَّ بألمٍ مفاجئٍ لأنَّه تجرَّأ ونطق اسم هذه البلاد أخيراً. أحسَّ بوقوعه في فخٍّ كان يتهرَّب منه. فعاقب نفسه بصمت مطبق. فعدت الى الصفحة البيضاء، ودوَّنت كلماتي الأخيرة.

* * *

ها أنذا أكتب وصيتي. لأنِّي سأموت غداً شرَّ ميتة يا أمي، حتى أنَّه اشترى نهار البارحة سكين مطبخ عريضة، رغم عدم

حاجته لها. وهذه كلماتي الاخيرة، ارسلها الى العدم، لأنَّها لن تصل اليك في كلِّ الاحوال، ولن تقرئِيها. ربَّما سأجدك هناك امامي في العالم الآخر. ربَّما مُتِّ بعد ذلك المشهد الذي ظهرت فيه على شاشة الفوكس نيوز. لقد وضع سكين المطبخ الجديدة في غرفة نومه. من الذي يحتاج الى سكين مطبخ في غرفة النوم؟ إنَّ غرضه واضحٌ يا أمي. سألتقيك هناك إذنْ في العالم الآخر، أنا أشعر من دون لفٍّ أو دوران بأنَّك مُتِّ. أنا لا أشعر بك يا أمُّ.

إنَّه يسخر منِّي، رغم أنَّه من وضع كلِّ هذه الأشياء في رأسي. هذا الحنين الذي يشدُّني الى خراب الأشياء كلِّها. ما ذنبي أنا في كلِّ هذا؟

إنَّني أدور الآن في شوارع عمان. آكل اليابسة والتمن في الساحة الهاشميّة في چنبر لأحد العراقيين، وأتعارك مع عراقيين آخرين يتجمهرون أمام مكتب الأمم المتحدة، يضربني رجال الشرطة الأردنيُّون، يضربونني بقسوَّة لا مثيل لها إلَّا هناك، في المكان الذي جئت منه.

لا أتذكَّر أيّاً من إساءاتك، وتلمعين في ذاكرتي مثل ذنب عميق. انظر الى نديم فأكرهه لأنَّه صورة منِّي. أكرهه، لأنِّي أكره نفسي أكثر منه. لكنِّي لم أفعل شيئاً لإنقاذه، تركته. كنت أفكِّر بالفرار من نفسي ومنه ومنك ومن كلِّ شيء. ونجحت أخيراً، فشلت تماماً.

كيف تنظرين إليَّ الآن وبأيِّ عيون تراقبين صعودي الوشيك اليك؟ أنا أجهل تماماً، ما كنت أدَّعي أنَّني أعرفه. أجهل حياتي التي تتلاشى حَبَّات رملها الأخيرة من يدي الآن.

انظر الى وجهك الآن وأنت تَكْبِسِين ملابسي في حقيبتي

الجلديّة، وتهيئين أغراضي من اجل رحيلي المبرم. لم يُخبرك نديم طبعاً بأنّي لن أعود من عمان أبداً. وأنّي سأحَلّق بعيداً عن هذه الأرض الناريّة التي شَوَتْ قدميَّ الحافيتين. كنت أفكِّر منذ سنين طويلة وانتظر. ولكنّي يئست، فقد نزل الإله شخصيّاً على الأرض لابساً البيريه.

استقبلي ولدك الآن يا أمي، ولا تنظري لما تبقّى منّي على الأرض، فجسدي لن يُدفن الآن، وسيشغله شخص آخر لفترة من الزمن، تَقَبَّلِي الأمر، سيشغل جسدي، ذلك الذي قتلني يا أمُّ.

* * *

ترمّدت السماء بلون الفجر الشاحب، وكنت نائماً هناك، في الذاكرة، أو تحت سطوة سُكر مرتبك. انظر بعينين شبه مغمضتين الى صور تتطيّف بألوان شتى، ولا تبينُ معالمها أبداً. أغمض واستعيد من دون مشقّة الصور الحلميّة التي غادرتني للتوّ. أنا هناك بكنزة مخرّمة، وبنطلون عتيق عند عربة الشاي، أتحاسب مع صاحب العربة الأردني، وأخبره بأنّي سأترك العمل. لم يُعَلِّق بشيء وتركني ابتعد في برودة الفجر نحو الشارع البعيد. إلتفتُّ إليه فوجدته يعدُّ النقود صامتاً، فتيقّنت أنّه نسيني الآن. وغداً سيباشر عراقيٌّ آخر على عربة الشاي هذه.

تلقّفتُ جوازي من رجل الأمن الأردني. كان وجهه يبصق في وجوه الناظرين اليه تلقائيّاً، حتى من دون أنْ يُتعب نفسه بفتح شفتيه، لكنّها بصقة أخيرة على أيّة حال، ترتدُّ تلقائيّاً أيضاً الى وجه ضابط الأمن المتيبِّس، والمعجون بمنقوع كُرْهِ العراقيين. إنَّها بصقة أخيرة، يرمي بها هذا البلد عليَّ، وسترتدُّ إليه حتماً، لأنّي لن أكون

موجوداً لأتلقَّفها. ها أنذا أرتقي سلالم الطائرة الضخمة، مسكوناً بداء التلفُّت، رغم أنَّ المتلفِّت لا يصل كما يقول الشافعيُّ، ولكنِّي أهجس بما يستحقُّ الوداع، وأبحث عنه. أيَّتها الأشجار، السماء، الطرقات، البيوت المرفوعة على منحدرات السفوح القاسية، الوجوه، آه. . الوجوه، أيُّها يستحقُّ إلتفاتة أخيرة. (سوزان) الذي أخلص معي، أكثر من أيِّ عراقي أو أردني أو سوداني، آه يا سوزان، أنا مدينٌ لك بالتفاتة أخيرةٍ، ولكنَّك الآن تغفو بعمق مولِّيّاً دُبرك للريح.

إنَّها لحظات تستحقُّ التوثيق، أدلف الى العتمة الخفيفة لمدخل الطائرة، مستقبلاً ابتسامة المضيفة الاميركية، ابتسامة بعرض حياتي الميتة، ويُسْتَشْفَى بها من أدواء البلاد التي لا شفاء لها. يجب أنْ أتذكَّر ذلك بعمق، يجب ألَّا أنسى سريعاً، لا أنسى أبداً.

أُغلقَ الباب بعد أنْ اكتمل عدد المسافرين، وأعلن المايكروفون داخل الطائرة عن بدء الإقلاع. كان كرسيي بجوار النافذة، وهذه أولى تباشير نهوض حياتي من رمادها الطويل. سيتيح لي النظر من النافذة أنْ أودِّع هذه البلاد والبلاد التي وراءها بجديّة وشاعريّة. ارتفع من البلاد، وانظر الى ارتفاعي، أصل الى محفل الآلهة تقريباً، فعند هذا الحدِّ يشفي غليلي من الابتعاد.

هناك، عند ثلاثين ألف قدم، حيث الغيوم تحبو تحتي، والله يُداري انفضاح غيب ذاته المتعالية أمامي، هناك عبرت البرزخ ومَاْتَ حميد نهائيّاً. وُلِدَ حميد.

ولكنَّ عند هذا البرزخ تنتهي ذاكرتي المستعارة أيضاً. أجهدتُ نفسي هنا مع غبش الفجر الشاحب أنْ أتذكَّر على الأقل وجه المضيِّفة الاميركية وهي تُقدِّم لي وجبة الطعام الجاهز والشاي، أنْ

أتذكَّر وجه الجالس على الكرسي المجاور، لكنِّي فشلتُ. أعرف أنَّني قادر على اختلاق هذه التفاصيل، ولكنِّي أريد تذكُّرها وليس اختلاقها. فشلت، لأنَّ ذلك يتعدَّى حدود ذاكرتي المستعارة، فمن هنا أنتهي، ومن هنا أيضاً يبدأ حميد.

أدركت أنَّ شوطي أكتمل، ولا مفرَّ من مواجهة النهاية. لقد ركبت الى السماء، واختفيت فيها، مثل مسيحٍ لا يُرجى له النزول في يوم موعود. ونزل حميد من طائرة البان اميركان ٢٣١ الى هذه المدينة الشمالية، مثل مبعوث من الربِّ.

.. سمعت الضوضاء قادمة من المطبخ، ثمَّ صوت الراديو وهو يتعالى بأغنية بهيجة، فاجتَرَرْتُ صورة مشابهة، ولكنْ هناك، في بيتنا الطابوقيِّ غير المَلْبُوخِ، وعلى الارض فوق حصران وبسط ملوَّنة، مع رائحة كعك، وجبن وشاي ثقيل شبه محترق في إبريقٍ مُخَسَّفٍ عتيق. آه.. التذكُّر يلائِمُني، فهو زادي ومتاعي.

خرج من المطبخ بعينين محمرَّتين، ووجه منهك، مصفوع بريح ذاكرة قاسية. دخل الى غرفة نومه ثمَّ خرج مُلقياً عليَّ بشالٍ صوفيٍّ رماديَّ اللون. آه.. طبعاً، إنَّه من مقتنياته العتيقة التي لم يتخلَّص منها بعد. قال لي بأنَّ البرد شديد في الخارج هذا اليوم. وهو يقصد أنَّنا سنخرج.

فركت وجهي بالصابون عند المغسلة، وتجاهلت النظر في المرآة، فما الذي سأراه من بؤس مقيم أكثر مما رأيت في الأيام الماضية. وشغلت نفسي بتخيُّل ما يفعله حميد داخل غرفة نومه الآن. يرتدي ملابسه الجديدة، ويُسَرِّح شعره، ثمَّ قبل أنْ يخرج، يمدُّ يدَه تحت الوسادة، ويُخرج سكين المطبخ العريضة، ويُخفيها تحت حزامه ويدلي بالقميص فوق البنطلون.

كانت الثامنة والنصف حين خرجنا، وهو موعد متأخِّر عن عادة حميد بالتريُّض ركضاً حتى المحميَّة الطبيعيَّة المجاورة. لم يكنْ يرتدي ملابسه الرياضيّة حتى. ولكنَّنا ذاهبون ولا ريب نحو هذه المحميّة الآن. حاولت أنْ أختلق أطيافاً انفعالية لاقترابي الوشيك من نهايتي المحقَّقة، ولكنِّي فشلت. وهكذا أراد لي أنْ أكون، أنا الجانب السيء منه الذي ينتظر عدالة الاختفاء المبرم.

لم أستطع استدعاء صورة انفعالية واحدة، ولكنِّي تخيَّلت ونحن نخطو على درجات السُلَّم صوراً بصريّة متلاحقة، وكأنَّها شريط سينمائي أراه أمامي. سننزل الى الشارع ويدعوني الى الركض معه، أو لا يفعل ذلك، وإنَّما نسير بهدوء على الرصيف، ونتابع مؤخَّرات الفتيات المراهقات ذوات الجينز، والرجال العجائز وهم يسيرون ببدلات رسميّة قاصدين موقف الباص. نسير حتى تختفي بنايات حيِّنا السكنيّ ويبدأ صفُّ الأشجار العالية بالتتابع. نحافظ على سيرنا على الرصيف، نتسمع من دون مبالاة الى خطف السيارات المسرعة بجوارنا على الشارع. ونثرثرُ حول الأصباغ والدِّهان، وشهادة الخبرة، ورواتب مفوضية اللاجئين، والسفر المحتمل الى كندا أو المكسيك أو ألاسكا. نثرثرُ في أيِّ شيء يوهمه بأنِّي لا أعرف ما يدفعني باتّجاهه بهذا المسير. عند نقطة غير محدَّدة ينعطف مبتعداً عن حافَّة الشارع الى عمق المحميّة، سائراً بين الأشجار. غائصاً ببطء وتمهُّل الى أحشاء الغابة، وفي تلك اللحظات التي لا تشهد حركة سوى خفق أجنحة الطيور عند الأغصان العالية. نقف بجوار حُفرة جديدة وطريّة، يبدو أنَّها أنجزت قبل يوم من الآن، حُفرة أشبه بقبر. نستذكر مشهداً من شكسبير، وأحدِّق في عمق الحُفرة، بحثاً عن صاحبها.

فيسهل بذلك عمل صاحبي، الذي لا يُفكِّر كثيراً بهذه اللحظة المنتظرة، خشية أنْ يتردَّد، ينتزع سكينه من حزامه في الحال ويدفعها الى جسدي كيفما اتفق بسرعة خاطفة، وبعينين مغمضتين، ينجز حُزمة من الحركات الرعناء العشوائيّة، تودي بي في الحال، حتى أنَّي لا أكلِّفه مهمّة سَحْلِي الى قبري المعدِّ، فيفتح عينيه ليجدني ممدَّداً فيه بعناية. يُهيلُ بتعبٍ التراب الرطب فوقي وكومة من أوراق الأشجار المعمّرة الحمراء الذابلة، ثمَّ يُغرز السكين الخالية من البصمات كشاهدة على قبري.

.. هبطنا من سُلَّم العمارة، فوجدنا حشداً من المارَّة يندفعون باتّجاه واحد، نحو الجهة التي كان حميد يقصدها. شاهدت المفاجأة والخيبة على وجهه، فحزنت لأجله. ليس لديه خطط بديلة بالتأكيد، ولربَّما سيؤجل عمله الى الغد.

كان حشداً مبكراً، هو أول الغيث في أضخم مظاهرة تشهدها الولاية، تنادي بإخراج القوات الاميركية من العراق، وسرعان ما أدرك حميد هذه الحقيقة، فتلوَّن وجهه بمرارة ثقيلة، وظلَّت الوجوه المحمرَّة التي تُطلق البخار في الصباح الجليدي تصفعه أينما تلفَّت. اندفع من دون إرادة منه نحو الرصيف الآخر من الشارع، ودخل في عَطْفَة صغيرة، لينتهي الى شارع (چاينيز ريفر). اقترب من موقف للحافلات، ولم يُفكِّر كثيراً حين توقفت الحافلة، فتبع الرجال العجائز في الصعود إليها.

* * *

كان يفترض بي أنْ أكون خَلْفَ حميد دائماً، مثل عبدٍ خَلْفَ سيده، أو إلهه، يُخطط له المصائر وهو ينفذها، وليس له أنْ

يجادل أو يعترض. ومن أكون أنا، في الحقيقة، لولا حميد، فهو الذي أنعم عليَّ ببركة الوجود، وهو من أتاح لي إسماع صوتي للأشخاص الحقيقيين، فاكتسب من خلالهم وجوداً ما، مهما كان بسيطاً وتافهاً، يرفعني من مرتبة غير الموجودات، ويُزيل عنّي غبن اللاوجود.

ولكنَّه يحتاج منّي أنْ أكون ذا قدرة ذاتيّة على تعديل وإنماء وجودي الفطري الذي منحني إيَّاه، وإلَّا ما قيمة أنْ يكافئني مع نفسه، ويوازيني في الوجود قيمةً واعتباراً، لولا هذه النيَّة المضمرة لديه. وإذ كان لا يجيب على أسئلتي المتعلِّقة بوجودي الغامض هذا، فأنا من يعوَّل عليه في النهاية لإيجاد كلّ الأجوبة.

كان من المفترض أنْ أظلَّ خلفه، أركب الحافلة وراءه، وأنزل معه عند منطقة ما، نسير، أو نتوقف عند مطعم هوت دوغ، أو ندخل الى سوبر ماركت لشراء ملابس جديدة، ولربَّما دخلت وراءه الى فندق خدمة الفتيات، وهناك على سرير مفرد عريض، أراقبه كيف يُولِج في إحدى الفتيات من ذوات الشهادة الطبيّة، يُولِج في الشهادة المصدَّقة من السلطات الطبيّة، ويبلِّل شراشف الفندق بعرقه. وينتقم بذلك من مصيره الغامض.

كنت أصل الى نهاية ذاكرتي المستعارة، فهاهنا يبدأُ ظلام دامس، ما بين لحظة ارتقائي لطائرة البان اميركان، ولحظة تجوالي مثل كلبٍ وديعٍ خَلْفَ حميد، على أرصفة المدينة الغريبة هذه. وكلُّ ما أفترضته من نهاية لي داخل الغابة المجاورة كان سيتحققُّ، لكنّي عدَّلت في الحكاية لأسباب رومانتيكيّة، وجعلت حميد ينقاد من دون انتباه للنزول من الحافلة قرب ساحة (سياتل سكوير)، وبسبب دخول حشود المتظاهرين من الشوارع المطلَّة على هذه الساحة، فإنَّ

الفزع ينتاب حميد، ويرتقي من دون تفكير درجات السُلَّم المرمريّ العريضة لمتحف (باتريوت ستار) وهو المتحف الذي تعرض فيه مسروقات المتحف العراقي قبل إرجاعها الى العراق.

نقترب أنا وحميد في خطونا الوئيد على الدرجات العريضة نصف البيضويّة، وأغدو بمحاذاته، لأنَّ الكاميرات تصوِّر هذا المشهد المميَّز. ننظر كلانا الى الزجاج العريض لفرْدَتِي باب المتحف. ونرى، أنا وهو، صورتينا المنْعَكِسَتَيْنِ عليه. كان يشبه الاميركيين العاديين، يشبه أيّاً من أولئك الهاتفين على حشائش الساحة ضد بوش الابن، وضد الحرب. رغم كُرْهِ حميد الشديد لذلك، وكنت أشبه أيَّ شخص أريده أنا.

اقتربنا، وكما في لحظات التصعيد في الأفلام الأميركية، بحركة (سلو موشن) متْقَنَة، من الباب، وكلانا مدَّ يده الى المقبض الفضيِّ الطويل، ولم نعرف لمن اليد التي أمسكت به في النهاية، على خلفية أصوات صاخبة تضجُّ في رأسينا تطالب بالخروج الأميركي من العراق، ندخل، فيختلط بتدرُّجٍ طيفيٍّ، ونحن نتقدَّم، ذلك اللغط المتشجِّن في الخارج مع موسيقى الساكسيفون الهادئة داخل المتحف، حتى يختنقَ صخب الشارع تماماً ويختفي. أتحسَّس، دائراً حول نفسي، أنَّ المسافة بيني وحميد قد تلاشت تماماً، وها نحن أنا وهو نواجه آثار بلدنا المنهوبةِ، تتحاور معنا بطينها المفخور، واختامها، ووجوه التماثيل المُنْشَدِهَة، والمحدِّقة بالمجهول. تحسَّست جسدي، فلمست ملابس حميد، وغزاني شعور بالألفة، وحين حدَّقت بعدها بساعة، داخل تواليت المتحف، بوجهي وهيأتي أيقنت أنَّني وحميد عدنا شخصاً واحداً، لا يمكن التميز فيه بين الحقيقي والخيالي.

لكنَّ هذه النهاية وضعتها لتغدو فيلماً، فيلما أميركياً ربَّما، أمّا الحقيقة فهي مازالت هناك، داخل الحافلة المليئة بالرجال والنساء العجائز المتّجهين الى المحميّة الطبيعيّة، أو الى وسط المدينة. إنَّ حكايتي مع حميد تستعيد أصل الحكاية الأسطوريّة بين الإنسان والإله، وإذْ يتوهَّم أنَّه يقودني الى نهايتي المحقَّقة، أطبِّقُ بحقِّه ما أنجز منذُ قرن من الزمان على يد نيتشه، منذ العام ١٨٨٨ تقريباً، أقتله أنا، بدل أنْ يفعل ذلك هو.

ولكنِّي أَعِي أنَّ التجربة لا يمكن أنْ تتكرَّر بسهولة، كما أنِّي أبحث عن حلٍّ أقل راديكاليّة، وأصغر شأناً. لا يمكن لنا أنْ نستمرَّ معاً، ولقد اكتسبت القدرة على تكوين ذاكرة شخصيّة مستقلّة. إنَّه يريد التخلُّص منِّي، فلْيكنْ، ولكنَّ القتل والدفن تحت أوراق الأشجار الحمراء العريضة ليس هو الحلُّ الوحيد.

انتهى شارع (چاينيز ريفر) ووقفت الحافلة بعنف عند تقاطع الإشارات الضوئيّة. كانت شاحنتان، أحداهما صفراء فاقعة، تجُرَّان سيركاً كاملاً قد مَرَّتْ فجأةً وبرعُونة أمام التقاطُع، ورغم أنَّ السير لهم إلَّا أنَّ ذلك أثار امتعاض العجائز الذين اختضُّوا داخل الحافلة.

هل يقود ستيوارت الشاحنتين معاً الآن؟

فكَّرت، ثمَّ نظرت الى النوافذ الجانبيّة للحافلة، كانت مموَّهة ببخار زفير الركاب، مسحت بكفِّي لأرى واجهة مطعم (لو وان تي) الصيني. من المؤكد أنَّ زملاء حميد الصبَّاغين (زملائي!) يأكلون وجبة الغداء الآن، أو يحتَسُون البراندي الذي تقدِّمه ليوبيليانا ويثرثرون مضيعين ساعات لا ثمن لها بانتظار الغداء. نزلت وفكَّرت ثانيةً، وهذه المرَّة بحميد. مرقت الحافلة منطلقةً من

جديد، وكان الوجه المكظوم واليائس لحميد يُحدِّق بي من خلف الكوَّة التي صنعتها بكفِّي على ضباب الزجاج في نافذة الحافلة.

بالنسبة لي، سأكلِّم ليوبيليانا هذا النهار داخل المطعم الصيني، سأقنعها بالقدوم الى الشُقَّة بعد نهاية عملها. لست ذلك الفظُّ الذي تعرَّفت عليه سابقاً، رغم أنَّها غير قادرة على التمييز الآن، ولكنَّها ستعرف، وأعرف بدوري، من خلالها، أنَّ سقفي الوجودي أكثر ارتفاعاً، وأنَّني قادر على التمدُّد وملء الحيِّز الذي قُدِرَ لي من الهويّة، ومن ممكنات الحياة، وأنَّ عينيَّ صحيحتان وقادرتان على رؤية كلِّ ذلك. أمّا الآن، فأنا، بالتحديد، انظر الى الحافلة المبتعدة بدخانها الابيض الضعيف. لم تكن تحمل لوحة تعريف، لم تكن حافلة من تلك التي نركبها عادةً، انتبهت لذلك الآن، وأنا أراها تنحرف الى طريق جانبي، الطريق الذي سلكته شاحنات السيرك قبل قليل.

* * *

لقد غيَّرت في بعض التفاصيل. ولكنَّ حميد ابتعد من حياته مرَّةً ثانية. هذا مؤكَّد، ولم تُتَحْ لي مطلقاً فرصة اللقاء به بعدها.

الفصل الخامس

الأوهام الرحيمة

[لِيَ حَيَاةٌ أُخْرَى تُنَادِيْنِي بِرَسَائِلِهَا التَّخَاطُرِيَّةِ الْغَامِضَةِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، تُنَادِيْنِي حَتَّى أُنْهِيَهَا، وَعَلَيَّ الْآنَ أَنْ أَسْتَجِيْبَ.]

كبير المنضّدين

كنت الناجي الوحيد من بين زملائي، لأنّي حصلت على بعثة دراسيّة العام ١٩٨٤ الى تشيكوسلوفاكيا. كيف حصلت عليها؟ لا أستطيع سرد ذلك الآن، لأنَّ هناك أشياء مُخْجِلَة، تزداد ثقلاً في صدري مع مضي الزمن، رغم أنّي كشفتها من دون اكتراث لتلك الفتاة المغربيّة، التي غدت أولى صديقاتي في هذا البلد الساحر.

في هذا البلد تكشَّفت صورةٌ أخرى لذاتي كانت ترقدُ في داخلي بسُباتٍ عميق، سُباتٍ كان يُحَتِّمُه وجودي في بلدي، ومشاهدتي المسائيّة لأخبار الحرب على شاشة التلفزيون، وما يجري في زقاقنا، الجثث التي تأتي والجثث التي تروح. لا بدَّ أنَّ هناك شخصاً، أو أشخاصا آخرين لا تعرفونهم يا اصدقائي، يرقدون في سُبات عميق في دواخلكم، سيظهرون عليكم فجأةً حين تغدون في أماكن أخرى، ليست التي اعتدْتُم الحياة فيها. سيظهرون، أو يتصل سُباتهم بالقبر، كما يحدث مع الغاليّة.

هل أريد إعطاء حكْمَة في هذا الوقت؟ لا أعتقد ذلك، لأنَّ مسار حياتي لا يدلُّ على أيَّة حكمة. رسبت في سنتي الدراسيّة الأولى، لأنّي لم أستطع الصبر مع اللغة الجيكيّة. لم أستطع، لم أرد، أو لم يرغب ذلك الكائن الذي استيقظ فجأةً في داخلي. لا

أحد يطاردُني إذنْ من أجل الالتزام بشيءٍ ها هنا. ليس هناك سوى رغبة عميقة بنسيان الموت الذي ينتظرني في بلدي. أحرق الوقت، هذا الوقت الجميل، في رعب الادراك بأنِّي عائدٌ لا محالة. لذا أغطس أكثر مع ذلك الشخص الذي استيقظ في داخلي، أجعله يقود هذا الوقت الجميل لكي يكون أجمل. واستيقظت ذات ليلة لاكتشف أنَّ الجامعة ستُرسل أوراقي للسفارة العراقيّة. أخبرني بذلك على الهاتف أحد الاصدقاء العرب. أحد اصدقاء الوقت الجميل الذي يغدو أجمل.

لم يكنْ من الميسور لعراقيٍّ أنْ يهرب من حياته المكوَّرة في يد السلطة في ذلك الوقت. لقد أفهمونا ذلك، حتى لو وصلت الى القطب الشمالي، وأكلت الفقمة النيِّئة مع رجال الاسكيمو الطيبين. فربَّما، بعد أنْ ينزع هؤلاء الرجال الوديعون غطاء الرأس الثقيل الذي يحجب ثلاثة أرباع وجوههم. ستجد لدى أحدهم شاربين ثخينين من ماركة رائجة في بلادك، وتعرف حينها أنَّ نهايتك قد حلَّتْ.

ولكنِّي فررت. لم أكن واثقاً من شجاعتي، ولم أؤمن بالصدف السعيدة، ولكنِّي فررت ونجوت، وانتهى بي المطاف قريباً من القطب الشمالي حقّاً، من دون أن أخطط لذلك، هنا في منطقة هاوغلاندداللين في النروج، التي تعصف بها الرياح الشماليّة القارصة حاملةً، كلَّ حين، مياه الأمطار الغزيرة الى الشوارع والأحياء.

ما الذي جعلني أقرِّر فجأةً أنْ أنهي هذه الحياة، وأعود الى بغداد؟ إنَّها ليست الحكمة بالتأكيد، فهي لا تقود حياة أمثالي.

إنِّني أشيخُ، وعليَّ الآن أنْ أغدو اكثر تواضُعاً مع تلك

الهواجس الممضَّة التي قمعتها طويلاً. لقد أخذ ذلك الشخص الذي استيقظ في داخلي أيام الدراسة الفاشلة في تشيكوسلوفاكيا كلَّ حقِّه، وعليَّ أنْ ألْتَفِتَ قليلاً الى هذا النُّواح المتصل منذُ عشرين عاماً. أنصت قليلاً، وأهدِئ جانب الروح المعتم.

ولكي يغدو الأمر أكثر دراميّة أقول، إنَّني كنت أصحو في ليالي الصقيع على أصوات وهمْهَمَات بلغة غريبة، وكأنَّها تعود الى أقوام ما قبل التاريخ. حدث ذلك بعد انتهاء الحرب الأخيرة في العراق مباشرةً، وكم أرَّقني الأمر. كنت أعزلَ من أيِّ سلاحٍ أمام هذه الخيالات الغريبة، واستطاعت أنْ تنتصرَ عليَّ بهدوءٍ في نهاية المطاف.

حزمت حقائبي بسرعة، وقلت مع نفسي إنَّها سَفْرَة قصيرة ليس إلَّا. هكذا فهم صاحب معرض السيارات الذي أعمل فيه، وتَفَهَّم مبتهجاً دوافع الحنين التي هبطتْ عليَّ أخيراً. ولكنِّي لم أخبر الأصدقاء بذلك، هؤلاء الأصدقاء الوديعون، الذي يقرؤون الشعر النرويجيَّ أمامي كلَّ مساء، وجعلوني أكتب بعض القصائد بهذه اللغة أيضاً. أردتُ أنْ يكون الأمر شاعريَّاً أكثر، ولم أعلم بأنِّي سأصدمهم بحديثي. كنت أختلِقُ الأمر برمَّته، ولكنِّي اكتشفت في واحدة من تلك الأمسيات الأخيرة لي في هذه المدينة، ونحن نشرب بتمهُّل في حانة هادئة، مع قصائد للسويدي توماس ترانسترومر وبضعة كتب من الشعر الكلاسيكي الهولندي، اكتشفت أنَّ شخصاً آخر كان يرقد في داخلي، هو من أهدى لي تلك الكلمات المرْعِبَة، ووضعها على لساني. لم أخْتَلِق شيئاً إذن. رغم ادِّعائي بذلك. يا للسخرية، شخصٌ آخرُ في داخلي مرَّةً أخرى!

كان الجوُّ عاطفيَّاً، وترقرقت في عَيْنَيّ أكبر أصدقائي سِنّاً دموعٌ

غامضة، ربَّما بسبب السيجار الكوبي الذي ينفثه بتباطؤ الى الأعلى، أو لأنِّي ذكَّرته بشيءٍ شخصي. قلت لهم، بعد جملة صوفيَّة لأحد الشعراء المحبِّين للموت، بأنَّني سأعود الى بلدي الأمّ، ليس لمجرد الزيارة. سأعود من أجل الموت يا أصدقائي، سأعود لأنَّني أعلم أنَّني سأموت هناك.

لم يعترض أحد على كلامي، ولكنَّهم غدوا اكثر قنوطاً. بدوت الأكثر بسالةً وشهيداً منتظراً تقدَّس في أعيُنهم، وأشعرهم للحظة بضآلة الحياة التي يتحرَّكون فيها. ها أنذا، الأكثر شجاعةً في جوقة الاصدقاء المنسيِّين هنا، أقرِّر مواجهة مصيري التراجيديّ، لأنَّه يُناديني.

بكى صديقي الاكبر سِنّاً في آخر الجلسة، بكى أخيراً، لأنَّ ما من أحد يُنادي عليه. لا يعرف أين يكون باب القدر الخاص به لكي يذهب اليه ويطرق عليه بشدَّة. كانت هذه الجلسة قد وصلت حينها الى حالة من التماثُل الفريد مع خلاصة الشعر الذي كُنَّا نقرؤه طوال السنين الماضيّة. وهم يُدركون ذلك، هؤلاء الاصدقاء، ويعرفون أنَّ لي حياة أخرى تُناديني برسائلها التخاطُريَّة الغامضة اثناء الليل، تُناديني حتى أنهيها، وعليَّ الآن أنْ أستجيب، أو أتعذَّب أكثر.

تمَّ توديعي في المطار مثل شهيد، مثل تابوت يتقدَّم الى خانة البضائع في الطائرة العائدة الى دياري.

* * *

لفحني الهواء الساخن لبواكير الصيف، وشاهدت غيوم الغبار الحمراء تتصاعَد فوق البنايات الواطئة. خفق قلبي بشدَّة، وضحك

شخص في أعماقي بأسى. هل ستهبطُ للأرض من أجل تقبيلها أيُّها العاطفي؟

سلكت الطرقات نفسها في حي الدورة، تلك التي أخذتني بعيداً عن بلدي، سلكتها بشكل ارتدادي باتّجاه البيت. وعانقني الكثيرون، لكنَّني لم أشعر بذلك الإحساس الذي توقَّعته. كانت العيون كلُّها جاحظةً بالخوف، ولمْ أرَ شيئاً قد تغيَّر. بدا العالم أكثر قِدَمَاً وتهالُكَاً من صورته التي في الذاكرة، لكنَّه العالم نفسه.

لقد توقف الزمن بطريقة ما كلَّ هذه المدَّة، المزاج ونبرة الصوت، وردود الأفعال شبه الغريزيّة لهذا وذاك، شاهدت الاصدقاء يجلسون على تخوت المقاهي، وكأنَّي تركتهم للذهاب الى التواليت ليس إلَّا. بضع شعرات بيض، وسُحنة عليها خطوط تعب، وذبول في الصوت، لكنَّ شيئاً جوهريَّاً لم يتبدَّل.

الأزبال في الشوارع، كلَّ شارع وساحة، يدوس عليها الناس صامتين، من دون قصد غالباً، ولكنَّها موجودة، والمياه الآسنة، والصراخ والتراب والحمير الواقفة قرب أعمدة الكهرباء، وانسحاب مروع للخضرة والحشائش من مشهد المدينة، أطفال أكثر في الشوارع، وبسطات وباعة أكثر في الأسواق، وثرثرة متصلة خلال النهار والليل حول السياسة وإلقاء القبض على الريس بعد اختبائه في حُفرة عفنة منذ دخول الاميركان لبغداد، أحاديث أخرى عن الإرهابيين والقتلة والعنف المضاد تمتدُّ من الرصيف والمقهى ومكان العمل وتدخل الى التلفزيون، وسيارات قديمة وحديثة تتعارك على مساحة أكثر من شوارع قلب العاصمة.

لا لا، أنا لسنت سوى ذلك الشخص الجالس على صندوق صبغ الأحذية، لست سوى بائع الكعك الدائر بين العباءات

والدشاديش داخل ظهيرة السوق، أنا لست ما أراه في المرآة، أو ما ترونه، أنا شخص كالآخرين تماماً، لديَّ أنموذجُ حياة لا يريد أنْ يُغادر رأسي، ولأنَّه بدأ يشحب في هذا الرأس، لذلك أفكِّر بتنشيطه، بالبحث عنه، أبحث عن نافذة حافلة كبيرة لأرى وجهي فيها، لأنَّ المرايا لا تعطيني ذلك الوجه الذي فقدته.

سأورد سبباً أخيراً، فأنا مشغولٌ جداً بفكرة القبر، هذا ما استيقظ لديَّ وأنا اكتشف سريان الورم الخبيث في حَنْجَرتي، واليأس الذي وضعه الأطباء هنا أمام نَجَاتي من هذا السرطان غير المتوقَّع. لذلك أنا أتشاغَل بمعنى السيطرة على الموت، من خلال رؤية موضع القبر، أو مكانه، فقبل الموت سأعرف الطريق الذي سأسلكه نحو القبر، بمعونة من الاهل أو من غيرهم. فأكون حيَّاً يمسك بطرف حياته الآخر دائماً، قبره الذي يعرف أنَّه سيكون نقطة الوصل لإكمال الدائرة. إنَّه وهمٌ أكيد، ولكنَّه يساعدني على إدراك الطمأنينة. وهذه أبلغ إشارة الى نهايتي، أو وصولي الى سقف الإرهاق الكامل، فأنا الآن لا أقاوم الرغبة بالطمأنينة، بل أتوسل بها، وأتخاذل أمامها، وأسْفِحُ كلَّ قناعاتي المنطقيّة أمام أيِّ طمأنينة خالصة يمنحها لي أيُّ بائعٍ للأوهام.

* * *

كان الإعلان الصغير في جريدة (رياح التغيير) يطلب منضِّدين، وهناك في مبنى الجريدة الفخم، تعرَّفت على نديم يارالله شويش، جاء للعمل كمنضِّد أيضاً، وما أثار استغرابنا أنا وهو، أنَّ الجريدة تريد ثمانية منضِّدين دفعةً واحدةً. وبعد اختبار سريع أبلغنا مسؤول القسم الفني بأنَّنا (نحن الثمانية) سنباشر العمل في الجريدة من يوم غد.

بدا الأمر، على يسره وسرعته، مريحاً لي بشكل كبير، خصوصاً وأنَّني لا أجيد في حقيقة الأمر، شيئاً آخر، غير التنضيد على الحاسوب، وشكرت تلك المصادفات التي جعلت من جلوسي الطويل لأعوام أمام نوافذ الماسنجر سبباً في حصولي على عمل سريع.

ولكنَّ رفيقي الذي اختار الجلوس على الحاسبة المجاورة لي لمْ يبدُ سعيداً. كان وجهه جامداً ويخلو من أيَّة تعابير واضحة. كان أصغرَ منِّي بعشر سنوات تقريباً، غير أنَّ شيخوخة ما تراوح على كتفيه، جعلته فاقداً للحيويّة.

لم نبدأ يوم عملنا الأول بعد حين واجهني هذا الزميل بسؤال مباشر ومحدَّد:

ـ كيف ترك المنضِّدون الثمانية الذين حللنا محلَّهم العمل في هذه الجريدة دفعةً واحدةً؟

ولم ينتهِ هذا اليوم حتى عرف زميلي القلق ما يريده من أجوبة. صفع الهواء البارد وجوهنا ونحن نخرج من الجريدة، وأحكمت اللفَّافة على عُنقي السمينة. وقبل أنْ يبتعد الى رأس الشارع منتظراً السيارات المؤدية الى الگراج تكلَّم زميلي القلق معي من دون مقدِّمات، وكأنَّه يستأنف حواراً انقطع:

ـ لقد قتل المنضِّدون. لم يخبروني كيف، قتلوا دفعة واحدة.

* * *

عاودتني تلك الأصوات الغريبة داخل الحُلم. همْهَمَات بلغة غامضة، داخل عتمة شديدة. تشعرني وكأنَّها لأقوام بائدة، ولم أخبر أيّاً من أفراد عائلتي بالأمر، فعلى الأرجح هم غير قادرين

على مساعدتي، ولكنِّي أخبرته فأجابَ بهدوئه الجليدي:

ـ إنَّها أصوات لموتى منذ أزمان سحيقة دفنوا في أرضنا.

فاجأتني نبرته الواثقة، وكأنَّه متأكِّد مما يقول، ولم أعرف هل كان يمزح معي. ولم أسعَ للتأكُّد لأنِّي اكتفيت بهذا الجواب الشاعري.

وجرَّبت الدواء التالي، فحين أصدِّق أنَّهم موتى يتكلَّمون سأتمكن من التفاهم معهم، فينتهي قلقي حينها على قدراتي العقليّة. غير أنَّ الأصوات ظلَّت كما هي، تضغط طوال الليل على رأسي بشُحناتها الحادَّة، ولربَّما استيقظت متعرِّقاً أو يابس البلعوم. اتّجه الى المطبخ لشرب الماء، واسمع في الظلام صوت انفلاق صواريخ أو ما شابه، وإطلاقات من بندقيّة آليَّة، غدا صوتها جزءاً من خريطة الليل.

كنت مدفوعاً برغبة عميقة لإنهاء كلِّ هذه التفاصيل والحصول على طمأنينة ما، لا أريد أنْ أخوض حرباً جديدة من أجل مصيري. لقد انتظم إيقاع مصيري ها هنا، وعلى الحياة أنْ تسير برتابة من أجلي. أعدكم بأنِّي لن أسعى كي أكون كبير المنضِّدين في الجريدة، ولن أجهد نفسي كي أبدو أكثر شباباً أمام النساء، لن أشتري أيَّة زينة، وسأكبح أيَّ طموح مهما كان تافهاً، ولكنْ عليكم أنْ تعدوني بالمقابل، أنْ تمنحوني حياة رتيبة ليس فيها شيءٌ غير متوقَّع.

* * *

انقضت أشهر طويلة كانت معبَّأة بغير المتوقَّع، ولكنِّي نسيت فكرتي القديمة، وبدأت أرى الموت من حولي من دون استثارة.

أصبح الموت رتيباً، وحياتي غدت رتيبة بشكل ملفت، فأنا قلقٌ طوال الوقت على سلامتي الشخصيّة، وأرى الموت يختطف أشخاصاً من حولي، من دون أنْ يتحرَّك شيءٌ فيَّ، لأنَّ الامر اصبح مألوفاً، لدرجة الإحساس المتوهِّم بأنِّي خارج هذه الدائرة. فما دمت أراقب الموت فهو هناك دائماً.

ولكنِّي حزنت لما جرى مع صديقي. لقد أخبرني أنَّ أمّه توفيت جراء قصف الطائرات الاميركية للمنزل المجاور لمنزله اثناء المواجهات في مدينةِ الثورة خلال الصيف الماضي. ظلَّت تَئِنُ لثلاثة أشهر تقريباً، وهذا ما فَسَّرَ لِيَ التجَهُم الدائم لصاحبي حين باشر العمل في الجريدة.

لقد ماتت العجوز أخيراً، قال ذلك بجفاف وكأنَّه يتحدَّث عن خاتمة فيلم شاهده ليلة البارحة في التلفزيون. ولم أسأله عن التفاصيل وكأنَّني أعرف بأنِّي سأطلع عليها بنفسي في ما بعد.

لقد قلت بأنِّي لم أطمح بشيءٍ أكثر من الرتابة والانتظام، وهذان ما حصلت عليهما بطريقة مربكة، ولن أسهب في تفسير ذلك. فالعمل داخل قسم التنضيد ليس أكثر من عمل شديد الرتابة، ويورث التبلُّد لذوي الطاقات الاستثنائيّة، وأنا لا أصنف نفسي ضمن هؤلاء طبعاً، وحين ينتهي عملنا في الرابعة عصراً، نكون كمن يسمع نبأ اطلاق سراحه من حبس طويل، ونشاهد النهار أو ما تبقَّى منه هناك، خارج جدران بناية الجريدة. غير أنِّي، بسبب كبر سِنِّي ربَّما، أو لإجادتي اللغة الانكليزية، وسلوكي المهذَّب، حصلت على رئاسة قسم التنضيد، بعد استقالة الرئيس السابق لأسباب أجهلها، وحيَّاني رئيس تحرير الصحيفة أمام الجميع بطريقة احتفائيّة، مبديَّاً إعجابه الكبير بشخصي. لم أجد في

الحقيقة سبباً مقنعاً لهذه الحفاوة، ولكنّي تقبّلْتُها، وتقبَّلْتُ منصبي الجديد بمزيج من الفرح الهادئ والقلق الناتج عن لَخْبَطَةٍ فجائيةٍ في توقُّعاتي.

كان هذا الامر مناسبةً لاكتشاف الكثيرين داخل الجريدة، في الأقسام والغرف الأخرى لوجودي، أنا العامل في باطن السفينة، المحرِّك، مع زملاء الصنف، لمجاذيف الجريدة في الخفاء. وكأنّي، بصيغة ما، باشرت يوم عملي الأول في الجريدة من جديد.

لم يكنْ ذلك ملفتاً، لولا أنَّه بدا مناسبة معدَّة أصلاً، من يد القدر، أو من عناية إلهي الرحيم، لكي التقي، ليس إلَّا، بـ(لورسان)، تلك الفتاة الهادئة في قسم الترجمة.

* * *

موقعي الجديد غيَّر منظوري للأشياء داخل غرفة قسم التنضيد طوليّة الشكل. واستطعت مثلاً رؤية ما يفعله رفيقي القلق خلال الساعات الطوال أثناء العمل، كان يُنَضِّد على مدار الساعة، يُنَضِّد أكثر من غيره، وكان منضِّدان آخران يلعبان (الگيمز) بين حين وآخر، أو يثرثران. واكتشفت بأنَّ الغرفة تحتاج الى زينة.

أخ.. أنا من يُفكِّر بالزينة الآن، وكأنّي نسيت وعدي مع إلهي، وحين تأمَّلت الأمر جيداً فهمت أنَّ دوافعي الجديدة سببها الإحساس بوجود لورسان داخل الجريدة، وإنْ لم تظهر أمامي إلَّا نادراً.

غير أنّي كنت أحظى بفرص مضمونة لرؤيتها اثناء فترة الغداء، داخل كافتيريا الجريدة، وأتعمد الجلوس الى طاولتها حين أجدها

وحدها من دون ضجيج زميلاتها، مُسْتَغِلّاً الأريحيّة التي اكتسبتها في الحديث مع عشرات النساء، لكي أنزلق بسهولة ومن دون مشقّة الى ما أريد قوله لإغواء هذه الفتاة من دون تلكؤٍ أو لَجْلَجَة.

لن تكون الصيغ الاخرى الممكنة لحكايتي بهذه الشاعريّة أبداً، فلقد اكتشفت بأنَّها عائدةٌ مثلي، كانت خارج العراق أيضاً، وعادت بعد احتلال العراق واسقاط الديكتاتوريّة. كانت تقترب من الثلاثين، وعادت مع عائلتها، بعد أنْ قضت شطراً مهمَّاً من حياتها ما بين عمان وشمال أوروبا.

لست ساذجاً ولدي بعض الذكاء، وهذا ما جعلني أتفهم حاجتها للاقتران بشخص لا يُفكِّر بالسفر، شخص لا يثرثر كثيراً في كلِّ وقت وأوان حول احتمالات الهجرة والهرب من الحرب الأهليّة التي على الأبواب، أو من الموت المجاني الذي توزِّعُه السيارات المفخَّخة والقتلة المجهولون الذين تغصُّ بهم بغداد.

إنَّها تتقدَّم باتّجاه الحافَّة الخطرة لفقدان الأمل بالزواج وتأسيس أسرة، وهذا ما يجعلها متوترة أثناء الحديث معي، رغم تصنُّعها الهدوء، وأنا مع كلِّ هذا سعيدٌ بهذه المصادفات، ولا أبحث عن شيء أفضل.

ثرثرنا بأشياء كثيرة، ومع مضي الأشهر اقتربت من الإحساس بأنَّ اتيكيت العلاقة التمهيدي قد شارف على الانتهاء، وعليَّ أنْ أكشف عن نواياي. مثلما يحدث عادةً في أيِّ حكاية أخرى.

كان رفيقي القلق هو أول من توجهت إليه لأختبر نيَّتي. خرجنا من الجريدة، وبدل أنْ يسير الى تقاطُع الاشارة المروريّة، دعوته للركوب معي في سيارتي. قُدْتُه باتّجاه الخطّ السريع، وهناك، قبل النزول من الفتحة المؤدية الى ساحة بيروت قلت له إنَّني سأتزوج

من لورسان، فظلَّ كما توقَّعت على حياده الانفعالي، وحين نظرت اليه فهم أنَّني أنتظر جوابه فقال:

ـ ولكنْ، هل تريد حقَّاً أنْ تستقرَّ هنا، أمْ أنَّك تُفكِّر بالزواج من عراقيّة والسفر معها بعد ذلك؟

لم يفهم طبعاً حجَّتي بالبقاء، وقبل أنْ ينزل من سيارتي ويودِّعني، فهمت أنَّنا نقف عند قطبين متضادَّين، عرفت شيئاً جديداً عن رفيقي. إنَّه لا يثق مطلقاً بأيٍّ لحظة قادمة، لا يريد الإمساك بشيء دائم على هذه الأرض، مثلما هو الحال مع الكثيرين، وهو على صواب، فهو شخص واقعي تماماً، أما أنا فليست لديَّ طاقة على ذلك أبداً.

* * *

قال لي إنَّ زواجي من لورسان هو أكثر الأشياء منطقيّة في هذه الحياة، فكلانا، أنا ولورسان، يملك سيارة شخصيّة. ضحكت من ملاحظته، لأنِّي فهمتها كنكتة، ولم يقلْ لي شيئاً آخر وانكبَّ مجدَّداً على التنضيد. تاركاً لي عزلة التأمُّل في كلماته. كنت قد استعدت الصلة مع أصدقائي الموزَّعين حول العالم من خلال نافذة الـ(Chat) على حاسوبي في قسم التنضيد، مستفيداً من الفُسْحَة التي يتيحها لي عملي الجديد لاستغرقَ في حواريَّاتي الاتوبيوغرافيّة.

ولأنِّي مسؤول بطريقة مباشرة عن كلٍّ ما يجري داخل قسم التنضيد، كنت أقلِّب أحياناً حواسيب المنضِّدين المتغيِّبين لأبحث عن موضوع مؤجَّل يحتاجه عدد الجريدة لذلك اليوم، أو لأنظِّف هذه الحواسيب من ثقلها الزائد. وهذا ما حصل مع الحاسبة التي كان يعمل عليها صديقي القلق.

كان غيابه عن العمل ذلك الصباح كافياً لأعرف، وأنا أقلِّب في ملفاته، أنَّه كان يدوِّن ما يشبه المذكرات، أو القصص، ويقيناً لم تكنْ لهذه الأشياء علاقة بمواد الجريدة. من دون أنْ أفكِّر كثيراً ضربت على إشارة الطباعة في نافذة الوورد وسحبت هذه الأوراق على الطابعة الليزريّة، فكانت اكثر من سبعين صفحة، وهذه كمية من الورق كافية لإضعاف شهيتي لقراءة ما كتبه رفيقي القلق على شاشة الحاسوب مباشرة.

لم أجد تفسيراً سريعاً لما قمت به. إنَّه عملٌ أحمق بالتأكيد. وضعت الصفحات في حقيبتي، وتناسيت وجودها طوال النهار. في كلِّ الأحوال لن أخبره غداً بأنِّي تطفَّلت على ما يكتب من دون إذنه، ولم يكن هناك شهودٌ على ما قمت به. إنَّها حالة تَلَصُّص بريئة. هكذا طمأنْتُ نفسي وأنا أتصفَّح ليلاً في بيت العائلة هذه الأوراق.

تأخَّر الوقت بي وأنا أقرأ، وداهم رأسي ثقل النعاس. سأفرّش أسناني في الحمام، وأتبول، وأنْدَسُّ في فراشي. سأفعل ذلك بعد أنْ أنهي القراءة في الوريقات القليلة المتبقِّية.

الفصل السادس

أوراق

[مَاْتَتْ. وَلَكِنِّيْ لَمْ أَكُنْ ذَلِكَ الشَّخْصُ
الَّذِيْ كُنْتُ أَنْتَظِرُهُ.]

نديم

٢٢/ ١/ ٢٠٠٥

يخرج المنضِّدون الثمانية من باب واحد، ويجتمعون عند العصر في يوم عُطلة الجريدة عند كافتريا الصياد في شارع الربيعي. كانوا أكبر مجموعة تجتمع على طاولة واحدة، وتنفد فجأةً كلُّ (نارجيلات) صاحب الكافتريا لأنَّهم يطلبونها جميعاً. يطلقون الدخان دفعةً واحدةً فتتجمَّع غيمة غريبة فوق رؤوسهم قبل أنْ تدفعها الريح المتمهِّلة خارج السياج البلاستيكيّ الواطئ لهذه الكافتيريا الصيفيّة. يُطلقون النُّكات ويقهقهون ومباسم النارجيلات لا تغادر أفواههم.

على الأرجح قُتلوا حين خرجوا من الباب الوحيد للجريدة، حين وقفت سيارة أوبل حمراء اللون على مبْعَدة من الباب، وقبل أنْ يتحرَّك الحارس من كابينته ويُغادر كَسَلَه، يخرج المنضِّدون الثمانية، وحين يُغلق الخارج الأخير الباب وراءه يُعاجلهم المسلَّحون في الاوبل الحمراء بإطلاقات كثيفة. يسقطون تباعاً على الرصيف، ويُحذِّر رئيس التحرير العاملين في الجريدة أنْ يُشاع هذا الخبر، أو كتابة نعيٍّ في الصحيفة، ريثما يَتمُّ الحصول على منضِّدين جدد.

إنَّهم يضحكون، وهذا شيءٌ غريب، في الوقت الذي تتقد فيه الجمرات الصغيرة لنارجيلاتهم، ويراقب أحدهم ساعته اليدويّة قبل أنْ يعطي إشارة المغادرة. إنَّهم يضحكون، والحقيقة متجْهِمَة دائماً، الحقُّ هو الأكثر جهامةً وسواداً ويبوسة، لذا يدخل المسلَّحون المنقَّبُون باليشامغ الحمراء، أصحاب الحقِّ والحقيقية، ويُطلقون النار على الشباب الضاحك في عصر الكافتيريا الصيفيّة.

تبقى النارجيلات تُطلق الدخان وحدها.

إنَّهم موزَّعون، كلٌّ منضِّد في بيته، وفي اليوم التالي يختار كلُّ واحدٍ منهم ميتته كي يفاجئ الجميع داخل الجريدة، يتفقون على الموت دفعةً واحدةً، وهذا ما أصبح لاحقاً أمراً لا يثير الاستغراب. فالموت المفاجئ وذلك الذي يتوقَّعه الجميع يحدث حين يكون الموت حقيقيّاً في كلِّ الأحوال.

١٦/ ١١/ ٢٠٠٤

ماتتْ. ولكنِّي لم أكنْ ذلك الشخص الذي كنت أنتظره. غدوت قانطاً وحزيناً، وكأنِّي من قتلها، باستجلابي للموت طوال هذه السنين. أرتجف دائماً لِهَفْهَفَةِ ثوب، أو صوت لنداء بعيد، وأعلم أنَّ البيت ليس فارغاً تماماً. لقد غدوت نَغْلاً كاملاً أخيراً، ولكنْ ما معنى هذا الآن؟

كان وجودها شبحيّاً أصلاً، لذا لم يكنْ اختفاؤها من المكان حادّاً. أنا أشعر بها، وأنا نائم على الارض طاوياً وسادةً رخوةً تحت رأسي. إنَّها في المطبخ أو في الغرفة الثانية. لم تمتْ نهائيّاً. وبإمكاني أنْ أسترد صورتها الأخيرة لعشرات المرَّات خلال النهار، من دون أنْ أصدِّق أنَّ الأمر قد حدث حقّاً.

نادت عليَّ من غرفتها، صاحتْ على حميد أيضاً، وشتمت يارالله لأول مرَّة منذُ سنوات طويلة، فهو هنا أيضاً، من سبب لها هذه النهاية السيئة. كان رأسها ملفوفاً بضمادة طبيّة، وتمسك بعلبة السجائر الفضيّة وزناد البنزين العائدين ليارالله من دون أنْ تجرؤَ على التدْخِين.

كانت تلك الزيارات المكثَّفة لأمّ هادي وطَرْفِيَّة وأمّ نجيب وباقي العجائز السبع، صديقات بنَيَّة قد انخفضت، وكأنَّ الجميع يتحرَّك بدوافع لا شعوريّة أزاء اقتراب الموت، مفسحين المجال لهذه المرأة المسجَّاة على فراشها طوال اليوم في التأمُّل بلحظات ما قبل النهاية، وأنْ تواجه الموت، كما هي العادة وحدها. هذه الزيارات، كانت رغم كلِّ شيء، مفيدة بالنسبة لي، فأنا لم أرد أنْ أكون قريباً على مدى ساعات النهار من بنَيَّة، لم أرغب بشيءٍ أكثر من تجاهُل نداءات الموت، وفحيح اقتراب موكبه. لستُ، مع ثراء الموت من حولي، راغباً بملاحظته عيانيَّاً كيف يقوم بعمله بدقَّة مجهريّة.

لكنَّها نادت عليَّ بنبرة غير معهودة، وكأنَّه ليس صوتها وإنَّما الصوت الذي سيكون لها خَلْفَ جدار الموت السميك. أمسكت بيدها الباردة، فقالت بأسفٍ وهي تُغمض عينيها:

ـ حاط الله ويه حظِّي..

ولفظت أنفاسها الأخيرة.

٢/ ٨/ ٢٠٠٤

كان قد تمرَّن على قيادة عربته المدوْلَبَة بنفسه، ولم أعد مرافقه الشخصي الوحيد، وذلك ما خفَّف من شعوري بالإثم لإهماله،

فالكثيرون تعاملوا معه على أنَّه بطلٌ من أيام النضال ضد النظام الديكتاتوري. واكتشفت أنَّه ترك لحيته تنمو، وغدا وجهه مشرقاً بسيماء الأمل للمرَّة الأولى منذ سنوات طويلة. أصبح يتحرَّك في عالم لم يعدْ لي فيه دورٌ محوريٌّ، وهذا ما أراحني.

في لقائي الأخير معه قبل مقْتَلِه بيومين، كشفتُ له عن أسئلتي بصدد وضعه، ودار بيننا حوار هو الأطول منذ سنوات، ونسيت حينها سُخريَّتي القديمة عن الأمل الذي تعلَّق به طويلاً بأنَّه سيتمكَّن في يوم ما من النهوض من عربته المتحرِّكة والسير على قدميه مجدَّداً. وكان يبدو وكأنَّه في خطواته الأولى على ذلك الطريق. سأصدِّق لو أنَّني سمعت في ما بعد، استناداً الى حماسته المفرطة، إنَّه شُوهِدَ سائراً على قدميه في زقاقنا، من دون عربته المدوْلَبَة.

لم أسأله عن تفاصيل خطبته لفتاة من أقربائه، وأردت قبل أيِّ شيءٍ آخر أنْ أعرف أين ذهب منطقه العدمي.

قال لي بأنَّ المعاناة تقود الإنسان الى قناعاته أكثر من نتائج تفكيره العقلي. العقل يتبع الجسد هنا كي يوفر الدعامات النظرية ليس إلَّا.

كانت تلك مجرد سفسطات، وبعد دورة أحاديث واسعة ألقى عليَّ ما أردت سماعه:

ـ في كلِّ شيءٍ أنت تخطو باتّجاه إيمانك الفردي، أنت تحتاج الى القبض على إيمانك بيدك أنت، لا أنْ تأخذه من أيدي الآخرين. ولقد عرفت الآن، ليس بسبب التغيير الذي حصل في البلاد، وإنَّما كنتيجة لتأمُّلي الطويل كلَّ هذه السنوات، بأنَّ الله أراد لي هذا الطريق، أراد لي أنْ أنكره وأنْ يكون إيماني أكثر أصالة من الآخرين، فقادني الى هذه الرحلة الشاقَّة، من التمرُّد

عليه، الى اللجوء نحوه في نهاية المطاف. اللجوء إليه بإرادتي وبلُغتي وأدواتي الخاصة.

سمعت كلماته المتأنِّية من دون أنْ يتغيَّر تصوُّري عنه، لقد أوجد بَهْرَجَة لُغويَّة لموقف بسيط لا يحتمل كلَّ هذه الكلمات ذات الوزن الثقيل، لقد ملَّ من العزلة وجاءه الزمن الذي يتحوَّل فيه الى شخصٍ يحظى بالثقة والاعتراف والنُّبل.

ـ ولكنِّي أشعر بأنَّ هذا الإيمان يأتي كنوعٍ من الفشل أو الخوف من مواجهة التيار العارم، نوع من الإرهاق واليأس من البقاء خارج السرب.

قلت له ذلك، وكان ينظر الى السماء الشاحبة ويتوقَّع بين لحظة وأخرى صوت المؤذِّن في الحسينيَّة القريبة من هنا. خامَرَتْهُ مشاعر ضيق واضحة وقال في النهاية وهو يتوكأُ على يديه ساحباً جسده على الوسادة:

ـ أنت تريد أنْ تكون على صواب دائماً، ولكنْ ما أهمية ذلك الآن، المحاججة العقليّة قد تقود الى الضياع واليأس، وأنا بحاجة الى الطمأنينة والأمل، بحاجة الى أنْ أكون ما أنا عليه الآن، أنت تفهم ذلك. ليست هناك حقيقة، ولكنْ هذا أيضاً ليس سوى وحي إلهي آخر.

تركته، حين صدح صوت المؤذِّن الشاب من مكبِّرات الحسينيَّة المجاورة. وفي اليوم التالي سمعت أنَّ مواجهات جرت في الشارع بين الاميركان وبعض المسلَّحين داخل المدينة، وأنَّ رصاصاً كثيراً أطلق في الهواء بطريقة عشوائيّة، فكان أنْ اخترقت إحدى هذه الرصاصات جسد مصطفى الفيلي وهو يدفع عربته المدولبة على الرصيف بيديه. ارتخى ساعداه فجأةً، وانحنى برأسه على صدره،

وظلَّ على هيئته هذه، ساكناً ورخواً وسط الضوضاء والفوضى العارمة التي اندلعت من حوله.

٣/ ٨/ ٢٠٠٤

ولكنْ قد يكون الأمر حصل بطريقة أخرى. أعرف أنَّه ترك عمله على چنبر العطور الزيتية في سوق مريدي، بعد أنْ حصل على راتبٍ تقاعديٍّ من جمعية المعتقلين السياسيين. فضلاً عن موارد أخرى أجهل مصادرها. وأنَّه بدأ يُلقي محاضرات عصرَ كلِّ يومٍ في احد النوادي الدينيّة.

من هناك، من القاعة المملوءة بكراسي الحدائق البلاستيكيّة، وفي جوِّها الخانق، الذي لم تُخَفِّفْ عنه مبرِّدة الهواء الوحيدة، بدأ خطؤه الفادح.

كان يتنقل بسهولة بين بطون الكتب الدينيّة، ويربط الروايات والأحاديث النبويّة ببعض استنتاجاته عن (الإله الفردي)، وكيف أنَّ طريق العبادة الحقَّة هو ما يستحصله الإنسان بجهده الشخصي، الذي لا يشاركه فيه أحد.

حين يصل المرءُ الى هذه المرتبة، ويتصل بإلهه الفردي، يعود ثانيةً الى أرض الجماعات، ويَتَزَيَّا بواحد من أشكال العبادة الجماعيّة، ولكنَّه يمارس هذه العبادة من بؤرة اقترانه بإلهه الفردي.

هكذا كان يقول، ولم يبدُ أنَّ كلامه أعجب الجميع، ولربَّما احتدَّ أحدهم معه، فيتمادى أكثر لإسناد تصوره بحجج وبراهين جديدة.

حتى كان ذلك المساء، حين عاد بمفرده من الجامع، يدفع بيديه العجلات المدولبة لكرسيه، رافضاً أنْ يُساعده احد. وقف

شابان أمامه فجأةً، وشهرا سلاحيهما، ولم يُمهلاه كثيراً. وداخل عتمة الزقاق وقلَّة الشهود خاطبه أحد المسلَّحين بلسانٍ مُرْتَجٍّ:

ـ خلي ألهك الفردي يفيدك هسه.

أطلقا عليه صَلْيَة رصاص سريعة، ثمَّ تواريا في الظلام.

٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٤

بما أنِّي أصبحت وحيداً، سأحوِّل البيت الى مَبْغَى حقيقي، أجلب النساء من الباب الأمامي للبيت، وأمام أعيُن عجائز الدنيا السبع، اللائي لا يغادرن دكَّات بيوتهن أبداً، وأترك الألسنة تتكلَّم عنِّي، وانتظر من دون خشية حقيقية، تلك الساعة التي يطرقون الباب فيها، لكي أُبَلَّغَ بموعد إقامة الحَدِّ.

سأبيع البيت، فأنا المالك الوحيد له الآن، ولا تتكلَّموا عن حميد، لقد باع حميد كلَّ شيء، واشترى نفسه.

هل استسلم لكلام طَرْفِيَّة، وأدور في فلكها؟ كانت أجْرَأَ النساء، حين أخذتني جانباً في أربعينيَّة بنِّيَّة، وقالت لي.. هذه إيمان ابْنَتِي، خذها زوجةً لك، لا أريد منك مَهْرَاً ولا أيَّ شيء، (گبعها وأخذها). تحرَّكت غرائزي حينها، وقاومت الانتصاب الخفيف الذي داهمني بصعوبة. إنَّها رَبَّة بيت جيدة، قالت طَرْفِيَّة عن ابنتها، و(تريدها ماي تصير ماي، تريدها نار تصير نار)، أثارني هذا التعبير أيضاً. واستطعت بعد حين رؤية إيمان هذه، وهي تمرُّ من أمام البيت مع أمّها، وتَحِدُّ النظر إليَّ كي تتملَّى هيأتي، هيئة الزوج المنْتَظَر. فأصبح انتصابي حينها كاملاً.

هل هذا اعتراف منِّي؟ هناك من سيقرأ هذا الكلام حتماً، لذا أريد أنْ أقول هنا، إنَّني لَفَّقْتُ كلَّ هذه الحكاية، ليست هناك فتاة

باسم إيمان مطلقاً، وطَرْفِيَّة لا تسْتَسِيغني، وتتهمني صراحةً بأنِّي عذَّبتُ بنِّيَّة، وسرَّعتُ من موتها. إيمان ممثلة مصريّة بيضاء البشرة تصبغ شعرها دائماً، وتظهر في أدوار إغراء، وكنت قد مارست العادة السِّرْيَّة على صورتها لردحٍ من الزمن.

١٨/ ٧/ ٢٠٠٣

دخلت الدبابات الاميركية الى بغداد من جهة حي الرشاد شمال شرقي العاصمة، وهو حيٌّ شهيرٌ، بسبب مستشفى المجانين الذي فيه، والذي يُسمَّى مستشفى الشَّمَّاعِيَّة. والمقيم في مدينة الثورة سيرى أنَّ الدبَّابات جاءت من عند المجانين.

هَلَّلَ الناس مصعوقين بالمفاجأة الكبرى، حين شاهدوا هذه العربات المرْعِدَة تأكل الشوارع المبلَّطة بسرعتها المخيفة. لقد خرجت هذه الدبابات من التلفزيون أخيراً، وبدأت تتجوَّل في الشوارع. لم يستطع احد من الناس أنْ يسيطر على مشاعره، أو يعرف لها تفسيراً، اختلط كل شُّيءٍ في كلِّ شيء، وبدأت النهاية، أو أنَّ النهاية حلَّتْ أخيراً بصورة حادَّة وعَيَانِيَّة.

وحده الرفيق داخل كان يعرف تماماً معنى هذا المشهد، ظلَّ يَلْطِمُ على رأسه في الشارع مثل امرأة ثَكْلَى، وأضحك أطفالاً كثيرين، رَووا هذه الحادثة لعوائلهم في ما بعد، فلم يصدق احد أنَّها حصلت فعلاً.

كان الرفيق داخل قد تحوَّل تدريجيّاً خلال التسعينيَّات الى رجل متديِّن، لم يعدْ يرتدي بدلة السفاري أو الملابس الزيتونيّة، واستبدل زيَّ الرفاق هذا بالدشداشة والعقال، ولكنَّه ظلَّ يمارس واجباته الحزبيّة بانتظام. ولربَّما قال البعض إنَّ الحزب هو من أمره بهذا

التغيير، ولم يأتِ الامر بقرارٍ شخصيٍّ. مع ذلك بدا التغيير على الرفيق داخل واضحاً لكلٍّ من يعرفه، أصبح رقيقاً وعطوفاً ومتعاوناً، وساعد شاباً أو اثنين للإفلات من قبضة زملائه الحزبيِّين، الذي يُطاردون بين حين وآخر الفارِّين من الخدمة العسكريّة.

ولكنَّ الجميع يعرف أنَّ هذه المطاردات لم تعدْ خلال التسعينيَّات أكثر من عملٍ روتينيٍّ، فالمقبوض عليه لا يتمُّ إعدامه بالرصاص وعلى مرأى من الجميع كما كان يحدث أيام الثمانينيَّات، وإنَّما يُوْدَع في الفرقة الحزبيَّة ثمَّ يُرَحَّلُ الى وحدته، وهناك يُحكم عليه بستة أشهر سجن، ولربَّما خرج قبل أنْ يُتِمَّ هذه المدَّة، بسبب حملات العفو العديدة التي كان يُطلقها الريس، لمعرفته أنَّ زيادة الضغط ستجعل كلَّ المنتسبين في الجيش من الفارِّين.

إذنْ لم تكنْ شائعات السيرة الحَسَنَة للرفيق داخل ذات وزن كبير. ولكنَّه بالتأكيد لم يكنْ يشعر وقتها بالنشْوَة لإعلان سطوته الحزبيّة على الناس. وأصبح هذا الانتماء يثقل على ذاكرته، ويشعره بالذنب الدائم، لما سبَّبه من مآسٍ خلال الثمانينيَّات للعديد من عوائل المدينة. وهذا جعله يلتصق بالدِّيْن أكثر فأكثر، حتى غدا لا يكترث للحْيَتِه، ولربَّما ادَّعى البعض أنَّه يتقصَّد إطالتها، وليس من باب الإهمال.

كان هناك شخص آخر شاهد الدبَّابات تخرج من جهة (المجانين)، شخصٌ أخْرَسَتْهُ الصدمة، فظلَّ في مكانه، ثمَّ سار مع الناس على غير هدى. كان يرتدي البدلة الزيتونيّة المَكْوِيَّة، ويضع مسدسه الطَّارِق على جنبه، وصاح به أحد معارفه أنْ يَفِرَّ قبل أنْ يلحظه الناس.

كان ذلك هو الرفيق چاسب مشخوط، الذي ظلَّ يخطب بالناس حتى آخر لحظة بأنَّ القيادة تُعِدُّ لمفاجأة ستقلِّب ميزان المعركة رأساً على عقب، فتنهار القوَّة الهجوميَّة لأميركا، وتتكبَّد خسائر فادحة تُجبر الإدارة الاميركيّة على سحب قواتها، بسبب الضغط الشعبيِّ داخل الولايات المتحدة الاميركية. كان چاسب يُراهن على استمرار المواجهة لأيام وربَّما أشهر، وهذا ما سيعطي أملاً بانتهاء هذه المعركة الواسعة بالهُدْنَة ثمَّ عقد مفاوضات للانسحاب.

لم يكنْ أولئك الذين يستمعون لكلام چاسب بحاجة الى ذكاء خارق ليفهموا أنَّ كلَّ كلامه هذا هُرَاءٌ في هُرَاء.

لم يعرف چاسب بأنَّه كان يتكلَّم عن قناعة، أمْ عن رغبة شخصيّة بأنْ يكون الأمر مطابقاً لما يقوله، واحتاج لكي يحسم الأمر ويرى حقيقة ما يقول أنْ تظهر الدبَّابات المُرْعِدَة على الشارع أمامه، لا يفصله عن لَمْسِهَا باليد سوى أمتار معدودة.

٢٥/٦/٢٠٠٤

الكلام معي لن يفيد، ومن الأجْدَى وضعي أمام الأمر الواقع.

تفاجأت ذات مساء، بعد عودتي من مكتب الاستنساخ الذي كنت أعمل فيه، بوجود طَرْفِيَّة مع ابنتها إيمان بجوار بنِّيَّة داخل غرفة الاستقبال. ألقيت التحية وتواريت في غرفتي، لكنَّ صوت طَرْفِيَّة الخشن وارتجاج ضحكات إيمان الناعمة ظلَّا يُطارداني وأنا أخلع ملابسي، أو أقلِّب أوراقي. ثمَّ ترسَّخت الضحكة المُرْتَّجَة لإيمان أكثر، وأنا أدخل الحمَّام. واكتشفت أنَّ عضوي عاود الانتصاب من دون أُذْنٍ منِّي.

في ما بعد تحسَّست أنَّ الامر مصنوع بعناية من بنِّيَّة نفسها.
لقد صحوت ذات نهار، على صوت شَحْطِ مِكْنَسَةِ الْخُوص على أرضيَّة الحوش الخرسانيّة. فاستدرتُ على الوسادة مواجهاً فتحة الباب، وشاهدت العجيزة المدوَّرة لفتاة ترتدي ثوباً منزليّاً، وتَكْنِسُ بهمَّة التراب فيتطاير كغيمة ضعيفة من حولها. بدا الأمر أشبه بحُلُم، فمن يا ترى هذه الفتاة، وهل صحوت داخل منزلي أم حملني احدهم الى بيت الجيران.

استدارت إيمان بوجهها المتحمِّس لتكنسَ الأزبال وأعقاب السجائر بجوار الحائط، ففاجأني أمرها، واكتشفت سذاجتي.
سيأتي ذلك اليوم وتلك الساعة، حين أفقد السيطرة فيها على نفسي، أمام فتاة بالغة الإثارة، طيِّعَة ولَدِنَة، وتنتظرني. فانسلخُ عن نفسي، وأكون كما تريد هي، ولا أرى شيئاً، حتى تظهر بنِّيَّة في كادر الصورة، ثمَّ تظهر طَرْفِيَّة ومعها جمع من الناس، فينتهي أمري واقعاً في فَخِّ العجوز.

وقفت عند منتصف السُّلَّم الحجريّ المؤدي الى السطح الترابيّ لبيتنا، كان الوقت عصراً والطيور تخطف بأسرابها من فوق رأسي، كنت أنظر الى نديم يارالله وهو يرفع المِزْلَاج من باب غرفته، ويخرج بدشداشة بيضاء، ومن ورائِه إيمان. كان يُمارس معها من دون شكٍّ، لأنِّي أراه يدخل الى الحمَّام، وتتبعه إيمان بعد ذلك بدقائق، ربَّما يفعلانها ثانيةً داخل الحمَّام، لا أحد في البيت سواهما. نديم وإيمان، لا تبدو القصَّة مناسبة ابداً.

١٩/ ٧/ ٢٠٠٣

في مَحْكَمة العدل السماويَّة، لن يتذكَّر أيٌّ من المواطنين في

زقاقنا ذنباً واحداً اقترفه الرفيق چاسب مشخوط، واذا كان احد ما مُذْنِباً في حكايته، فهو الحاج مشخوط شخصيّاً، لأنَّه سَمَّى ابنه بهذا الاسم، ولأنَّه منعه من استبداله باسم أكثر رِقَّة كاسم فؤاد.

سيقف الجميع صامتين أمام المحاكمة الإلهية، فبأيِّ ذنبٍ يُطارد چاسب المسكين، ألأنَّه لبس البدلة الزيتونيّة؟

سيقف محامي الدفاع قائلاً، إنَّ چاسب غبيٌّ، والقانون لا يحمي الأغبياء. والمتهمون بقتله ليسوا سوى أدوات للقدر، وللإرادة الجماهيريّة.

سَيَعْفُطُ أحدهم داخل المحاكمة، فاقداً السيطرة على نفسه. لقد تعوَّد في حياته الماضيّة أنْ يَعْفُطَ كلما سمع جملة الإرادة الجماهيريّة، فباسمها تُقَادُ الجماهير دائماً الى جهنَّم وبئس المصير، وإذا كانت هناك إرادة جماهيريّة فهي إرادتهم للفناء والانتحار غير الواعي.

سيظلُّ چاسب كما هو عهده دائماً، خارج الدائرة، ولن يَلْتَفِتَ لمصيره أحد. سيركض داخل الزقاق خائفاً، بعد أنْ علم بمقتل أحد الرفاق الحزبيِّين قرب بناية الفرقة. يركض چاسب مثل وعل ساخن الرئتين، يؤمن من دون ذَرَّة شكٍّ، بأنَّ مطارديه ظافرون به لا محالة.

نزع قميص بدلته الزيتونيّة، وألقى به سريعاً، ثمَّ توقَّف لنزع بنطلونه، ولم يكترث لمراقبة الأطفال والنساء اللواتي خرجن أمام بيوتهن، رمى ببنطلونه في الهواء، وظلَّ يعدو مثل لاعب أولمبي، كان يريد الوصول الى المنزل، من دون أنْ يعرف السبب، ولأنَّ قدرته على التفكير معطَّلة في تلك اللحظات، فقد كان يستعيد صورة طفوليّة حين يُذنِب ذَنْبَاً فيلجأُ الى البيت طلباً للأمان.

كان شابان ينتظرانه عند رأس الزقاق الثاني، سدَّدا بندقيتيهما على جُرْمِهِ المتقدِّم نحوهما، ومن دون أنْ ينتبه لوجودهما عاجلاه برصاصٍ مُنْهَمِر، فهوى سريعاً على الأرض، وتلوَّنت ملابسه الداخليّة البيضاء بدمه القاني.

هذه المطاردة كانت في رأس الرفيق داخل أيضاً، لكنَّ أحداً لم ينتبه لوجوده، لقد نَسِيَ الناس سيرته السابقة، وأصبح أمامهم مجرد رجل عجوز نزع الصَّلَعُ كلَّ شعرِهِ، يُصلِّي دائماً ويَذْكُر الله، يتخضَّع ويتذلَّل للصغير والكبير، وكأنَّه يهجسُ أنَّ نهايته قد تكون بالغة السوء. لكنَّ عجوزاً ظلَّ يتتبَّعه، وقيل إنَّه أبو نجم الذي سبَّب الرفيق داخل في مقتل ابنه مطلع الثمانينيَّات. فتح هذا العجوز بندقيته من على أحد الأسطح فولّى الرفيق داخل هارباً. ولم يتَّجه الى منزله كما فعل چاسب الغبي. دخل الى زقاقنا، راكضاً بكرش مُرْتَجّ. ومن دون أنْ يُلقي التحيَّة علينا دخل الى منزلي سريعاً، وخطف وراءه شبح الرجل العجوز صاحب البندقيَّة. دخلنا وراءهم، ودخل ناس كثيرون، فوجدنا الرجل العجوز يلهثُ جاحظ العينين، في غرفة الاستقبال، وبنِّيَّة وصديقاتها العجائز جالسات يحتسينَ الشاي ويدخِّنَّ.

لم يكنْ هنالك أيُّ أثر للرفيق داخل.

ركض الرجل العجوز سريعاً باتّجاه السطح ثمَّ نزل وظلَّ يدور مثل تائه. واستجوب النساء العجائز، فقالت طَرْفِيَّة بثقة بالغة:

ـ لقد دخل الرجل الى الغرفة، ثمَّ اتّجه الى صورة الإمام عليٍّ الكبيرة هذه ودخلَ فيها، لقد شاهدناه كيف دخل في الحائط.

لم يُصَدِّق العجوز هذا الكلام، وظلَّ يُجادل طَرْفِيَّة بحنق،

ويتهمها بالخرف وحماية هذا الكلب ابن سطَّعَش كلب. وعاود منفعِلاً ارتقاء السطح. ذلك السطح الذي كان ينزل منه الرفيق داخل مع زمرته كثيراً، في تلك الأيام الخوالي، أثناء حملات التفتيش. اختفى الرجل العجوز من نهاية السُّلَّم، ولم ينزل بعدها.

٥/٧/٢٠٠٣

أتذكَّر جاسم العربنچي. إنَّه نسخةٌ عنِّي. شاهدته يوم التاسع من نيسان على عربته التي يجرها حمار مراهق. كان ينطلق مع جموع الفاتحين لبناية اللجنة الأولمبيّة العراقيّة، التي كانت مَعْقَلاً لابن الريس الْبِكْرِ. كسر الشباب (جوزات) سيارات البورش والفيراري والمارسيدس في الگراج الخاص بسيارات ابن الريس، واستعاضوا بذلك عن المفاتيح غير الموجودة. شغلوا هذه السيارات التي لم تطأ شارعاً في حياتها، وقادوها في شوارع بغداد ثمَّ غاب ذكرُها بعد ذلك بأيام، حيث بيعت الى مهرِّبين محترفين بأثمانٍ بَخْسَة.

نُزِعَت الإشارات المروريّة، وبِيْعَت معسكرات الجيش المتوزِّعة على أطراف بغداد الى مختصِّين بصهر الالمنيوم، ووصل ثمن كتيبة مدفعيّة كاملة الى ما يقرب من الثلاثمئة دولار لا غير. ثمَّ تناهت إلينا الأخبار عن بيع قطيع من جمال الريس الى مهرِّبين سيبيعونها في السعودية. لقد شاهدت المقطع الأخير من فيلم (جزيرة الدكتور مورو) لمارلون براندو، يتجسَّد أمامي، ولم تكنْ لديَّ مشاعر محدَّدة، كنت وعاءً اختلطتْ فيه أمْزِجَةٌ وردودُ أفعالٍ متناقضة.

خرجت خيول السباق الخاصَّة بابن الريس، قادها أشخاص

معنيُّون بالخيل، ورفضت هذه الحيوانات المدلَّلة أكل الخبز اليابس والحشيش أسوةً بخيل عربات النفط اللائي بَقِيْنَ يُراقبنَ صوم هذه الأمهار الرشيقة باستغراب وسُخريَّة.

ظلَّ جاسم العربنچي يروح ويغدو بعربة حماره، ما بين مخازن وزارة التجارة، لساعات طويلة خلال النهار، وكَدَّسَ أكياس الطحين والرُّز وعُلب الزيوت والصوابين وغيرها من مواد الحصَّة التموينيَّة في غرف بيته المتهالِك. ثمَّ ختم غزوته بجلبه لكرسيٍّ مُذَهَّبٍ يشبه العرش، قيل إنَّه عائدٌ للريس شخصيّاً. وضع جاسم هذا الكرسيَّ داخل باحة الحوش، وقاد أمّه العجوز المُنْهَكَة وأجلسها عليه.

شاهدت مع غيري جاسم العربنچي، وأدركت الشبه الذي يجمعنا، فقلت مع نفسي إنَّه أخي الآخر الذي ضيَّعني الزمان عنه. كان الامر يُقارب حدود الجنون الكامل، فجاسم الذي كدَّس المواد التموينيّة في البيت، ظلَّ يوزعها بين كلٍّ من يطرق بابه طلباً لكيس من الطحين أو الرُّز أو أيٍّ شيءٍ اخر، ولكنَّه اشترط على الطالبين أنْ يُقَبِّلُوا يدَ أمِّهِ العجوز كثمنٍ لما يطلبون.

استجاب الكثيرون لمطْلَب جاسم، واعتبروه نوعاً من الدُّعَابة أو النُّكْتَة، ثمَّ ما الضيرُ في تقبيل يد امرأة ضئيلة يُخالطها الْعَتَهُ وفقدان الذاكرة، فهي مثل أمّنَا جميعاً.

شاهدت أمَّ جاسم. فخربت حكايتي تماماً. كنت أشبه جاسم كأنَّنا تَوْأَم، وكانت أمّ جاسم تشبه بنيَّة أيضاً، كانت بنيَّة نفسها بعد إضافة عشر سنينٍ على كتفيها. ولم أرد الانقياد لفضولي، ومعرفة هل الأب يشبه يارالله أيضاً، وهل هناك أخٌ يشبه حميد.

ظلَّت في ذهني لفترة طويلة صورة هذه العجوز (المَلِكَة) التي توَّجها ابنها على أطنان الطحين والرُّز وأكياس الشاي ومساحيق الغسيل. كانت نظرات اللامبالاة وعدم الاهتمام التي تلقيها على المشهد الغريب من حولها يُمثِّل ذُرْوَةً خَفِيَّةً ليس إلَّا! لمشهد النهايات الذي تعيشه البلاد.

الفصل السابع

أخطاء

[لُورْسَان كَانَتْ أَشْبَهُ بِسَائِحَةٍ تَدْخُلُ إِلَى بَلَدٍ غَرِيْبٍ. بَلَدٍ ارْتَبَطَتْ بِهِ مِنْ خِلَالِ نُوسْتَالْجْيَا الْأَبِ والْأُمِّ.]

كبير المنضِّدين

كنت أتبع سيارة لورسان الصغيرة بسيارتي على الطريق السريع، حين استعدت في ذهني ما قرأته في أوراق نديم ليلة البارحة. أشياء لا يمكن التثبُّت من صحَّتها، ربَّما كانت نتاج مخيَّلته لا غير. ولكنَّها حملت مرارة مؤكَّدة. وظلَّت أسئلة عديدة، مع ذلك، معلَّقة في ذهني اتّجاه الصورة التي كشفتها لي هذه الأوراق عن نديم وعائلته.

انحرفتْ سيارة لورسان داخلةً في شارع فرعي، فتبعتها، حتى وقفت أمام بيت فَارِهٍ ذي حديقة واسعة. رصفت سيارتي خلف سيارة لورسان، ونزلتُ معها.

كان بيت عائلة لورسان واسعاً، وبدت المسافة على المَمْشَى الحجريّ بين الباب الخارجي وبناء البيت طويلة. كان بيتاً قديماً، ولم يُرَمَّمْ منذ زمن طويل.

أعرف، من خلال أحاديث لورسان، أنَّ هذا البيت كان قد صُوْدِرَ من قبل الدولة بعد هرب والدها وعائلته الصغيرة خارج العراق. وظلَّت أطياف المطاردة تحوم حول رأسه لسنوات، وفي منفاه القلق سمع أنَّ الدولة استوْلَتْ على البيت، وأنَّ الكثير من رفاقه واصدقائه أُعْتقلوا أو قتلوا، وكان متهماً معهم بالانضمام الى خَلِيَّة يساريَّة تسعى لِقَلْبِ النظام.

عاد الأب بعد أكثر من ربع قرن، واستعاد بيته، وهذا ما شكَّل له فرقاً تجاه نظرته لبلده وهو يخطو على سِكَّة التغيير. أما لورسان فكانت أشبه بسائحة تدخل الى بلد غريب. بلد ارتبطت به من خلال نوستالجيا الأب والأم، وتُطرفهما باستحضار الذكريات في كلِّ وقت وأوان، حتى أنَّهما عَلَّمَا لورسان كلَّ صغيرة وكبيرة عن العراق، ابتداءً من المفردات الشعبيَّة، وليس انتهاءً بالأكلات العراقيّة والملابس والأغاني التي حفظتها كلَّها، مثل واجب مدرسيٍّ ستُسأل عنه ذات يوم. كانا ـ والدا لورسان ـ يَمْتَحَان من عراقٍ خارج الزمن، عراقٍ أسطوريٍّ، هو الأجمل والأعظم والأكبر والأحبُّ إليهما. وهذا ما لم يجداه حين عادا إليه.

وجدا بيتهما. كان مختلفاً قليلاً عن الصور التذْكَاريَّة التي نجحا في أخذها في ارتباك الفرار المخيف ذاك. ولكنَّه من المؤكَّد بيتهما، حتى أنَّ نخلة أو اثنتين كانتا في مكانهما. كانت الصورة بالغة الرومانتيكيّة، ولم يُفكِّرا باحتمال أنَّ الأشجار في حديقة البيت ربَّما قُلِعَتْ وزُرِعَتْ غيرها لمرَّات عديدة خلال أكثر من ربع قرن.

بالنسبة للورسان، لم يكن البيت والبلد نفسه يُشكِّل شيئاً ذا أهميّة كبيرة، كانت تعيش لحظات ضيق طويلة، خصوصاً حين تُفكِّر باصدقائها في شمال أوروبا، أو صديقاتها في عمان. ولم تتقبَّل مع نفسها أيَّ سبب لهذا النسف السريع لعالمها والدخول الى عالم آخر، لا يبدو في كلِّ الأحوال ذا أفضليّة أو ميزة.

ما هو الوطن الأمُّ، إنَّه هناك في ذاكرة الأبوين، وفي مخيَّلتها، ومن الصعب بالنسبة لها أنْ تربط ما بين الصورتين، لكنَّها تُصدِّق هذه الإمكانية حين ترى تلك النَّشْوَة الغريبة على وجه

أبيها وهو يتملّى كلَّ شيءٍ مثل عالمِ آثاري يقف أمام لُقْيَة مثيرة.

لقد افترضت أنَّ سبب عودة عائلة لورسان هو من أجل لورسان نفسها، من أجل أنْ تجد زوجاً لها، وارتجَّتْ مع حالة التفكير بمصير ومستقبل لورسان، كلُّ الأفكار اليساريّة والتحرريّة التي كان الأب يتبنَّاها، فإنَّ تتزوَّج لورسان من رجل نرويجيّ أو أردنيّ أو فلسطينيّ، هذا يعني أنَّ منفاهم سيتأبَّد. حتى لو عادوا بعدها الى العراق. فأغصان العائلة ستمتدُّ خارج البلد الأم، وتستطيل باتّجاه مكان مجهول، لا يستطيعون تخْمِينه.

لقد افترضت أشياء كثيرة، ولكنّي لست متأكّداً من شيء. صافحت السيد رؤوف مالك والد لورسان، والسيدة زوجته، وقضيت معهم أمسية جميلة، جعلتني انقطع عن العالم الذي كان يمور في الخارج. وأدركت لحظتها أنَّني أجلس ها هنا لأنَّ أمري حُسِمَ كفرد من هذه العائلة.

* * *

لم أكن أعرف أشخاصاً كثيرين في بغداد، وكنت احتاج لشراء المشروب دائماً. لم أجد حانات ابي نؤاس أو شارع السعدون، وبدا لي الشربُ وحيداً في غرفتي أمراً يزيد من شعوري بالعزلة. لم أتعوَّد على هذه الأجواء. خصوصاً وأنَّ المناخ العام يُعادي هذه الممارسة. لم أعرف هل مازال نديم يشرب الخمْرَة، أم انقطع عن ذلك. وتخيَّلت إمكانية دعوته الى بيتي.

أعدت قراءة بعض الفقرات، وأنا احتسي خَمْرَة نادرة وأحسست بإغراء متابعة اللُعبة الخفيَّة التي يلعبها نديم مع نفسه. كنت أفكِّر طوال النهار بالفخِّ الكبير الذي وضعه السيد رؤوف

مالك أمام ابنته. لا يمكن لهذه الفتاة أنْ تستمرَّ في العيش هنا أبداً. ليس الأمر ذنبها. أنا مثلاً جئت لكي أدْفَن هنا، لم تكنْ لديَّ دوافع عميقة تجاه الحياة، وهذا هاجسٌ لم استطع التخلُّص منه أبداً. لقد عشت حياتي بكلِّ تفاصيلها، عشت ما أشعر بأنَّه حصَّتي من الحياة، لم أترك امرأة تُراود حلمي. انتفت المسافة في كثير من الأحيان بين الرغبة وتحقيقها. ولا أريد أنْ أسرد الأمثلة على ذلك. لقد قُمْتُ بموبقات حقيقيَّة، ستصدم بالتأكيد من يسمعها منِّي. جعلتُ غرائزي تتمدَّد مثل شجرة في سماء الشهوات، ولم أمتلئ تماماً. كان ينقصني شيءٌ جوهريٌّ، كنت أريد الطمأنينة. والبحث عن الطمأنينة هو عادةً أول خطوة باتّجاه الشيخوخة.

هل هذا ما تُفكِّر فيه لورسان أيضاً؟ أشكُّ في ذلك.

ربَّما كانت جِنْسِيَّتي المزدوجة هي ما حَرَّك لورسان باتّجاهي، أنا شخصٌ منقسمٌ بين عالمين، وهي ترى نصفي الآخر، وتُفكِّر بالاحتمالات الواقعيّة لغَلَبَة هذا النصف الآخر في النهاية، استناداً الى الظلام الدامس الذي يُغطي ببطءٍ وقوَّة سماء العراق. سأحزم أمتعتي نفسها التي جئت بها وأعود بيُسر وسهولة الى العالم الذي تركته ورائي، وتكون هي برفقتي طبعاً، عائدةً الى العالم الذي تركته وراءها أيضاً. سنكون، أنا وهي، شخصين، أكثر واقعيةً، بعد الاختبار القاسي الذي شهدته الصورة الحُلُمِيَّة عن بلدنا على أرض الواقع.

ولكن هذا افتراض ليس إلَّا. لن يحدث أبداً ما يدفعني للخروج مجدَّداً، حتى لو كان ذلك رغبة لورسان نفسها.

* * *

كنت أفكِّر، وأنا أتحرَّك بطريقة آليَّة للبحث عن آثاث جديد للبيت، بأنَّ هناك خطأً يجب أنْ يُصَحَّح. لقد دخلنا أنا ونديم الى جريدة (رياح التغيير) في اليوم نفسه، وكانت لورسان موجودة في قسم الترجمة قبلنا بأشهر. كان يُفترض بها أنْ تلتقي داخل كافتريا الجريدة، أو في أحد اقسام التحرير بنديم. لماذا إلتقت بي أنا؟

إنَّه شخصٌ ذكيٌّ، ولا أعرف مدى خبرته، ولكنَّه قادر على اجتذاب لورسان إليه. هناك إمكانية لذلك. هو يُعاني من رغبة سفر متورِّمة، وهي تبحث عن شخص تتزوَّجه وتخرج به الى عالمها السابق. أما والداها، فهما يقفان، مثلي، عند أطلال عالمهما، وينفثان بصبر على جمره الذاوي. ومعنى الحياة المتبقِّية لديهما محدَّد بالبقاء قرب هذه الأطلال، وافتراض قيامها من جديد.

سيتكلَّم نديم داخل الكافتريا وهو يحتسي مشروباً غازياً عن والدته وأخيه المقيم في شمال اميركا منذ عقد من الزمان. يتحدَّث معها عن الحياة التي انتهت لديه داخل بغداد، والاقرباء الذين ظهروا فجأةً، قادمين من الجنوب في كلِّ حين ووقت، وكيف أنَّهم يُنَغِّصُون عليه حياته بتدخُّلات فَظَّة. إنَّهم يُفكِّرون بتزويجه من إحدى بناتهم. وبعضهم طرح فكرةَ بيع البيت وانتقاله للعيش بجوارهم، هناك، على الحدود الواهية بين البداوة والريف.

كان يُفضِّل ألف مرَّة وجه يارالله وبنيَّة وهما يتعاركان كلَّ يوم، على هذه الوجوه العدائيّة بفطرتها، التي يشاهدها ساكنةً على وسائد غرفة الضيوف. كان يُفضِّل عدم العودة والمبيت في الشارع، أو داخل معسكر اعتقال اميركي على رؤية أولاد عَمِّ والده، واخوالهم وابنائهم، وهم يطرقون عليه الباب خلال الليل أو النهار.

سترى لورسان ما يميِّز نديم عن الآخرين، إنَّها ذكيَّة وقادرة

على ذلك، وستعرف أنَّه شخصٌ يريد الانفلات وتمنعه عن ذلك كوابح نفسيّة عديدة.

ـ بعِ البيتَ، إنَّ ثمنه مرتفع الآن. أخرج جوازاً، فالأمر كما علمت أَصبح سهلاً، ولن تمرَّ بمتاعب التسعينيّات مع دائرة الجوازات. المبلغ سينفعنا، أنا وانت، وأنا أملك جنسيّة نرويجيّة كما تعلم، سنسافر الى هناك. إفعل ما أطلبه منك فقط، وحين نخرج من الحدود نَمْ أنت، وأترك لي قيادة حياتنا بعدها.

ستقول لورسان ذلك، وهي تضغط على يده المرتخية على قماش الطاولة في كافتريا الجريدة.

* * *

كان يوماً سيئاً آخر بالقياس العام. قصاصات الأخبار التي ترد الى قسم التنضيد تحمل الصيغة نفسها لأخبار اليوم السابق واليوم الذي سبقه وهكذا. ما يتغيَّر هو عدد القتلى، أو المخطوفين، وعدد السيارات المنفجرة داخل العاصمة. ولكنَّ روتين الفاجعة هذا لا يجعل اليوم سيئاً بالنسبة لي، لولا أنَّ ما دفعته من أخبار الى أيدي المنضِّدين حوى خبر اختطاف عمال المطبعة، مطبعتنا، على أيدي مجهولين.

ثمَّ حدثٌ آخر النهار ما جعل يومنا مميَّزاً بسوئِهِ، فقد دخل فايروس جديد، لم نعرفه سابقاً الى كلِّ حواسيب القسم المربوطة بالانترنت. لم ينتبه إليه احد في البداية، ولكنَّه أغلق الشاشات جميعاً قبل نهاية الدوام بساعة، ثمَّ ظهرتْ داخل سواد الشاشات صورة لسلاح كلاشينكوف عادي في دائرة بيضاء، مع عبارة (آي لوف بن لادن).

كنّا قد حولنا العدد الى المطْبَعة ما عدا الصفحة الأولى من الجريدة. فدخلنا في انذار، وغرقت الجريدة وما تبقّى من العاملين فيها داخل هرجٍ حقيقيٍّ. واستطعنا أخيراً الاستعانة بحواسيب المحرِّرين لإنجاز الجريدة لهذا اليوم. على أمل استقدام حواسيب بديلة لقسم التنضيد في اليوم التالي على سبيل الطوارئ، الى أنْ نتمكّن من معالجة الفايروس الإرهابي الذي غزانا.

ظلَّ نديم في مكانه أمام حاسبته المطْفَأة يراقب حركاتنا بعدم اهتمام، ثمَّ طوى جريدة اليوم في يده، وحدَّق في ساعة الجدار. كُنّا قد تجاوزنا موعد خروجنا بساعة أو أكثر.

خرجنا، وطلبت منه إيصاله بسيارتي الى المكان الذي يرغبه، لكنَّه رفض، وبدا هائم النظرة، وهادئاً. قال إنَّه يرغب بالتسكُّع، لن يعود الى البيت في هذه الساعة، ولربَّما لن يعود الى البيت ابداً هذا اليوم، فمن المؤكَّد أنَّ عَمَّ والده (مشاري) وأحد أولاده ينتظرونه في البيت الآن.

مَرَّ رتل اميركي مسرع في الشارع أمامنا، ونحن نسير باتّجاه مرأب الجريدة، فأطلق نديم حسرة عميقة.

لم انتبه حينها، بأنَّ ملف أوراق نديم كان قد ضُرِبَ داخل الحاسبة. لقد مُسِحَتْ جميع مواد الجريدة، هذا ما قاله مهندس الصيانة، ويحتاج لفترة كي يعيد الحواسيب لعملها المعتاد مرَّة ثانية. لقد ضاع كتاب نديم، وكان مغموماً بشكل استثنائي من أجل ذلك.

تحرَّكت بسيارتي خارجاً من المرأب وسرت بمحاذاته. رجوته أنْ يركب لكنَّه كرَّر رفضه، فودَّعته وأنا أغذُّ من سرعة السيارة.

ظلَّت صورته وهو يسير شارد الذهن، واضعاً كفَّيه في جيبي

قمصلته الشاموا، تتصاغر في مرآة السيارة الأماميَّة حتى اختفتْ وأنا أنحرف عند تقاطع الشوارع.

* * *

أفكِّر الآن بطريقة لإصلاح كلِّ أخطائي. لم يرجع نديم الى الجريدة مرَّة ثانية، ولم يعرف أحد طريقة للوصول إليه، حتى أنَّه لم يقتنِ هاتفاً خلويّاً كالآخرين كي نتصل به. بدا خروجه عصر ذلك اليوم من الجريدة مصمَّماً كي يغدو خروجاً أكيداً ومبرماً لا رجعة فيه.

لو أنَّه تريَّث قليلاً، لكنت أصلحت كلَّ شيء. أوراقك لم تختفِ يا صديقي، لقد سحبتها وها هي معي في محفظة السيارة. وليس عليك أنْ تبتئس، فأنت ستسافر مع لورسان على طائرة واحدة. ستدور بك الطائرة العراقيّة المنهكة بشكلٍ حلزونيٍّ فوق مدرجات المطار حتى تبلغ ارتفاع ألف واربعمئة قدم، هرباً من قذائف المسلَّحين في البساتين المجاورة للمطار، ثمَّ تندفع بسرعتها القصوى نحو عمان أو دمشق، هناك ستكون لديك فرصة لتصحيح منظورك تجاه حياتك يا صديقي.

سيكون لديك أوكسجين كافٍ للتنفُّس بحريَّة، وتأمُّل ذلك الانسان في سجن فئران الاختبار الذي تركته، والذي يُدعى نديم يارالله، ستعرف نسبة الخطأ ونسبة الصواب، ولربَّما اتَّخذتَ حينها قرارات لا تدور في رأسك الآن.

أقول ذلك وأنا أرى نفسي تستسلم لنصيحة مضادَّة، فها هو جسدي يتداعى، ويتناقص الوقت الذي أقضيه خارج البيت كلَّ يوم، ليس بسبب الفوضى التي تخترق حيِّنَا السكني بين حين

وآخر، وإنَّما بسبب تضخم الورم في حَنْجَرتي، والصعوبة في الكلام.

أقذف بالسيجارة نصف المستهلكة نحو حشائش الحديقة المعتمة، وأتنشَّقُ بعمق هواء الليل الفاتر، بينما أوراق نديم تجثمُ على طاولة الحدائق البلاستيكيّة أمامي، خاليةً من أيٍّ نهاية واضحة.

الفصل الثامن

الإقامة في الـ (هنانك)

[الْكُلُّ غَيْرُ حَقِيْقِيٍّ، وإِذَاْ كَاْنَ حَقِيْقِيّاً فَسَيَكُوْنُ تَرَاجِيْدِيا سَخِيْفَة.]

Cioran

أنا كبير المنضِّدين في جريدة (رياح التدمير)، أو التفجير أو التطبير أو التهجير، لا أتذكّر بالضبط، لأنّي لست مهتماً بذلك الآن، ويصعب في كثير من الاحيان تذكُّر شيءٍ لم تولهِ عناية أو اهتماماً كافياً.

هذا ما أتداوله احياناً مع اصدقائي المتفرّقين حول العالم عبر نافذة الـ (Chat). اجلس لساعات طويلة مستبدلاً الحياة الممزَّقة في الخارج بحياة اكثر اتّساقاً مع اصدقاء متناثرين لا يجمعني بهم رابط عرقي أو اثني أو ديني سوى رغبة الاتصال بحياة افتراضية متخيَّلة.

اعيش لساعات مع اصدقائي داخل الحياة المتخيَّلة، وافترض انها قادرة، هذه الحياة، على الهبوط في يوم ما الى تراب الارض وشمسه الحارقة.

انتم تعرفون بالطبع أنني اتحدَّث الآن بلسان غدا لساني من دون رغبة منّي. حدث هذا الأمر سابقاً مع أشخاص كثيرين. وأنا الآن لست أنا بدرجة ما. وهذا يلائمني كثيراً، لأنَّه يتصل بعمق مع معنى الدردشة المحمومة مع أربعة أو خمسة اشخاص في وقت واحد، منعزلاً في غرفتي داخل البيت، عن صخب الشارع ومفاجآته.

أنا اتقدَّم وأتحرَّك مع اصدقائي هناك. لقد وصل ستيوارت، على سبيل المثال، الى نيوجيرسي صباح هذا اليوم، وهبط من مقود شاحنته الصفراء، التي تحمل جزءاً من السيرك المتنقِّل، الى اقرب مقهى للانترنت. كان متشوِّقاً لإخباري بأنَّه عاد، عن طريق الصدفة لا اكثر، الى مسقط رأسه.

وقبل ان اجلب قدح الشاي الذي اعدته والدتي العجوز، كانت نافذة جديدة قد ظهرت على شاشة حاسوبي.

_ *hi*

_ *hi*

أجبت بسرعة على تحية ليوبليانا، ثمَّ خطفت باتّجاه المطبخ، وفاجأت العجوز وهي تدخِّن على كرسي الحدائق أمام باب المطبخ المواجه للحديقة. كانت قد اخبرتني سابقاً بأنَّها تركت التدخين، ولكنِّي الآن غير معنيٍّ بهذه الحكاية، اخذت قدح الشاي من يدها وعدت الى غرفتي. فوجدت ليوبليانا وقد كتبت فقرة كاملة.

إنَّها تخبرني بالمتاعب التي تواجهها بعد عودتها من اميركا الى جنوب البوسنة. الاحياء داخل مدينتها الصغيرة مقسَّمة، شوارع صربية وشوارع بوسنية برعاية وإشراف من الأمم المتحدة، حتى ان المدرسة الابتدائية القريبة من بيتها قُسِّمت، بعد مفاوضات عسيرة، الى صفوف بوسنية واخرى صربية. بدا الامر غريباً بالنسبة لي، ومخيفاً، ولا يمكن تخيُّله.

كانت تقول إنَّ زوجها العراقي (هاميت) يعاني من مشاكل التواصل، فهو لا يطيق خليط اللغات السلافية الذي يتحدَّث به

الجميع من حوله، وتقول إنَّه يُحذِّرها دائماً أنْ تتحدَّث مثل مواطنيها امامه.

ـ أنا أفكِّر بعدم إنجاب أطفال ابداً، ليس بسبب هاميت، وإنَّما بسبب المدرسة المجاورة. إنَّه شيء فظيع يا كبير المنضِّدين. لماذا علينا التفكير دائماً بأنَّ البقاء في المنفى يحوي مشاكل اقل؟

قالت ليوبيليانا ذلك، قبل ان انتقل للحديث مع ستيوارت، ثمَّ الجواب عن سؤال صديق آخر، وهكذا. كانت الإثارة تكمُن في البقاء على صلة متوازنة مع الجميع في الوقت نفسه. قبل ان ينتهي كلُّ شيء، تهبط القدرة الكهربائية في مولدة البيت، بسبب نفاد البنزين منها، ثمَّ تُفاجئني بانطفائها وانطفاء كلِّ الأجهزة، فيرينُ صمتٌ دامس، يخرقه الصوت الضعيف لأمّي القادم من كرسيها بجوار باب المطبخ:

ـ حاط الله ويه حظي.

أعرف أنَّها تردِّد هذه الجملة في هذا الوقت بالتحديد، بسبب رغبتها الدائمة بألَّا أصرف مرتبي على البنزين واجور الانترنت، وتتمنَّى لو فكَّرت بطريقة واقعيَّة، واستثمر حياتي بطريقة يتبعها الاشخاص المتَّزنون.

لكن المولِّدة ـ في الحقيقة ـ مازالت تجأرُ فوق سطح المنزل، ولديَّ وقت كافٍ للتعرُّف على مجريات حيوات اصدقائي خلال يومنا هذا.

تتسع دائرة الاصدقاء على الماسنجر، وتضيق على الارض، خصوصاً في هذه الايام، حيث الخروج من البيت هو انتحار محتمل على يد الغصابات المسلَّحة المنتشرة في كلِّ مكان.

لقد سمعت أن لورسان غادرت حيَّها السكني مع عائلتها، بعد

ورود تهديدات بالمغادرة من جهة مجهولة، تسعى لتطهير المنطقة السكنية بأكملها عرقيّاً. ولم تباشر لورسان عملها منذ اسبوع مكتفيةً باتصالات متفرّقة. ان والدها يعاني من انتكاسة صحية، وامها تبكي طوال الوقت، وهي غير قادرة على تركهم بهذه الحالة. وزواجنا المفترض تأجّل بسبب ذلك الى وقت غير معلوم.

انا الان اتخيَّل، أو انني اكتب لأحد الاصدقاء على نافذة الـ (Chat) ما اشعر به، اتخيَّل السيد رؤوف مالك كيف خرج في ليلة ظلماء بصُرَّة ملابس وحقيبة نقود وأوراق رسميَّة من البيت الذي تركه سابقاً بالطريقة نفسها. يتذكَّر مع زوجته بالذات هذه الصورة التي غارت عميقاً في الذاكرة، ويكون لديهما، والخطر يتنفَّس من حولهما، وقت كافٍ كي يقول لها، وهو ينظر الى اشجار النخيل الشبحيَّة داخل عتمة الحديقة:

ـ لقد تكرَّرت هذه الصورة يا حبيبتي، ألَّا يعني هذا ان الصور الاخرى يمكن ان تتكرَّر أيضاً، الصور الجميلة؟

تتأثر زوجته بكلماته المرتجفة وتجهش بالبكاء، ويغادرون بسيارة لورسان الى جهة أخرى من بغداد، حيث يقيم اقرباء لهم.

تصاب ليوبليانا بالحزن بسبب هذه الكلمات، وتظلُّ تذكّرني بهذه الحكاية لأيام لاحقة. ولكنَّ ذهني يشرد الى موضوع بعيد، فهل يراقب زوجها هاميت ما يجري بيننا من أحاديث أم ماذا. ربَّما كان شخصاً اخترعته ليوبليانا وليس له وجود من حولها. ومثل هذه الاشياء لا يمكن التنبؤ بها ابداً، أو الوقوف على حقيقتها، لأن قانون العالم الافتراضي للشبكة العنكبوتيَّة، يحجب هوية المستخدمين، إلَّا ما رغب هؤلاء بعرضه من مفردات الهوية. وهذا ما لا يخضع بالضرورة الى ثنائية التكذيب والتصديق.

وأنا أخضع بالحوار مع ليوبليانا والآخرين الى ضرورات مضاعفة، فأنا أيضاً شخص افتراضي بالنسبة لهم، فضلاً عن كوني شخصاً متخيَّلاً بالاساس في رأس رجل آخر، يملك الحقَّ في حجب اسمي عن هذه الحكاية، والاكتفاء بلقبي العمومي: كبير المنضِّدين.

* * *

أخرج من البيت نصف مخمور، بعد نفاد مؤونتي من المشروبات، فأرى المدينة وما يجاورها، لا أتذكّر وأنا في هذه الحال من قال تلك الجملة، إنَّ الحقائق عبارة عن تراجيديا سخيفة، واستطيع رؤية ذلك، فاصحاب الحقائق المتصارعة قسَّموا البلاد، وقسَّموا مدينتي، ولكنّي انطلق من حالة نصف المخمور لأرى الحقائق وما يجاورها. حقائق الجميع، وأوهامهم أيضاً. فأرى الشارع شبه الخالي، والمحال المغلقة، أرى عربات مدنية من دون لوحات تعريف، تغصُّ بشباب يحملون اسلحة خفيفة ومتوسطة. اجمد في مكاني مثل تمثال، حتى يمرَّ شبح هذه الحقيقة على الشارع البعيد، خشية أنْ يلمحوني. ثمَّ أضحك فجأةً، فما هي الفرصة المتاحة لهؤلاء لرؤية شخص غير حقيقي، لا وجود له، يعرف باسمه العمومي: كبير المنضِّدين؟!

إنطلاقاً من صفتي هذه، ووضعي الخاص، رتبت ليلة امس، عبر الهاتف والماسنجر موعداً للقاء هذا اليوم. لقد دعوت كلَّ أصدقائي، واغريتهم بالخروج. ولم اخبرهم طبعاً بأنّي أخشى الاحساس بالوحدة داخل مدينة المسلَّحين المقفرة. وأنّي ابحث في هذا الوقت من النهار عن شيء شبه مستحيل، محل أو مخزن

خفيٌّ يبيع مشروباً كحوليَّاً، مهما كان نوعه، ويباع على الاغلب باثمان مرتفعة، تناسب مجازفة الاستمرار بمهنة كهذه.

أتجاهل حظر التجوال الكامل المفروض منذ اسبوع، ويبدو أنّي لست الوحيد من يفعل ذلك، هناك اطفال يلعبون على اسفلت احد الشوارع المغلقة بكتل كونكريتية من الجانبين. ورأيت رجلاً عجوزاً يمتطي دراجة هوائية ويلفُّ بها بمهارة بين الحفر وجذوع النخيل الملقاة على الرصيف. كان من الضروري افتراض ان هناك سيارة واحدة على الاقل تخترق الشارع، مغرية السابلة بالركوب. ولكنّي لن احتاج لذلك، لأنّي لا أسير الآن في البغداد التي تعرفونها، إنَّها مدينة اخرى تنتمي الى الـ(هنانك) الذي كتب عنه نديم في أوراقه الملغاة. أستطيع أن أرى الجسد اللامع لقطار مترو يخترق الهواء خارجاً من نفق بجوار محطَّة قطارات العلاوي، وحين ينزلق متوقفاً بهدوء يبدأ صمت الأموات المهيمن على بغدادي بالتمزُّق، وتنفتح الأبواب الكثيرة في قطار المترو تلقائيَّاً وبحركة حازمة، ثمَّ يخرج الركاب الى الرصيف ويتقاطعون في سيرهم باتّجاهات مختلفة، وعند هذه النقطة افقد التركيز، وتتشظَّى كتلة النازلين مع الصاعدين وسط لغط لا نهائي. أغمض عينيَّ، متمليّاً هذه الهمهمة المألوفة، ويتدفَّق الدم في صدري، حين اعرف بأنَّ ما أعيشه في هذه اللحظات ليس سوى فكِّ الاسرار عن غموض الاصوات التي رافقتني من النرويج الى هنا. أصوات الموتى عبر أزمان سحيقة على هذه الأرض، كما قال لي نديم عصر ذلك اليوم. أو انهم هؤلاء الميِّتُون خلال حقبة التغيير، مواطنو العراق الآخر، العراق الميت.

أفتح عينيَّ فأجد نفسي أمام باب القُشْلَة القديمة. ها هنا كانت

سراي والي بغداد العثماني، وهنا كانت ادارة الجيش البريطاني الذي حلَّ محلَّها، وها هي الآن ليست ملكاً لأحد. ادخل الى البناية التي حولتها بجهدي الخيالي الى اكبر مركز ثقافي داخل العاصمة وخارجها. وتستقبلني روائح نباتات الحديقة التي تتوسَّط البناية. ارى سينمائيين شباب ومسرحيين وكتاباً يتقاطرون يومياً من مختلف ارجاء العراق، وانتبه الى اني كنت احمل طوال هذا الوقت مخطوطة نديم يارالله بين يدي، تلك التي تهاونت في اعادتها اليه، ولم تتح لي فرصة لذلك بعدها.

دخلت الى الكافتريا الصيفية، وفي الزاوية البعيدة، اسفل لوحات ضخمة لجواد سليم وشاكر حسن آل سعيد كان الاصدقاء ينتظروني.

كان (هاميت) زوج ليوبليانا بملابسه المرقَّعة، يجلس هناك على طرف الكرسي الطويل المكسو بالبسط الجنوبيَّة، وكأنَّه مازال بهيئته هذه يعمل على عربة الشاي في محافظة الزرقاء بالاردن، وبجواره كان صاحب مكتب الاستنساخ بلحيته الاسلاموية الصغيرة، واسنانه المنخورة، تماماً كما وصفه نديم في المخطوطة، ولن أنسى طبعاً سائق التكسي، الذي لا يملك ملامح مميَّزة، أو علامة فارقة في مظهره، ما عدا ذلك المنديل الذي يضعه دائماً حول ياقته.

وعلى الطاولة الخشبيَّة المزخرفة، كان عبود مطر شنشول يسند ذراعيه السوداوين، ويثرثر بشيء لا اسمعه من مسافتي البعيدة. يحرِّك يده ذات الإصبعين، متجاهلاً العطب الذي فيها.

كنت اعرف أنَّ حكايتي تجري على لسان نديم، وان الأشخاص الذين اجلس معهم الآن نصفهم من الموتى والآخرون

متخيّلون، وان الفضاء الذي نتحرّك فيه هو مزيج من الهنا والهناك، مثلما هي خلطة الحلُم المناسبة.

كان الجميع يتحدَّث عن نهاية مناسبة لحكاية نديم نفسه، حكاية الشخص الذي تخيَّل حكاياتنا هذه. ولم أكن متحمّساً لذلك، فلم نكن نملك استقلالية كافية عن نديم ومخيّلته كي نقرّر نحن، بدلاً منه، مصيره، أو المحطّات المناسبة التي سيمرُّ بها في ما بعد. وهو، بصراحة، امر يزعجني، فأنا، مثل الأشخاص الحقيقيين، مكبلٌ أيضاً باشتراطات لا املك ردَّها.

كانت فتاة ماليزية قصيرة وصفراء البشرة قد وضعت علب هانيغين مبرَّدة على الطاولة الخشبية المزخرفة، ثمَّ ابتعدت فتبعتها ببصري، وانتظرت أن تنتهي المحاورة المحمومة بين عبود ذي الاصبعين وصاحب المكتب، ذلك الذي لا يريد ابعاد صورة مغناطيس الخراب عن ذهنه. وتحدَّث سائق التكسي منزعجاً عن سيارته التي سُلبت منه من قبل عصابة، ستستخدمها حتماً في ما بعد في عملية تفخيخ مروّعة.

- الجيد في الأمر انك لن تكون داخلها في ذلك الوقت.

قال هاميت ساخراً، وانفجر الجميع ضاحكين، واستغربت أن تتلبَّس هاميت هذه الروح الساخرة. واندفع الاصدقاء مجدَّداً في ثرثرة متقاطعة، وكأنَّ الجميع لا يريد الانصات للجميع، بينما بقيت منتظراً أنْ يزدهي المكان بمشهد النساء وهنَّ يدخلن ويجلسن على الطاولات المجاورة، وهذا ما يفترض ان يحدث مع اقتراب المغيب، ولكنَّ هذه الصورة تأخَّرت كثيراً.

كنت اشارك الاصدقاء الشرب والثرثرة، ولكنّي في أعماقي أفكّر بلورسان، ما الذي ستفعله بعد موتي يا ترى. ستعود مع

عائلتها الى عمان، ومن هناك سيفكّرون بخطط بديلة لتلك الخطط التي تخرَّبت داخل فوضى البلاد.

كنت اعرف بأنَّ اكثر الداخلين الى بناية القُشْلَة في هذه الساعة هم اناس ميّتون في الحقيقة. وأن عبود الذي لا يريد التخلّي عن قيادة الكلام المثار بين الاصدقاء الآن هو ميت وشابع موت منذ اربع وعشرين سنة، والآخرون متخيَّلون، لكنّي لم استطع معرفة الهوية الوجودية لهاميت، لأنَّ نديم لم يعرف، في الحقيقة، أيَّ شيء عن مصير أخيه حميد، وكنت أعرف، حتى تلك اللحظة، بأنّي شخص منسوج على صورة كبير المنضّدين الأصلي. يدور الكلام في رأسي مثل دوامة مسرعة على محور غائب، وتنبثق صورة لورسان كلَّ حين، وبدا عبود وكأنَّه قرأ ما يشغلني، فوجه لي كلاماً مباغتاً:

ـ لا تُفكّر كثيراً بها، من الاجدى أنْ تفكّر الآن بنفسك.

رشف من الكأس أمامه، وسحب نَفَسَاً طويلاً من سيجارته، فعرفت بأنّها أوصاف تسبق عادة النطق بالكلمات الكبيرة، فداخلني ضيقٌ مما سيأتي.

ـ لقد انتهت حكايتك يا صديقي بالطريقة المعهودة، ليست هناك مفاجآت أو تفاصيل استثنائية، لقد متَّ بكلِّ بساطة، كما يموت آخرون كثر من حولك. كما يموت الآن في هذه اللحظة أشخاص لا نعرفهم، في مكان ليس بالبعيد عن مكاننا هذا.

صدمتني هذه الكلمات القاسية بصدقها، وشعرت معها، بتناقض غريب يحوط مشاعري، لقد تحرَّرت من لورسان. أنا ميت إذن ولست خيالاً في ذهن نديم. تبخَّرت لورسان فجأةً، فهي الآن

تنتمي الى عالم آخر. وجثم على لساني صمت ثقيل، فلم أعلّق على كلام عبود بشيء.

ـ لقد قتلك السرطان النرويجي اثناء الليل، بعد ان شربت آخر ما تبقّى لديك، وتدثّرت جيداً. انزلقت ما بين النوم والعدم، وها انت هنا معنا.

ضحك عبود وهو ينطق بالعبارات الآخيرة، ووجدتني ابتسم، ثمَّ سرت عدوى الابتسام على شفاه الآخرين.

إذن هي نهاية لم يخترها نديم لي، لقد صنعتها أنا بإرادتي التائهة، وجئت الى موتي هنا، بعد أنَّ كان الأمر كلُّه مجرد عذر مخْتلَق أمام اصدقاء المنفى المتقاعدين.

أنهينا جلستنا فجأةً، بعد ان ضاق المكان بمراهقين صاخبين وشباب صغار، واشتعلت فوق رؤوسنا اضواء مصابيح الهيلوجين الساخنة. وحين نهضنا، عرفت مقدار ما شربت من البيرة من خلال خطواتي وثقل جسدي، فأدركت بأنَّني تخطَّيت حدودي كثيراً. ولكنَّ هذا الاكتشاف لم يعد مهمّاً ابداً. وحالما تجاوزنا الباب الخشبي الضخم المفتوح على مصراعيه مثل أبواب المزارات حتى انطلقت صعّادات شاهقة انفجرت في كبد السماء، فالتفتّ بصورة لا ارادية فشاهدت برج القُشْلَة وقد غلَّفه ظلٌّ داكنٌ بسبب الانوار الملوَّنة فوقه وخلفه. فعرفت بأنَّنا نصنع هذه الأشياء الآن بسبب السكر الثقيل.

خرجنا الى الشارع شبه المعتم، فكانت أصوات أغنيات مختلفة تتناهى إلينا من كلِّ شباك وباب، وكنا ندندن بأشياء غير مفهومة، ولا نريد أنْ نفهمها من كلمات هذه الاغنيات. استغرقنا طنين الأنوف واللغط الذي نسمّيه غناءً. ووقفنا فجأةً داخل ساحة

الميدان حين شعرنا بتداخُل الأشياء جميعاً. ظلام وأضواء لامعة، وهواء مضمَّخ بروائح قديمة. كنت وحدي ربَّما من فكَّر بالاحتمالات التي ستواجهنا لو كُنَّا نسير في هذه الساعة سكارى في ميدان باب المعظَّم حقّاً، هناك في العالم الواقعي. ولم أعرف من الذي قال بيننا في لحظة سكون وبلكنة يائسة.. تبّاً، ولكنْ الى اين نحن ذاهبون الآن؟!

بغداد، خريف ٢٠٠٤ - صيف ٢٠٠٧

هذا الكتاب

تجري أحداث هذه الرواية على أرض الواقع، عبر استذكارات «نديم»، وأيضاً عبر الافتراضات والنسخ المعدلة التي يقترحها بطل الرواية عن هذا الواقع الغني بالتفاصيل والحكايات المثيرة والغريبة التي حدثت مع شخصيات الرواية العديدة، ابتداءً من حميد، الأخ الأكبر لنديم، ودائرة علاقاته، والمصير الذي انتهى إليه، وليس انتهاءً بالعجوز بنيّة التي ترفض الموت وتخليص ابنها من وعد البقاء بجوارها، داخل البلد، ما دامت حيّة.

ثلاثة عقود تمر عليها الرواية من حرب الثمانينيات وصعوداً، عبر مواقف وأحداث صادمة، شكّلت ذاكرة نديم، وأجيال عراقية كاملة، وربما عدم الحسم بشأن خيالية الأحداث أو واقعيتها يعطي رسالة أن هذا التمييز، بسبب فداحة ما مرّ بهذه البلاد، لم يعد مهماً ولا ضرورياً.

عبر الأحلام المجهضة ووقائع الموت المقيمة واللعب بالمصائر، يقودنا المؤلف في سرد مركّب ومتشعّب، ينضح بالسخرية اللاذعة والخيال الجامح، ولا يخفي صوت الغضب والمرارة من هذا «الانتقال من موت إلى موت»؛ حسب أحد المقتبسات داخل الرواية.

صورة الغلاف : صفاء علوان

ISBN 978-9933351137

9 789933 351137